امـرأة من دخـان

الجزء الثالث

روايـة / خيـري حـداد

الطبعة الأولى
أكتوبر ٢٠١٢

رواية / امرأة من دخان

الجزء الثالث

الطبعة الاولى

- الناشر دار الهانى للطباعة والنشر / القاهرة

- تصميم الغلاف / محمد خيرى

- جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للمؤلف

- رقم الإيداع: ١٩٠٤٥ / ٢٠١٢

- للتواصل مع الكاتب / ٠١٠٠٨٨٣٧٨٥٩

اهـــداء

الى روح أخى / محمد حداد "أبو عافية"

اسكنه الله فسيح جناته ..

امرأة من دخان

هى الجزء الثالث لروايتين سبقتها :

١- ايام الكراهيه والكلاب

٢- الشيخ وعيال البحر

٣- رواية امرأة من دخان هى المسلسل الثالث

"كيف لغلام صغير يتمرد على حياته الماضية "ألم تعجبه أحداث قوية هى كل تاريخ القرى فى بلادي.. من أنا حتى أشطح بأفكارى إلى لا منتهى غير قادر عليه" أى حرية أبحث عنها فى قرية ناس غلابة مقهورين ضعفاء وهم يبحثون عن قوت يومهم.. كانت الحرية لغيرى من الغلمان أن يلتقط فتاة أو امرأة تجمع أعواد الملوخية فى حقل أبيه، وإن كانت تسرق حَبَّات البامية أو الطماطم حكم عليها حتى لا يفضحها بأن ترقد له.. وترقد حتى لا ينفضح أمرها .. حرية من يملك على من لا يملك وهل هذه حرية.. كنت بعيداً عن هذه الأعمال، ولم يكن هدفي فى يوم أن أسطو على امرأة بين أعواد الذرة.. لكن فى يوم كدتُ أنهزم أمام إغراءِ امرأة متزوجة كانت تجمع أعواد الملوخية.. كانت صارخة الجسد .. وتوقفت أتأمل ساقيها العاريتين فإذا بى أجدها منطقة وسط بين نساء الترعة وسميرة بنت الكفر.. ولم أستطع الاقتراب منها وتسمرت قدماى بالارض فرقدت بكامل جسدها فى شريحة الذرة وقالت

تدعونى فى تهدُج :

- تعال ..
- خايف ..
- منىٌ ..
- من أمى ..
- بيقولوا عليك خايب علشان تربية أمك ..
- مش مهم تربية أمِّى خلَّتنى لغاية دلوقتى محافظ على نفسي

- بس لازم تبقى راجل ..
- هوَّ الراجل مايبقاش راجل إلاَّ بكده ..
- أيوه تعال شوف هاتتبسط أوى ..
- وجوزك ..
- مالوش دعوه بىَّ أروح الدور أروح الغيطـــان .. مـــالوش فـــى النسوان .. وبيروَّح بعد شغل الغيط بينام طول الليل من التعب..
- وعلشان كده سمعت من الناس إن فيه واحد بيجيلك الدار..
- دا قريبه..أفندى لابس جلاَّبيه مزهره أنضف من الأجرية شوية ..
- بيعمل معاك إيه ..

.. ضحكت ملء فيها رجرجت الغيط كله غير مبالية بـــشيء وعـــدلت مـــن رقدتها وقعدت وقرفصت وعقدت كفيها فوق ركبتيها .. ثم طفقت في ثبات :

- بنشرب الشاي ويِّدينى حقنة ويمشي ..
- هوَّ بيشتغل تومرجى ..
- مابيدِّيش حد حقن غيرى..
- دانت مصيبه ..
- تعال ..
- على فكره أنا لسه مابلغتش
- يالهوى معقوله ..
- دا إنت طويل أوى فكرَّت إنك بقيت راجل ..
- علشان كده خايف منّك لأنى لسه عيِّل ..
- كان هاينوبنى ثواب فيك .. كُنت هاتتعلم الدنيا ماشيه إزَّاى..

- شوفى راجل كبير أنا لسّه بغو .. وبعدين أنا مش بحب نسوان البلد ..
- وهاتروح فين من البلد ..
- من يوم ما شُفت ستّات الكفر عرفت ان الستات فى بحرى أى كلام .. بصراحة قرفت منهم ..
- على فكره أمى من الكفر .. بُص شوف هوَّ فيه واحده فى بحرى كلُه ليها الرجلين دى ..
- الله يخرب بيتك يا مفضوحة ..

.. وأخذت ديلى فى إسنانى وطلعت جرى على برّه .. ومن يومها خُفت أنزل الدره تانى لوحدى ..

.. كانت هذه الواقعة أقصى حدود حريتى فى حقل ابى حتى فى هذا العصر الحرية .. ومن هذا اليوم عرفت أن الحرية لها معان أخرى، وهذه حرية من كان يريد أن يكون حيواناً، فليست هذه حريتى وإن كنت فى الليل وأنا نائم أقارن بين ثلاثة أبعاد للحرية .. حريتى فى تأمّل سيقان نساء الترعة بعده كانت سيقان سميرة وكان فى الوسط سيقان زهيرة .. وكلّما حدّثت نفسى أى حرية أريدها فإنه لا يرنو إلى ذهنى غير التفكير فى هذه السيقان الثلاثة .. ولم أكن أملك واحدة منها.. إننى أرفض من أعماق نفسى كل نساء الترعة وسميرة هجرت القرية إلى الإسكندرية وهذه زهيرة فاجرة الغيط الجديدة .. ولم أصل إلى شيء؛ لأننى مازلت غلامًا صغيرًا لا أستطيع أن أشبع رغبات امرأة إذا كانت تلك الحرية التى أريدها :.

.. شغلتُ نفسى بمعان أكبر منّى ولم أعد أحدّث أبى وأمى عمّا يعترى حياتى من أحداث، وما أضمره فى نفسى من تساؤلات.. وبدأت أخزّن كل أفكارى

ومعان فى داخلى وعندما كنت أحتار فى شيء أدخل المندرة أتصفح الكتب التى أهدتها لى سميرة، ولم أكن أفهم شيئًا غير أن الجمل والكلمات التى أقرؤها تأخذنى إلى معان أخرى تريحنى دون أن أصل إلى مفاهيم لها، وكلَّما قبلَّتُ يد أمى وأبى كل صباح كنت أنحنى فكانا يدعوان لى وكنت أستريح كثيرًا فتذهب عنّى أفكارى فى أول النهار ثم تعود أفكار أخرى إلى رأسى آخر النهار ..

******

ولم يكن مدرسى المدرسة الإعدادى أفضل من مدرسى الابتدائى فى شيء .. غير أننى وجدتُ مدرسًا للألعاب والطرنبيدة أكبر والدَّق عليها كان عنيفًا .. وفيها وجدتُ تلاميذ من قرى مجاورة كانوا أشد فلحنة وغشومية من تلاميذ شنشور .. ووجدت محمد طراد الرجل الذى درَّس لى منهج القبول تحت تكعيبة العنبة والذى منه أحببتُ الدرس .. وجدته يعمل موظفًا بسيطًا فى المدرسة الإعدادى فهو المسئول عن توزيع الكتب على الفصول .. لكن فى هذه المدرسة لم أحب مدرسًا ولم أكره كما حدث فى المرحلة الابتدائية.. لكن الشيء الوحيد الذى وجدت فيه نافذة لحريتى كان بائع الجرائد.. اسمه على من قرية سمادون يأتى بالجرائد إلى المدرسة ليبيعها إلى المدرسين، وكنت أتلهف أن أمسكها واقرأ ما فيها مثلهم.. وفى يوم قلت لأبى :

- أريد شراء الجريدة
- سوف يشغلك هذا عن المذاكرة ..
- أرجوك يا أبى امنحنى هذا الحق ولك منى أن أنجح بتفوق كل عام ..
- خلاص يا بنى .. أعطيك تعريفة كل يوم لشرائها ..

.. وكان علىْ موزِّع الجرايد يبيع الحشيش لمن يريده من أهل القرية، وكان هناك مدرس واحد فى المدرسة يشترى منه الحشيش ليتعاطاه فى الليل مع شلته فى أحد دكاكين غرب البلد ..

ولن أنسى يوم شراء أول جورنال فى حياتى .. كانت جريدة أخبار اليوم، وكنت أقفل باب المندرة حتى لا يفاجئنى أبى أو أمى بالدخول ويرانى اقرأ الجريدة وقتًا طويلاً حتى لا يؤنبنى على تضييع الوقت أو يحرمنى من التعريفة .. وأصبحت الجريدة أغلى شيء فى حياتى تلك الفترة ولم أكن أترك كلمة واحدة منها إلاَّ وقرأتها سواء فهمتها أو لم أفهمها ..

.. ولَّما عرف المدرسون أننى أشترى الجريدة كان واحد بعد الآخر يأتينى الفصل ليأخذها منّى يقرؤها ثم يعيدها.. وفى يوم أخذ أحد المدرسين صفحة أعجبته، وفى يوم آخر تقطعَّت الجريدة من كثرة تداولها بين المدرسين، وكان الوحيد الذى يأخذ منى الجورنال ويعيده شاكرًا وممتنًا هو محمد طراد، الذى جعلنى أنجح فى امتحان القبول. وهو الوحيد الذى أعطيه الجريدة بنفسْ راضية كأننى أردُّ له بعض جميله.. وفي يوم شكوت له أن المدرسين يعيدون الجورنال لى ناقصًا صفحاته وبعضهم يأكل فوقه الفول والطعمية وآخر ينبشُ مناخيره ويمسح فيه .. فقال آسفًا:

- لا تعطه لأحد .. وبدورى سوف أمر على كل المدرسين زبائن جورنالك لأقول لهم كلمة واحدة ..
- أبو حسن ضربه لَّما عرف أنه بيِّدى الجورنال للمدرسين.. واللّى عنده دم هايتكسف ..

.. وبعد هذا اليوم كنت أشترى الجورنال خلسة من البائع وأضعه فى الحقيبة ولا أخرجه فى المدرسة لأحد .. وإذا جاءني مدرس يسألنى عن الجريدة .. أقول له بطَّلت أشتريها ..

.. وحتى آخر العام لم يعد عندى أية مشكلة أو تساؤل مما كنت أبحث عنه وكأننى وجدت حريتى فى قراءة الجريدة .. فكانت حريتى فى قريتى هى قراءة صفحات الجورنال؛ حيث تفتحَّ ذهنى على كثير من أحوال هذه الدنيا حولى .. وعادت الجريدة فى قيمتها تعادل كل ما فى حياتى من قيمة أو تزيد .. وانفرجت الدنيا المحيطة بتلك الأخبار الجديدة كل يوم والتى صنعت لى عالمًا آخر .. وبدأت أنفصل عن الواقع الذى أعيشه فى مدرستى والذى يقوده مدرس العربى ضدى ولا يدرى ماذا يفعل بنفسيتى، وكان أول عهدى به عندما دخل الفصل بديلاً عن مدرس انتقل إلى بلد آخر وتقدم نحوى كأنه يعرفنى من قبل .. تسمرت قدماه لا يحيد عن مواجهتى دون تلاميذ الفصل كلّه وفتح شدقيه .. إنه يبتسم وملأت عينى بوجهه وهزّيت رأسى كأنى أقول له .. ماذا يا أستاذ .. لماذا تبتسم لى .. ماذا تريد منى وطفق قائلاً يسمعه زملائى الذين استداروا بوجوههم إلى المدرس الذى يقف أمامى ويبتسم دون حراك :

- ياواد يا حضاَّد .. يا حضاَّد ..
- أنا .. أنا حسن ..
- عارف .. أبوك حضَّاد ..
- وإيه يعنى .. أبويا اسمه حدَّاد
- لأ حضاَّد ..
- خلاص حضاد حضَّاد .. وبعدين ..

- آه يا حضاد ..

- مش فاهم .. إنت عايز إيه يا أستاذ مندور ..

وانقلب مندور إلى كرسيه تحت التختة، وقال وهو يهزُّ رأسه ومازالت فشخة حنكه مفنجلة والتلاميذ الصغار مشدوهين نحوه .. تُرى ماذا يقول بعد .. لكنه انتقل إلى تلميذ آخر ساخرًا :

- هَو إنت ابن عزيزة ..

فقام الولد من قعدته وأكمل له قائلا بحدة :

- أيوه أنا ابن عزيزة اللّى بتبيع بطاطا فيه حاجه ..

وقام إليه ولد آخر متسائلاً :

- إنت عايز إيه يا أستاذ .. مش عاجبك حد وعَّمال تتَّريق علينا .

وقام إليه آخر :

- مش عاجبك بلادنا جاى مدرستها ليه ..

.. ويبدو أن الأولاد عجبهم دفاع وكلام زملائهم للمدرس وصفَّقوا جميعًا .. فوجئ بهم ووقف يحاول السيطرة على الفصل وقال :

- خلاص .. خلاص .. بس ياواد إنت وهوَّ .. أنا باضحك معاكم..

وقمت إليه ومشيت نحوه حتى عُدت على مقربة منه وقلت له بصوت خفيض :

- يا أستاذ مندور اضحك مع مدرس أدَّك ..

وقام ولد آخر وقال وكأنه يرجوه :

- كده هاتخلّينا نكره المدرسة .. يعنى إيه حضأد ..

- أنا باهزَّر معاكم ..

- يعنى إيه حضاد وعايز إيه من ابن عزيزة .. عايز تعرف اسم أمّنا كلنا هانقولك ليه التريقة يا أستاذ ..

وقال آخر - بلدكم مليانه بلاوى .. روح شوف بلدكم الأول يا أستاذ ..

- والله باضحك معاكم .. صحيح ياولاد انتو بلد غشيمة .. حضاد دى علشان اسم حداد منتشر كتير فى بلدكم ..

فقلت له :

- وإيه الغلط فى كده

- بطلّ كلام انت وهو ..

وكان هناك تلميذ فى الفصل اسمه إمبابى قوى الجسد وأطول من المدرس، وكان كثيرًا ما يتشابك مع أى تلميذ يقترب منه، ويبدو أنه بدأ يكيد للمدرس فوقف وخرج من حيِّز التختة وقال للمدرس فى حدة :

- والله إن خلّيتك تروَّح بلدك النهارده ..

.. أخذ المدرس أوراقه وخرج إلى غرفة الناظر محمود الدقونى ليشكو تلاميذ أولى تالت قائلاً :

- أولى تالت ده فيه عيال قليلة الأدب مش هادخله تانى ..

- ليه يا أستاذ مندور ..

وراح يحكى للناظر ما حدث ولكن بصورة مقلوبة فاستدعى الناظر إمبابى وابن عزيزة وأنا وقال للأستاذ مندور :

- طيب روح إنت وهاشوف العيال دى ..

وحكينا للناظر كل ما حدث مع المدرس .. وراح الناظر يهزُّ رأسه وهو ينظر إلينا فى شفقة ثم قال :

- طيب روحوا الفصل وأنا ها تصرَّف ..

..كنا جميعًا كتلاميذ صغار ننتظر أن الناظر سيعاقبنا من مقولة إن المدرس دائمًا على حق وأن التلاميذ يجب أن يعاقبوا بأى شكل لمجاملة المدرس، ولكن هذا الناظر جاءنا إلى الفصل قائلاً:

- ياولاد ماتزعلوش .. أنا عارف المدرس ده كويس أوى وعارف بتوع قلتى فى التريقة على بلدنا ..

وهتف التلاميذ فى صوت واحد :

- عايزين مدرس غيره ..

- هاجيب لكم غيره ..

وقفنا جميعًا نصفّق للناظر الذى رضى خاطرنا .. وفى هذا اليوم تسلَّل التلميذ إمبابى إلى عجلة المدرس مندور الذى يركنها على حائط الكانتين وخرم العجلتين بمسمار فى يده .. ولَّما عاد من مهمته أخبر الفصل، وكم كان سرور التلاميذ جميعًا بعملة إمبابى .. وحرص تلاميذ الفصل بأن يخرجوا مسرعين إلى خارج المدرسة عندما دَّق الجرس بانتهاء اليوم الدراسى حتى يتفرجوا على المدرس وهو يسحب عجلته .. وكم كان التلاميذ فى قمة سعادتهم عندما رأوا المدرس مندور يسحب عجلته إلى محل العجلاتى فى قبلى البلد وهو مطأطيء الرأس خجلاً .. وراح التلاميذ يمشون خلفه متشفين فيه .. ومنذ هذا اليوم اتخذ التلاميذ إمبابى ألفةً للفصل لشجاعته، وقام الناظر بتغيير مندور بمدرس آخر يدعى رمضان محروس من قبلى البلد ليدرِّس لنا مادة العربى ..

*****

ومرّت أيام أبلغ فيها إمبابى كل تلاميذ المدرسة بأن المدرّس مندور يعيّب على بلدنا بأنه قال كذا وكذا خاصة كلمة حضاد أثارت أعصابهم حيث لا يخلو بيت فى البلدة من اسم حدّاد .. يجرون خلف مندور وهو يُسرع بعجلته ليهرب منهم وهم يقذفونه بالطوب ويصفقون ويهرولون وراءه زاعقين :

- مندور مخبول ياقرع يابو صلعة ..
- مندور روح مطرح مطروح ياعور يابو شفة ..

حتى أنه كان ينزل فى كثير من الأحيان من فوق عجلته ليستنجد برجال من البلدة..

.. وفى يوم وقع فى الترعة من شدة وعنف مطاردة العيال له .. وشعرت ببهجة عندما اتفق تلاميذ المدرسة على شيء واحد وهو الانتقام من أى واحد ينال من أحد فى قريتهم .. وبعد أيام من مطاردة التلاميذ لمندور سألت أبى :

- هَّم ليه سمُّوك حداد ..
- كان ولاد أبويا بيموتوا .. الناس قالت له سمُّوه اسم خشن علشان الواد يعيش .. بس يابنى سمُّونى حداد ..
- والناس اللّى قبلك سمُّوا حداد ليه ..
- كان فيه زمان واحد فى البلد بيسَّخن الحديد على النار علشان يعمل منه عدد وأدوات .. كان اسمه حَّداد وأبوه كان اسمه حداد ولمَّا خلّف سمى حَّداد .. اتشهر الاسم بعد كده وكلهُ ينزل على حداد وبقى كل بيت بشنشور فيه حَّداد ..
- إنت عارف مندور مدرس العربى ..
- عارفه بيفوت من هنا كل يوم بالعجلة ..
- عيَّب على بلدنا وقعد يقول يا حضاد .. يا حضاد ..

- علشان كده وقع فى الترعة من زفّة العيال ليه ..
- أول واحد فى المدرسه قالُه ياحضاد أنا ..
- طيب ماقلتليش ليه ..
- العيال فى المدرسة خدوا حقى وحق البلد كلّها ..
- والله مانا مخلّيه يفوت من هنا وهاتشوف هاغرّقه فى الترعة..
- هَّى بلدهم أحسن من بلدنا في حاجة ..
- أبدًا بلدهم الرجاله فيها زى النسوان ..
- إزَّاى .. عايز أعرف ..
- طريقتهم فى الكلام آخر مياعة والست هنـاك بـتحكم الراجـل من زمان ..
- ياه .. دا كل بلد فيها اللّى مكفيّها ..
- أيوه بس اتعلّم تاخد حقك بإيدك لَّما حد يغلط فيك ..
- ماتخافش يابه من بكره بدل مالبس سلك فـى صـباعى هـانزل السويقة أشترى خاتم حديد ..

.. ولم يفهم أبى ما قلته وانطويتُ فى البيت أقضى حاجتى من طعام وشراب مع أمى ثم دخلت المندرة ورحت اقرأ جريدة اليوم، بعدها دخلت إلى سريرى فى الغرفة الصغيرة ونمت نومًا عميقًا بعدها جلست أمى على كنبتهـا فـى مواجهتي فقلت لها :

- ليه البلاد بتتنقوز على بعضها ..
- والله يابنى مش مشكلة قدَّر المدرس هزَّر معاك مافيهاش حاجة..
- لو شفتيه واقف كأنه بيحازنّى وكأنّى راجل كبير زيُّه وبينى وبينه حكاية ..

- برضه خد الموضوع ببساطة .. يعنى إنت هيجّت عليه الفصل والناظر لغاية ما العيال وقّعوه فى الترعة ..
- إنت مسالمة أوى يامّه ..
- انتو يابتوع شنشور متعصبين أوى لبلادكم .. ياما حكايات زى دى فى المدارس وغيرها وبتفوت عادى .. الناس يابنى مش لازم تاخد فى نفسها أوى .. لازم يبقى فيه مساحة من تكبير الدماغ بين الناس ..
- يعنى لّما حد يقولّى ياحضاد تانى أسكُت ..
- وإيه يعنى اضحك ..
- ياه للدرجة دى إنت متسامحة ..
- أنا يابنى عاديه .. الأمور ماتتاخدش بالحنبلة دى ..
- أبويا قال كلام غير كده ..
- أنا سامعه أبوك .. مش دى أخلاق أبوك .. لكن يمكن حبّ يجاملك شوية .. لكن هاقوله يروح يصالح المدرس ويهّدّ المدرسة عليه .. وبعدين عيب كده يحصل من تلاميذ لمدرسهم ..
- إنت بترجعينى لعقلى .. بس هوّ دا الصح مش لازم آخد حقّى.. دا حق البلد كلّها ..
- حق إيه وبلد إيه .. يابنى مصر كلّها بلد واحده .. أهوّ ده العصبية والخناقات اللىّ بتحصل بين الناس سببها العصبية والتعصُّب .. مش هىّ دى بلدنا .. بلدنا مع أهلها حاجة واحده .. مافيش ده منين ولاّ من عيلة مين .. يابنى لو حكمّنا العقل شويه .. نبُصْ لحاجة واحده بس ..

- إيه هيَّ ..
- العقل والعدل .. لو حكم العقل الناس والعدل شق طريق النـــاس كلّها وكان فى البلد .. أقصد لو فى كل بلد راجل واحـــد عاقـــل هايرتضى الناس كلّها بحكمه عمر ما حد يروح قسم بوليس..
- إنت بتقولى كلام كبير عليَّ .. أنا اتصرفت أنا والعيال علـــى أد سنّنا..
- على العموم هَّو المدرس برضه غلطان المفروض لما ييجى يهزَّر أو يضحك يضحك مع راجل أدُّه .. هَّى الحتة دى فلتت منه ..
- المفروض المدرس مايهزَّرش مع التلميذ عايز تقولى كده..
- أيوه .. المدرس غير الراجل العادى فى بلـــد زى بلـــدنا .. لازم يكون تصرُّفه مثل لأن المدرس قبل مـــا يـــدّرس العلـــوم يدّرس الأصول أو على الأقل يعرفها ..
- والله أنا بقيت فى حيرة من المدرسة والمدرسين وأبويا وأنت ..
- لا حيرة ولا حاجة .. خلّيك فى دروسك ولّما تزهق من المذاكرة اقرأ الجورنال اقرأ فى كتب سميرة ..
- إنت عارفه إن كُتُب سميره غالية عندى ..
- عارفه يابنى .. عارف يابنى لّما تتضايق مـــن أى حاجـــة روح للكتب أى أفكار فى الدنيا بتاخد الإنسان وتشدُه لعالم آخر ينـــسيه العالم اللّى يؤلمه ..
- هَّو إنت رُحتى المدرسة ..

- الحياة هَّى المدرسة والبيئة هى أساس الصلاح والتعلـيم.. إنـت عارف يابنى لَّما الدنيا بتزهقنى أو أى حد يسيء لَّى إنت عـارف باعمل إيه ..
- بتعملى إيه ..
- أستغفر الله كثيرًا فأجد نفسي خرجت إلى نور .. أبـص ألاقينـي نسيت الإساءة ..
- أنا لسَّه صغيَّر على الكلام ده ..
- اقرأ كتُب .. بلاش تستغفر زيِّى .. أنا لَّما كبرت عرفت يعنى إيه معنى إن الواحد يتجه إلى الله .. خليَّك دلوقتى علي أدَّك .. اقـرأ الكتب ..
- بس دى كُتب صعبه أوى ..
- اقرأ اللّى تفهمه من الجورنال ..
- اشترى لى كتب أقدر أفهمها ..
- لَّما نروح تلوانه هاكلّم خالك عبدالعزيز يجيب لك كُتَبْ سهله..
- ياريت ..

*****

.. كنت دائمًا أحاول تحرير نفسى فلم أكن أقتنع بكل شيء تقوله أمى أو أبى، وكنت دائمًا أبحث عما يجب أن يكون مع الأخذ فى الاعتبار رأيهما ومـرَّت أيام أخرى فى الدراسة حتى وصلت إلى الصف الثالث الإعـدادى، وحتـى أريح نفسى اعتبرت مرحلة المدرسة الإعدادية هى مرحلة عاجزة عما يدور فى نفسى، وأن أحداث التلمذة الإعدادية هى أحداث صبيانية ضعيفة فيها كثير

من الجهل والفوضى.. وكان علىَّ فى هذه المرحلة أن أستعين بما يقوله أهل بيتى حتى يكون لى مسارى الخاص ..

.. ورحتُ أبحث عن أى أحد آخر يعطنى أى معلومات جديدة فى تلك الحياة التى وقفت عندها تساؤلاتى ولم يجبنى أحد .. وفى يوم قلتُ لأحد أقاربى وهو يكبرنى بعشر سنين وكان هو الكبير في أسرتى :

- إننى أحب الضعفاء وأكره استمرارهم فى ضعفهم لأنهم لا يستطيعون تحرير أنفسهم من ضعفهم ..
- تقصد الفقراء .. إذا كنت تقصد ذلك فلا تضيِّع وقتك .. وبعدين إنت جايب الكلام دا منين يازعبلّة .. بقى إنت لارحت ولاجيت وعمَّال تتفلسف على الفاضى..
- كتَّر خيرك يعنى إنت ابن عمى وأد كده بتستقل منّى ..

.. وشعرت بالخزى منه وبعدت عنه ورُحت أبحث عن واحد آخر أقول له ما فى نفسى ربما أجد عنده شيئًا .. كان لابد من مثقف وليس ضروريًا أن يكون فى الجامعة .. ووجدته بعد وقت قليل من البحث .. وكان هذا الشاب يكبُرنى بسبع سنوات، وهو من العزبة البحرية ودائمًا عندما كان يقابلنى صدفة يدعونى لأن أذهب إليه فى حقله لأتناول معه العنب ونمص أعواد القصب ونشوى الذرة .. ولم أكن مجيبًا له فى هذه الدعوة غير أننى كنت أشكره وأقول له :

- مانا عندى كل ده فى الغيط ..

فيقول :

- الحاجة عندنا أحلى من عندكم بكتير ..

فأسكت ولا أخفى أننى كنتُ أخاف منه خاصة أننى أصغر منه سنًا وجسدًا .. ومرَّت شهور أخرى أتجنَّبُ فيها رؤيته حتى انتهيت من الدراسة الإعدادية ونجحت فى نظام الثلاث سنوات ولماً دخلت إجازة الصيف كان عمرى يقترب من الرابعة عشرة، وعند هذه الأيام اكتملت رجولتى فأصبحت فارع الجسد طويلاً عريضًا وأصبح صوتى صوت رجل وليس صوت غلام .. ولَّما كبر الشيء فى جسدى كان ينتفضُ شدة وقوة، وبدأت حاجتى إلى الجنس الآخر تستهوينى .. ولكن إلى من أذهب وقد كرهت كل نساء الترعة ولا أميل لنساء الغيط لعدم نظافتهن .. إلى من أذهب إليه من النساء وسميرة الجميلة رحلت إلى الإسكندرية منذ سنين .. كيف آتى بفتاة جميلة أبادلها المشاعر والأحاسيس فى قرية ملآى بالعلاقات غير الشرعية بين الرجال والنساء والشباب والفتيات .. كانت كل امرأة وفتاة حولى تبحث عن شاب آخر لفكرتهن عنّى أننى أكره كل من هى ترتدى جلبابًا بشمار كالتى ترتديه ستى شلبية أو خالتى فهيمة .. كيف يقتربن من ولد حياته كلّها زجاج فى زجاج .. لم تعرف أى نساء أو فتيات طريقًا إلى بيتنا .. فلا تدخل إلينا امرأة أو فتاة إلاَّ لأمر أو شأن وليس سهلاً أن تختلط بى امرأة أو فتاة .. فهناك أمى الحريصة على إبعاد ابنها عن كل دواعى الاختلاط خاصة بعد أن كبرت وعُدْت رجلاً .. والتى كانت تقول لى :

- إنت دلوقتى كبرت يابنى .. وحتى علىَّ عيب وأنا أمك أن أنام معك فى غرفة واحدة ..

فأقول لها :

- ليه هوَّ إنت مش أمى حبيبتى ..
- أيوه يابنى بس الصح ماتشوفنيش وأنا نايمة .. فرق كبير وانت طفل وفرق دلوقتى إنت بقيت راجل ..

.. وتركت لى أمى غرفة الخزنة وراحت تنام وحدها فى الغرفة، التى كانت تخصُّ أمى لبيبة وتركت ولديها الآخرين عبد العزيز ومحمد ينامان معها والباقون ثروت وعلى وحمدى .. ينامون كما يحلوا لهم .. وشعرت بأنه رغم مجيء كل هذا الشعب من إخوتى إلاَّ أن أبى وأمى يخصُّوننى برعاية خاصة، وكان أكثر شيء يريحنى أننى أنام وحدى فى غرفتى الصغيرة .. وكنت أمنع إخوتى من الدخول إلى غرفتى أو النوم معى بحجة أننى لا أعرف أن أنام ومعى أحد وساعدنى أبى وأمى على ذلك .. فأصبحت لى غرفتان غرفة للنوم وغرفة للمذاكرة وهى المندرة.. وأصبح الشعب كل إخوتى الخمسة شيء وأنا شيء آخر .. لهم وأمى غرفتان وأنا غرفتان .. وكانت هناك ضوضاء كثيرة يحدثها الأولاد مع أمى ولم أكن أهتم بها ولا أسأل عنها وراحت أمى تذوب مع أولادها الخمسة بعيدة عنى، وأصبح وقتها فيما يخصُّنى قليلاً عن ما قبل وهذا بحكم كثرة دولة الشعب فى بيتنا ..

.. لم يسكت هذا الشاب الذى يدعونى لنأكل العنب فهو من يوم لآخر يلحُّ علىَّ فى الذهاب معه لنسهر فى حقله إلى أن رضخت لمطلبه، ولم أعد أخاف منه، لأننى أصبحت قويًا أستطيع أن أدافع عن نفسي .. وكانت حوادث اغتصاب الكبير للصغير قد حدثت مرَّات فى جوانب القرية وكان آخرها اغتصاب البوسطجى لغلام صغير .. ذهب ليضع خطابًا فى صندوق البريد فاستدرجه فى داخل المكتب واعتدى عليه فى غرفة داخلية كان يسكنها ..

وكان هذا البوسطجى غريبًا عن بلدتنا، وكان يقطن فى نفس البيت الذى فيه عمله البريدى .. مازلت أتذكَّر هذه الحادثة المشينة تتناقل أحداثها فى جنبات أرجاء قريتى وكنت وقتها فى المرحلة الإعدادية، وظلَّت القرية تطارده بالطوب والبصق فى وجهه كلَّما رأوه في الشارع حتى تم نقله إلى بلد أخرى ..

.. غير أن هذا الشاب الذى يدعونى كان رقيقًا ونظيفًا ووديعًا، وكان يرتدى من الثياب أجملها وحريصًا فى تصفيف شعره ودهنه بالفازلين .. غلبنى أدبه الظاهر لى وكذلك غلبنى لمَّا جاءنى بعد عشاء ليلة من الليالى وأخذنى إلى حقله قائلاً وأنا أقف أمام البيت :

- تعال بقى أنا موضِّب كل حاجة فى الغيط وهاتلاقى مرات النفر عامله كل حاجة ومستنيَّانه فى الجرن ..
- مرات النفر ..؟
- أيوه ..
- حلوه ..
- حلوه أوى ..
- هوَّ إنت .. يبقى إنت شايف شغلك معاها ..
- ياعم حسن كل حاجة .. ولو عايزها وعجبتك تحت أمرك ..
- يانهار إسود .. يافكيه..
- واسود ليه .. دانا عندى هيصه مش عند حد .. ياللا إركب ورايا..

وانقلبت إلى داخل البيت وأخبرت أمى بأننى ذاهب إلى الغيط مع فكيه ابن عبدالكريم الهلبانى ..

ولم أعط أمى فرصة الرد وانقلبت إليه وأمى تجرى خلفى زاعقة :

- خد .. خد رايح فين ..

وقفزتُ خلفه تاركا أمى ترجونى ألاَّ أذهب، وكانت حدودها باب السور الخارجى فلا تستطيع أن تجرى خلفى لتمنعنى لأن المحجوبة لا تخرج من باب البيت كنساء العوام .. أسرعت الدابة وفكيه يقول لحمارته مهلّلا :

- حا .. ليلتى أحلى ليلة ..

.. وشعرت بأننى أخاطر لأول مَّرة فى حياتى وأتعدى حدود ما نشأت عليه فى بيتنا .. ولم يعد للهواجس التى انتابتنى من قبل نحو فكيه .. أى شيء يأخذنى إليه وكيف لغلام صغير مثلى أن يذهب مع الكبار فى حقولهم .. وبدأت أغرق عندما التصق جسدى بجسده وكلما أسرعت الدابة تلاحم الجسد وقال :

- امسك فيهَّ ..

أمسكت به .. احتضنته .. أثارنى جسده ولأول مَّره منذ بلوغى أشعر بمهام جسدى تركنى أحضنه ولبس فى جسدى ..وكان جسده يرتعش وعند قنطرة محسوب سعد ارتجفت السحب فانهمر المطر ..نعم إنها الفجيعة ولكن ماذا عن المرأة التى تهيَّأ لنا القعدة هذا المساء ..فقلت له بعد أن هدأ جسده قليلاً :

- جوز الست سهل أوى .. سايبها معاك بالليل والنهار ..

- جوزها مات ..

- وأهلها ..

- هىَّ الفقيرة ليها أهل ..

- أكيد كل فقيرة ليها أهل ..

- هوَّ الغلبان بيقدر يتكلَّمَ ..

- هَّى قاعده معاك على طول ..
- هاتروح فين .. عايشه فى بحراية الزريبة.. أكل وشُـــرب فـــى البحراية وبتنام فوق فرن الزريبه ..
- ليها ولاد ..
- ما خلفّتش ..
- وأبوك مابيقولكش عيب كده ..
- أبويا يحمد ربّنا إنى شايف له مصالح الغيط .. وبعدين هوَّ غاوى البلد وما بيحّبش الغيط .. بيحب قعدة البلد ..
- يا بختك دا إنت عامل مملكة ..
- ياريت تبقى واحد من المملكة ..
- هوَّ أنا شفت حاجة لسه ..
- أهو إنت عرفت أنا عايز إيه .. بس إنت راجل جامد أوى ..
- أول مرَّه أحس بنفسى من يوم ما بلغت ..
- عجبتك .. دانا حلو أوى .. أحلى من رئيفة ..
- أنا حدودى ضهر الحماره ..
- إنت هتتبسط أوى .. أنا أحسن من أى ست ..
- لا جرَّبت الست ولا الراجل ..
- بشايرك باينه زى الفل .. ليلتك يا حسن كلها دلع ..
- أنا حاسس أنكَّ هاتبوَّظنى ..
- إنت هاتعرف الدنيا فيها إيه .. وهاتدعيلى ..
- لكن إيه اللىِّ خلاَّك كده ..
- جوز رئيفة هوَّ اللىِّ استعملنى قبل ما يتجوِّز ..

- وانت ليه رضيت ..
- باحسب الدنيا كلها ماشيه كده .. هوَّ اللىِّ سنُّه عشر سنين يعرف حاجة فى الدنيا ..
- لَّما عملها معاك ليه ماقلتش لأبوك ..
- خُفت من أبويا .. وبعدين لقيتها حاجة حلوة .. بقيت بعد كده أدور على جوز رئيفة .. وعلى طول أبويا سابنى معاه بالليل والنهـار علشان أتعلّم كل حاجة فى الغيط منه ..
- ولَّما النفر ده اتجوز رئيفة ..
- بقيت أجيب عيال من الغيط .. ولأول مَّره أجيبك من البلد ..
- أنا خايف أوى ..
- إنت اللىِّ هاتجرى ورايا من هنا ورايح ..
- ياه معقوله ..

****

.. نزلنا من فوق الدابة ودخل بها الزريبة ليربطها .. وقلت لنفسى لمـاذا لا أمسك ما فى داخلى من مجهول ينتظرنى .. وجدت نفسى أنقلب إلى الـسكة التى جئنا منها وأجرى نحو البلدة ولم أعمل حسابًا للظلام الدامس الذى يكسو الطريق أو العفاريت التى يحكون عنها والـدور المهجـورة علـى جـانبى الزراعية .. وكدتُ أقع مرتين من تعرُّج الأرض .. وكان فى طنـين أذنـى كلمات أمى تدوىِّ .. خد خد .. رايح فين .. كانت الزُراعية خالية أمـامى، ولم يعترضنى قط أو كلب أو بنى آدم يذهب إلى حقله وكأننى أعود فى غفلة من عيون الناس .. ولَّما بزغ ضياء البلدة من بعيد زدت من سرعتى فتهدَّجت

أنفاسى وكدت أقع .. وطلع صوت رجل فى خص مظلم .. بتجرى ليه يابنى .. فيه حد بيجرى وراك .. ولم أرد عليه فقد دخلت فى بيوت القرية ولم أكن فى حاجة إلى الركض .. مشيت على مهل وأنا أضع كف يدى على صدرى ورحتُ أقول فى صوت خفيض .. الحمد لله .. الحمد لله .. تجاوزت حى الغرب الذى تقع فيه مدرسة الرفاعى، وكان الطريق خاليًا من أحد يعرفنى والشارع المؤدى إلى دارنا يتسع أمامى .. وكان أبى يقف أمام البيت حائرًا .. ولَّما اقتربت نحوه قال :

- كنت فين .. كنت فين ..
- كنت فى ليلة سودا ..
- بتروح مع فكيه ليه .. إنت مش عارف فكيه بيعمل إيه ..
- ماتخافش يابه .. قدرت أفلت منه ..
- طيب تعال نخشُ .. أمك عماله تولول وأنا كنت هاركب الحمارة وآجيلك ..

.. جلسنا قرب صومعة القمح فوق مصطبة وسط الدار البَّرانى .. انعدل أبى فى قعدته وقال :

- قولّى من طأطأ لسلام عليكو ..

.. وهلعت أمى نحونا مخترقه باب وسط الدار وراحت تحتضننى والدموع تملأ وجهها وتفتّش بأصابعها صدرى وكتفى .. احتضنتها بذراعىْ ورحتُ أبكى فقال لها أبى :

- اهدى .. اقعدى .. حسن هايحكى كل حاجه ..

فقلت خجلاً لأمى وكأننى أرجوها :

- ممكن يامَّه تدخلى جوه ..
- ليه يابنى ما تحكى ..
- أصل الحكاية فيها كلام عيب ..

****

.. حكيت لأبى كل شيء ولم أخجل .. عَّودنى هذا الرجل وحكى لـى كـل أسراره لكى أنشأ على وعى بالدنيا حولى..ولَّما انتهيت قال وهو يهز رأسه :

- فكيه معروف من زمان ربَّنا يكفينا شر المرض..
- أكيد أبوه عارف .. دا كل العزبه عارفه وفكيه ماخلاَّش حد ..
- ما تروح لأبوه ومعاك أبويا أمين تعرَّفوه ..
- إلاّ دى .. أصل إنت ماتعرفش رجالة البلد ..
- فيهم إيه ..
- كل واحد فى دماغه إن ولاده أحسن ولاد فى الدنيا .. وأنا مـش ناقص عداوة من حد ..
- بس فكيه دا فظيع .. الموضوع دا وحش جدًا فى الراجل ..
- فعلاً يابنى الكارثة فى الراجل إنُه يكون مش راجل..
- يعنى الدنيا ماشيه كل واحد فى حاله حتى ولو كان فيـه مـصيبة عند حد نسيبها تسرى بين الناس ..
- الناس ماشيه بغض الطرف وكل واحد بيقول وأنا مالى ..
- الحته دى ناقصة لازم تعملوا فيها حاجة إنت وأبويا أمين ..
- أصل دى حاجات مخفيةً ماحدَّش بيشوفها..ربَّنا يعفيهم ولا يبتلينا..

- ياريت الناس بدل ما تقول أمثال وحكم وينتهى الموضوع بـدعاء .. ياريت الناس تبقى عملية وتحل المشاكل بشكل حاسم وواقعـى وبعدين تدعى وتقول حِكم ..
- على فكره اللى زى فكيه قليل فى البلد .. كل ناحيه فيها واحد أو اتنين وزى الواحده الأنيتة ما بيتلم عليها كلاب الحته الولد البايظ بيتلم عليه البايظين اللىّ غاوين كده ..
- إنت يابه بتحللّ الناس دى وبتتكلّم كأنها حكاية عادية ماشيه هنـا وهناك ..
- يابنى المواضيع دى حسّاسه والكلام فيها جروح .. اللّى أقدر عليه كواحد من الناس أنى أحافظ عليـك وعلـى إخواتـك ومالنـاش دعوه بحد ..
- أنا عمرى ما كنت أعتقد أن فيه رجّالـه ورا هـدومها بتـستخبه بلاوى ..
- ماتاخدش الناس بهدومها ولا بكلامها ..
- وعلشان أحافظ على نفسى وأبعد عن الحاجات دى أعمل إيه ..
- ماتخلطش بحد .. وصلّى واقرأ فى كتب غير كُتب المدرسـة .. احمى نفسك بالأفكار اللىّ فى الكتـب وشـويه اتـسلّى بقرايـة الجورنال وروح معايا أى مشوار تعرف مشاكل الناس فى البلد..

.. ورحتُ أهزُّ رأسى وكأننى سأعمل بوصاياه فقال :

- خلاص ..
- كُتب سميره صعبه ومش فاهم فيها حاجة ..
- هاسافر منوف قريّب واشترى ليك كتب تانيه سهله..

- أنامش بافهم كُتب الدين .. هات لى قصص ..
- كتب الدين تفهمها لَّما تكبر .. اللىِّ نملكه دلوقتى علشان وقتك يتملى بالمفيد أن ترافقنى فى أى مكان أذهب .. وبعدين القرايه ومن غير كلام اسمع معايا القرآن الصبح وبالليل من الراديو .. وسكت ..
- وبعدين ..
- اكتب .. اسألنى فى أى حاجة مش عارفها ..
- أكتب إيه ..
- اكتب أى حاجة فى دماغك ..

وانتهى ما كان فى هذه الليلة بأن فتح لى أبى أبوابًا جديدة لتغذية عترات نفسى والفراغ الذى أعيشه .. ومَّرت أيام أخرى حتى قدَّمت أوراقى إلى مدرسة منوف الثانوية وسعدتُ كثيرًا لأننى سأذهب إلى منوف دارسًا وليس إلى مدينة أشمون .. وكانت مدرسة منوف أقوى وأفضل مدرسة ثانوية فى المحافظة .. كنت فى خلاف نفسى مع مدينة أشمون فلم أحبها فى يوم من أيام طفولتى عندما كنت أذهب إليها مع أبى لتجهيز عرائس وعرسان البلدة منها .. ولم يكن فى مدينة أشمون محل فول وطعمية كما محل فول "أبو النور" فى منوف .. وكانت سعادتى بالغة عندما أخبرنى أبى بأننى سوف أعيش فى منوف فى شقة يستأجرها لنا هناك ..

.. كنتُ قد مللَتُ كل شيء فى قريتى .. شبعت من القلع والحصاد والدرى والساقية .. نمتُ فى زريبة البهائم فى الليل والنهار استحممت كثيرًا مع أبى فى مياه البحر الأعمى .. ركبت الجاموس وهو يعوم فى بحرنا .. شربتُ شاى الأنفار وقت الظهيرة تحت ظل الشجرة الظليلة .. شبعت من رؤية

سيقان النساء اللائى يحلبن الجاموس، وهربت من ساق زهيرة بين أعواد الذرة .. رأيت الأنفار فى البحر وهم يعتدون على غلمان أصحاب الأرض .. رأيت الصيادين فى مراكبهم وهم يضربون طبول القوارب كى يدخل السمك فى شباكهم .. حزنت كثيرًا من طبل "أبو عوف" وهو يضرب طبلته الكبيرة أمام باب الميت ثم يمشى أمام الناس والميت يطبّل طبلة الرحيل حتى القبر .. وملأت نفسى كل السعادة حين ذهبت مع أبى إلى دكان عبده أبو سعده .. شربتُ شاى الدكاكين وشاهدت شُرب الجوزة ودخانها من منخار أبى .. شبعت من الحلاوة الحمصية والسمسمية والعلف .. وكم كانت سعادتى عندما كنت أتأمل نساء ورجال قرية هيت وهم يذهبون إلى سوق الخميس فى بلدنا .. كانوا يحكون ويتكلمون بصوت عال كأنهم يفرّجون عن أنفسهم خارج بيوتهم وهم فى طريقهم إلى السويقة .. لم أنس يوم تمردت على نساء الترعة وامتنعت عن رؤية كل ما فى النهر الصغير عندما ذهبت إلى الكفر وكشفت لى سميرة عن ساقيها .. أيقنت فى داخلى منذ حبى الأول لهذه الفتاة أن فى الحياة مجالاً كبيراً وأفقًا بعيدة للحرية والحب وأنه لابد من الرحيل .. الرحيل من بحرى إلى الكفر .. الرحيل من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الإعدادية .. الرحيل من مدرس إلى مدرس أحببتُ أن أتعلَّم منه .. الرحيل من فكيه والفكاك منه إلى أبى وأمى لإنقاذى .. الرحيل حتى من سماع صفارة مكنة الطحين رغم أن مكنة الطحين هذه أعطتنى أبعادًا لذيذة منذ أن وعيت الحياة وأفقًا لا أستطيع تصويره .. أنقذتنى من كل واقع اليم أصابنى كأننى شربت جرعة من دواء .. وكم كرهت شارع "أبو سمك" وفتحى ستيتة والمجرمين من الأنفار الذين يعتدون على الصبية والبهائم .. كان ذلك واقع لا أحد يستطيع إلغاءه وماض فيه الحب والكراهية والاشمئزاز وكان لابد لى من

تغيير هذا الواقع ولم يكن فى مقدورى ذلك وأنا صغير .. وجاء الوقت الذى كبرتُ فيه وأستطيع تغييره الآن بالرحيل .. الرحيل إلى منـوف .. هنـاك أصنع كيانى الخاص بى وهناك ستكونُ حريتى ..

****

وإلى حين أرحل كتلميذ فى منوف الثانوية رحت أسهر فى المندرة حتى فجر كل يوم أقلّب فى قصص اشتراها لى أبى من سور الأزبكية وأعداد كثيرة من مجلة الهلال القديمة، وكنت أستمتع ولا أصل إلى شيء غير أن هناك وجعًا فى داخلى يتشقّق ألمًا لافتقادى كثيرًا أى شخص فى هذه القرية أكلّمه ويجيب عن تساؤلاتى .. إننى لن أذهب إلى أى إنسان فى هذه البلدة فلقد ذهبت إلـى الهاوية عندما رافقت فكيه إلى حقله .. عدتُ إلى بيتى وقفلت علـى نفـسى حيطانه ولن يكون عالمى غير مزيد من الكتب والقصص والأفكار .. وكلّما ذهب أبى إلى القاهرة عرج على سور الأزبكية ليأتى لى بكتب يعتقـد أنهـا ستفيدنى ..

.. وبدأت أنفصل عن قريتى وساعدنى ما وجدته فى الكتب حيث تولّدت فى داخلى أفكار جديدة .. ورحيلى عن القرية فى القريب بدت لى ملك يدى فشفا ذلك صدرى من زفرات الترقّب والانتظار ..

.. وكنت أكره المقاهى ولعب الكوتشينة والدومنو والشطرنج رغـم أن كـل فتيان البلدة يمكثون فى المقهى أطول وقت ممكن وكل ما قيل من حكاوى ليلة أمس فيعاد هذه الليلة .. أحاديث مكررّة وحكايات فيها كثير من الإفتـراءات على الناس خاصة الأقاويل عن النساء، سهرات هنا وهناك ونساء وفتيـات يشبعون الشوارع والحارات مالذ وطاب من رغبات الأجساد، ورغم أن كثيرًا من الرجال يعودون من أعمالهم منهكين من غيطانهم لمعاناتهم طوال النهار

.. لكن إغراء الدكاكين والغُرز والمقاهى ودخان عـابق برائحـة المعـسل والسجائر وشللُ أخرى أشد تعبُّ الحشيش، ويتشابك هذا وذاك لأسباب تافهة، وتتكون فتوات النواحى والعائلات تنتقم من بعضها البعض لأسباب غير لائقة فينتج عن أحداثهم الخائبة الأحقاد والعداوات فيعودون إلى بيـوتهم مـشوهى وممزقى الثياب .. هذا هو الحال المعيش لقرية بأكملها وأنا مازلـت منهـا متفرِّجًا متأملاً غير مشارك فى أحداثها التى لا تروق لكبير أو صغير ..

.. كل من حولى يبحث عن سد جوعه وحاجته إلى لقاء امـرأة أو فتـاة .. الجميع يرتع فى كثير من الفوضى والإباحية، وإذا كان بى ضعف فكيف لى من شفقة على نفسى غير أن أرحمها من اشمئزازى من كل الناس حولى وأنا لا حول ولا قوة لى سوى الانزواء فى بيتى أبحث عن أفكار ومحطات أخرى تنقلنى من محطة حياتى هذه التى أصبحت ثقيلة على نفسى حتى تكاد أنفاسى تخنقنى من شدة النفور من كل مظاهر الحياة التى تحيط بى ..

.. أنحنت فوقى وأنا أدخل فى نعاسى وقالت وهى تقبّل جبينى :

- ياحبيبى .. ياحبيبى ياحسن هاتسيب أمك .. غصب عنى أسـيبك تروح عشان العلام ..

وقمت إلى أمى وهرشت فى رأسى :

- هَو أنا هاتنّى جنبك يامه .. مانا هاجى كل أسبوع ..
- صعب علىَّ أوى ..
- فيه غيرى .. ماخواتى معاك ..
- إنت واخد قلبى يا حسن .. إنت الغال ياحبيبى ..
- والحل إيه ..
- دا أمر لابد منه لازم أصبر ..

وقمتُ إلى خارج البيت وراحت أمى تقضى حاجيات المنزل اليومية، وكان هناك شباب صغير فى مثل عمرى ينضمون حول رجل يرتدى عمامة وجبَّة ويعمل مدرسًا فى مدرسة البنات الابتدائية يجمعهم الشيخ ليكونوا عيال الاتحاد القومى ذلك الحزب الجديد الذى ابتدعه رجال الحركة ليلتف حوله الشباب الصغير والكبير، وكان هذا الرجل يدعو الناس إلى الانضمام لهذا الذى يُسَمَّى الاتحاد القومى، وكان هذا الشباب الصغير يقف ضعيفًا أمام إغراءات هذا الرجل فى إقامة الرحلات والمعسكرات فى عاصمة المحافظة أو الذهاب إلى القاهرة للهتاف والتصفيق لمن يخطب أو ينعِّر من أجل قومية عربية والإشارة إلى تأييد بطل هذه القومية .. أو يحشد مجتمعه من أجل تأييده فى تشجيع وإقامة ثورة فى بلاد أخرى مجاورة، ولم يكن فى أبناء قريتى الصغار من يأخذ قرشًا من أبيه كمصروف يومى .. لم تكن هناك أى مظاهر أو تصرفات هنا أو هناك حتى الأغنياء من قريتى أن يأخذ من أهله مصروفًا يوميًا ..وكان يحكى أن من يفلح فى أخذ تعريفة من أبيه فأقصى ما يقوم به أن يذهب إلى الدكان ليشرب الشاى مع صحبته أو يشترى قرطاس بلح أمهات من عثمان الحلوانى أو يشترى به كراملة أو حلاوة علف أو يقبض عليه فى جيبه حتى يأتى يوم الخميس .. السويقة .. ليذهب إلى السوق فرحًا ليشترى به يوسفى أو برتقالا أو موزاً .. وكان أى ولد فى القرية يأكل اليوسفى أو الموز يكون حكاية سياحية بأن ابن فلان يقشّر الموز والبرتقال ويأكله .. ويتجمع الناس والأطفال والعيال حوله حتى يشاهدوا ذلك البذخ ومتعة الحياة التى يتمتع بها هذا الولد الذى يأكل البرتقال .. وكان الغلام الذى يرتدى بيجامة ويقف أمام بيته أو يذهب بها إلى المدرسة أو السوق يلتف حوله الجميع كأنه مثلة، ويعتبرون مثل هذا الولد حاجتين

لا ثالث لها .. أنه ابن ذوات ومنتهى الحضارة والتقدم أو شيء آخر أن هذا الغلام مخنَّث بمعنى أن العيال تعمل فيه ويتقولون عنه الحكايات وهو منها براء .. فيدخل إلى أمه قائلاً :

- لبسِّيني جلابية العيال بيفكرونى حاجات وحشة يامَّه .. أرجوك يامَّه ..

.. وكانت نساء الترعة والحارات التى يسكنها الكادحون تعملها حكاية حين يقعدون فى المساء فى بحراية بيوتهم :

- شوفى ياختى ابن فؤاد لابس بيجامة .. أما إحنا النهارده اتفرَّجنا فرجه ..كل الناس شافت ابن فؤاد .. هوَّ جايبها منين ..مش عيب دا البيجامة دى تلبسها الواحدة فى أودة النوم تزغلل بيها عين جوزها ..

.. فى وسط هذه الاعتقادات والتقاليد والخيابات كان الشيخ الذى يحاول جمع العيال فى القرية ليذهب بهم إلى العاصمة للهتاف والتصفيق يجد مجهودًا كبيرًا من الغلمان يتسابقون نحوه؛ لأن الواحد منهم فى آخر النهار سينقده خمسة صاغ وفى بعض الأحيان عشرة قروش .. وأمام عينى كان يشحن الأولاد فى عربة نقل ويذهب بهم إلى المدينة فيصفقون ويهتفون "يجعرون" طول الطريق من القرية حتى العاصمة مخترقين موقع حشد الشباب فى المدينة الكبيرة الذين تجمعوا من كل القرى .. آلاف مؤلَّفة من كل القرى وقفت تهتف وتصفِّق للزعيم وهؤلاء هم عماد الاتحاد القومى الحزب الأوحد لجماعة الحركة .. وهكذا بدأ تعوُّد الناس أنه مقابل الهتاف والتصفيق فيه فلوس .. تعلَّم الشباب الصغير السياسة المرتزقة وأنه فى مقابل التصفيق

سيكوّن دخلاً إضافيًا يدخل إلى جيبه وبيته .. وسألتُ نفسى وأنا أرقب هـذه التجمعات والنشاطات :

- هل القرش يكوّن قيم أى حركة فى العالم .. وإذا كان لأى حركة فى المعمورة أن تجمع الناس على هدف أن تجمعهم بـالفلوس .. لماذا تكّونوا جيل المرتزقة .. هكذا سألت نفسي ولم أجد إجابة فلا أحد يجيبنى ولا أستطيع التوجه بتساؤلى إلى أى شخص بالقريـة أكبر منى سنًا وثقافة لأن ما حدث بينى وبين فكيـه لا يمكـن أن يتكرَّر .. وكانت تلك الأحداث تكوّن يومًا بعد يوم تاريخ تلك مـا أطلقوا عليها ثورة، انجرف الناس إلى كل الأشكال والأحداث مـا دمت أقبض وأقفش أقول وأهتف وأصفّق وفى يوم جـاءنى هـذا الشيخ الذى كان عماد الاتحاد القومى فى البلدة وقال لى وأنا أقف على حرف الترعة :
- تعال ياحسن معايا النهارده..إنت مش عايز فلوس ..
- فقلت له ؟ وأنا أهزُّ رأسى :
- أبويا بيّديني خمسة صاغ فى اليوم .. مش عايز فلوس ..
- أنا عارف انك شبعان .. تعال معانا شوف الدنيا وعلـشان تبقـى كادر من كوادر الحزب ..
- بصراحة أنا مابحّبش السياسة طول ما هىَّ بالشكل ده ..
- العيب مش عليك .. العيب على أبوك وأمك اللىّ خلـوك متكبـر على العمل الوطنى ..

- هوَّ دا العمل الوطنى .. لسه طالع من البيضة وأول شيء أعملـه أهتف وأصفِّق هوَّ أنا ماليش رأى ولاَّ ماليش دماغ .. اسمع يابـه الحاج إنت بتاخد كام على كده ..
- عيب ياحسن أنا هاقول لأبوك على مسخرتك ليةَ ..
- زى ما انت عايز روح قولُه ..
- إنت مش هَّمك حد ..
- يابه الحاج كفايه معايه كده .. أنا بس ليَّ دماغ مش زى أى عيِّل بتلمُّه بقرش .. أنا متربِّى صح ياريت بعد كده تبعد عنى أحسن..

****

.. ما معنى الحزب ؟ أى حاضر وأى مستقبل ؟ وماذا يريد هـؤلاء الـذين انقلبوا ويسمون أنفسهم الثوار .. يعنى إيه قومى .. ولماذا نصفِّق .. إن مـن يسوقنى لأن أصفِّق وأهتف له مقابل خمسة صاغ أليس هذا هو الخوف .. إذا على كل فقير لا يذهب فى العربة مع الشيخ أن يموت من الجوع .. إذا كنت تريد أن تأكل تعال اهتف وخد قرشين .. وكان هنـاك فقـراء كثيـرون لا يذهبون لأنهم يفكرون وكثير من المبسوطين لا يذهبون لعدم قنـاعتهم بمـا يحدث وليسوا فى حاجة إلى القروش.. أليس هذا مذهب المرتزقة .. نـشروا وانتشروا وكان فى كل قرية مثل الشيخ أو تاجر ذمم .. وكلَّما كانت هنـاك مناسبة وطنية تهم الوطن وما يهم الوطن بالنـسبة لهـم أن زعـيم الثـوار سيخطب ولم يكن بالنسبة للوطنية فى رأسى سوى أين القيم أنت تعلِّم النـاس أن يبيعوا ضمائرهم بالفلوس .. أنت تنشيء جيلاً من المرتزقة السياسيين .. لا أحد يجيب إننى أكلِّم نفسى ..

.. كانت عربة النقل التى تنقل البهائم إلى سوق الأربعاء "سوق أشـــمون" أو إلى سوق السبت "سوق منوف" تتحرك من أمام بيتنـــا محمَّلـــة بالجـــاموس والعجول والبقر إلى هذين السوقين ولم يكن فى مقدور أى تاجر أن يحمـــل بهائمه إلى السوق فى عربة إلاَّ تاجرين فقط .. إبراهيم على تاجر من العزبة البحرية ويحمل فى عربته أطيب البهائم وأحسنها ..

أما أولاد شرارة فهم يحملون فى عربتهم البهائم السقط والعيَّانة والكبيـــرة .. أمَّا باقى تجار البلدة فهم تجاَّر نص لبه .. تجاَّر حميـــر ومـــاعز يحملـــون بهائمهم على عربات كارو أو يمشون بها سيرًا على الأقدام ..

.. تذكرت هؤلاء من التجار عندما رأيتُ عمى سيد القطان وهو يملأ قلَّتـــه الفخار بالماء من حنفية خليفة الأكرت .. هرولت إليه مسرعًا وقلت له وأنـــا أبتعد خطوات عنه :

- شفت ياعم سيد عربية الاتحاد القومى وهىَّ ..
- هىَّ إيه يابو حداد .. واخد العيال ورا فـــى الـــصندوق زى ولاد شرارة مابياخدوا بهايمهم للسوق ..
- أمَّال هايخدهم راكبين حمير ..
- المفروض ياخدهم فى عربية بنى آدمين ..
- العيال فرحانين بكده خلاص ..
- آه يابو حداد .. عمك الشيخ بيخنصر الباقى فى جيبه ..
- هوَّ بياخد كام علشان شغلته دى ..
- سامع أنه بياخد اتنين جنيه .. دا غير الأروطه ..
- وهىَّ دى السياسه بقى ..
- الراجل ده زى التاجر..تاجر الوقيع السقط زى ولاد شراره كده..

- تقصد العيال دى سقط ..
- طبعًا يابو حداد .. العيال دى غلابه وفقرا وهوَّ يستغل حـــاجتهم للقرش ..
- ومش عيب إن السياسة تتبنى على الاستغلال ..
- السياسة فى بلدنا طول عمرها ماشية بالفلوس ..
- وهىَّ كل البلاد اللىِّ حوالينا سياستها سودا كده ..
- والله يابو حداد الدنيا مش زى زمان دلوقتى بقت هوجه وهتافات وتجعير ..
- أنا كده كويسِّ مارحتش معاهم ..
- إنتَ كده كويس .. إنت عارف العيال دى منين ..
- منين ..
- من شروة حسن والحوض وشارع أبو ســمك وشـــارع حـــسين حنضل وشعبان فرج .. الناس التعبانه كلها مع عمك الشيخ ..

.. وكم كنت سعيدًا من مخاطبة هذا الرجل لى .. أبو حَّداد .. إنه لا يتكلَّم مع صبى فى الحته إلاَّ معى وأشعر أنه يحترمنى من مناداته أبو حَّداد .. وهـــو رجل يعيش فى غرفة بمنزله الكبير ويحيا حياة خاصة به فهو زاهد وربمـــا يكون ساخرًا من كل الناس فلا يعجبه أحد من حوله .. يملأ قلَّتهُ بالماء كـــل يوم من حنفية خليفة ويشترى كل صباح الفول والطعمية من زكيـــة بتاعـــة الطعمية وفى الغداء يكون قد طبخ دجاجة مع حلة بطاطس تكفيه أربعة أيـــام وجبة الغداء، ويجلس أمام باب الدار مقرفصًا يشاهد المارة وإذا حارنه صبى أو صبية من المارة أو انتقوز عليه سَّبه عم السيد ولعن سلسفيل أبوه .. ولـــم يكن يتكلَّم مع أى من أبنائه سوى عبدالحميد الذى كان حنيناً وودوداً معـــه ..

إنه يعرف كل شيء عن أحوال الحتة والدكاكين وحكايات السوق ونسوان الحنفية .. كل ما يحدثه من نشاط أنه يرى ويعى كل ما حوله ومشاركته هو أن يهزّ رأسه يمنة ويسرة أو يبصق أمامه وعندما تمتلئ نفسه بالضيق يقول:

- عوضى .. عوضى عليك يارب ..

وإذا كنت مارًا فى أى وقت زعقت نحوه قائلاً :

- إزّيك ياعم سيد ..

فيرد علىَّ زاعقًا :

- مرحبًا .. أبو حداد مرحب ..

فأسعد من تقديره لى وأمر من أمامه وكأننى اجتزت امتحانًا فى الروح المعنوية ونجحتُ فيه .. وكنت دائمًا أحاول إقامة علاقات طيبة مع غيرى من الناس خاصة من هم مثلى الذين لا يهتفون ولا يذهبون مع شيخ الاتحاد القومى فى عربته، وكانت هناك فِرق كثيرة فى القرية ملتزمة بالحياة العادية مثل أولاد "أبو خليفة" الطيبون الذين يلعبون أمام بيتهم أو يتفرَّجون على النشاط البشري بالترعة، ولم أكن على وفاق معهم؛ لأنهم حدوديون جدًا ولم أصادق أو حتى أكلّم أحدًا منهم لانطوائهم الشديد لكننى كنت سعيدًا بهم لأدبهم ولعدم انطوائهم لدعوة الشيخ الذى كثيرًا ما دخل البيوت ووقف مع الشباب الصغير ليكون داعية للاتحاد القومى أو أحد أفراده .. وسبحان من جعل الحب الفطرى والتلقائى بين الناس .. فى قريتى معنى الحب الوحيد فى قعدة دكان أو الذهاب إلى السويقة للبيع والشراء أو شراء البلح الأمهات من عثمان الحلوانى أو تأمل نساء الحنفية والترعة .. كنتُ أبحث عن حقيقة ولم أكن أصل إلى شيء فكنتُ أنطوى أسعد مع أصحابى فى الدكان أو الذهاب إلى السويقة مع أولاد القطان الثلاثة عبدالحميد وحداد ورشاد .. غير أن هذا لم

يكن يشبعنى تمامًا فكان فهمى شديدًا لمعرفة الكثير عن الناس وحكايات قريتى، وكان ذلك يدفء نفسى التواقة إلى التأمل والاندهاش إلى الغريب والذى أجهله .. وكانت موجات جديدة من النعران والصوت العال والتجعير وجماعات الخطابة تنتشر فى كل مكان لتأييد ما يسمى الثورة، وكأن الناس كانوا فى حاجة إلى رجل يصفقون له ويهتفون وكأن ما كان فى تأميم قناة السويس بداية البطل الذى بدأ يسيطر على كل دماغ فى القرية يهتم باللحظة الراهنة فانساق الجميع خلفه دون تفكير أو رؤية وتمهّل، وكل من راح وجاء زعق يحيا عبدالرؤوف الزلبانى، ورغم طيابة الناس وتصديقهم لأخبار الراديو أو شائعات للخير قادمه تطلق من فيه شيخ الاتحاد القومى وأعوانه، فإن الناس كانوا ينتظرون قضاء أى حاجة أو مصلحة أو مكسب جديد فلم يكن هناك إلاَّ مزيد من الطموح النظرى فى الغد ينتشر بين الناس ويأتى الغد فلا شيء جديد .. ودخل التليفزيون كل مصر ولم يكن فى قريتى كهرباء عام ١٩٦٠ وكان الناس يذهبون إلى المدينة ليتفرجوا على التليفزيون ثم يعودون وكان كثير من الناس خاصة الفلاحين يعتقدون أن التليفزيون ودخوله مصر أحد مكاسب تلك الثورة التى قادها عبدالرؤوف الزلبانى وأسعدهم ذلك كثيرًا، إن معظم الناس فى قريتى قليل من الطعام يكفيهم وعود فجل وحتة جبنة هى طعامهم فى الصباح والغداء والعشاء فلقد تعودوا جميعًا على حمداله فى كل حال منذ زمن قديم، ولذلك كانت سعادتهم فائقة خاصة عندما إشترى صاحب المقهى الوحيدة فى البلدة موتورًا كهربائيًا وشغَّل التليفزيون فى قهوته، وكان ناس القرية بكل فئاتهم يكتظون فيها لمشاهدة التليفزيون ويتعجبون كيف كانت رؤية المسرحيات والأفلام والأحداث أمام أعينهم بالنهار والليل ولم تكن هناك حكايات بين رجال القرية ونسائها وأطفالها غير ما شاهدوه فى التليفزيون،

وكانت قهوة رجب "أبو عزيزة" منذ تشغيل التلفاز قهوته منارة مشعة من منارات القرية، وفى ليلة ذهبت مع أصحابى لمشاهدة التليفزيون لأول مَّرة فى حياتى وفى هذه الليلة تشاجرنا مع عبدالله النسناس فتوة الكفر، لأننا كنا نريد أن نجلس فى الصفوف الأمامية لكنه منعنا لحجز هذه الكراسى لمجموعة من شباب الكفر، ومن هذا اليوم لم أذهب إلى هذه القهوة مَّرة ثانية .. وانطويتُ مع أصحابى نذهب إلى دكاكين الحتة وكان أقربها دكَّان أحمد عبدالله ولم نعد نجلس خارج الحانوت، وبدأنا نقعد مع الكبار وبدأت حكايات تنتشر فى القرية عن أشبال الاتحاد القومى الذين يذهبون مع الشيخ أمين هذا الاتحاد .. كُنا أربعة غلمان وثلاثة رجال .. عامل يعمل بالأجرة اسمه نصر أتش ورجل يملك فداناً واحدًا وآخر موظف فى أشمون فى مكتب الصحة .. وكان الرجال الثلاثة لا يتعدى عمر أى منهم سبعة وثلاثين عامًا .. قدَّم عبدالله جوزتين للقعدة .. جوزة لنا الأربعة وأخرى للثلاثة رجال ورمى أمام كل جماعة بعلبة معسل زغلول .. ورحنا نحن الغلمان نندهش لأننا لا نشرب معسّل وقال حَّداد وهو يضحك لصاحب الدكان :

- هَّو إحنا ممكن نشرب يا أحمد..
- إنتو كبرتوا اشربوا معسّل .. فكُّوا عن جيوبكم ..

فيضحك عبدالحميد ويقول :

- طيب وارب الباب شويه مش عايزين نبقى فضيحة فيرفع عبدالله يده لأعلى مشوحًا ويطفق قائلاً فى قناعة :
- احبسوا الأكل .. دا الوز والبط كاتم على نفسكم ولا يهضمه إلاَّ الجوزة .. أمَّال الغلابه يعملوا إيه ..

تناول الأُجرى نصر أتش كرسى جوزتنا وراح يرص المعسّل وكأنه يدعونا بالقوة قائلاً :

- يا رجاله دا الجوزة دى عنوان المرجلة (الرجوله) دا الواحد منكم يحبّل المره (المرأة) من أول ليلة .. يارجّاله هيّصوا هو فيه حد مبسوط فى الحته مابيدخّنش خلّى الدنيا تتفتح أدّامكم .. خلاص بقى بقيتوا رجّاله ..

.. كان كلامًا جديدًا علينا ونقل عبدالحكيم سعيد الموظف الجوزة أمامنا قائلاً:

- اسحب يا جدع فى صحة أبويا حداد وعمى عبدالعزيز الصاوى .. وأمسك بها أصغرنا رشاد والتقفها فى فمه وسحب دخانها فاحمر وجهه وسعل ثم تنحنح وكررَّ شفط البوصة فخرج الدخان من فمه كشخلول ماء اندلع من طنبور الساقية فأعزى ذلك عبدالحميد الذى خطفها منه وراح يشفط فى ثبات فخرج الدخان من فتحتى أنفه فقال نصر أتش وهو يجلجل ضحكة عالية :

- اسحب هىَّ دى الرجّاله ..

وناولنى عبدالحميد الجوزة قائلاً :

- حلوه .. خد .. اسحب بالراحة علشان ماتكحّش ..

.. وخجلت واحمر وجهى وأنا أمسك بكوز الجوزة وأضع البوصة فى فمى وسحبت الدخان فخرج من فوهتى أنفى بعد أن كتمت أنفاسى وقفلت فمى .. كحّيت أوى وسعلت ورحت فى نوبة من السعال حتى كدتُ أبصق وألقيتُ بالجوزة أمامى وهرولت خارج الدكان لأتقيأ ما فى جوفى من طعام .. وبدل أن أذهب إلى البيت عُدْت إلى الشلة مصرًا على تناول الجوزة مرَّة أخرى

لأثبت للجميع أننى رجل .. واندمجنا فى شُرب الكرسى الثانى والثالث حتى فرغت علبة المعسل ..

.. وكان صاحب الفدان رمضان الورور صامتًا طول القعدة ولكنه كان يرقبنا نحن الصغار ويبتسم ويهزّ رأسه .. جاءنا صاحب المحل بعلبة معسّل ثانيـــة فقال رمضان وقد فرشت ابتسامته كل وجهه :

- معايا حته مين يغمّس معايا..

ولم يفهم أحدُ منا ما قاله .. فقلنا له واحدًا بعد الآخر :

- حته إيه .. هوَّ فيه طبيخ معاك ..

فضحك نصر أتش قائلاً :

- حشيش .. بلاش إنتو ماتقدروش عليه ..

فقال رمضان :

- أسكت إنت يا نصر خلّيهم يجربوا أمَّال هايبقوا رجاله إزّاى ..

كلٌ منا هزَّ رأسه وقال عبدالحميد :

- نشرب يا جدع هوَّ إحنا صغيرَّين ..

وتابع حَّداد :

- هى الحته بكام ..

فقال رمضان :

- إنتو الأربعة بخمسة صاغ ..

حداد - نشرب .. هانشوف معانا كام ..

وفجأة اندهشنا حين قال أصغرنا رشاد :

- أنا اللّى هادفع .. معايا فلوس النهارده أنا بايع صيفية وابتسم كل منا وقلنا فى صوت واحد :

- خلاص كل واحد عليه ليله ..

.. وراح رمضان يقطّع الحشيش أمامه فوق نصف بلاطة فى شكل حبة الترمس .. وغسل صاحب الدكان جوزة أخرى ووضعها أمامنا ثم جاءنا بمزيد من المعسل وألقى عبدالله بطلبات أخرى للشاى والسكر، مين يسحب الأول .. مين يولّع التعميرة .. هكذا قال رمضان وأمسك بالجوزة نصر وشدْ .. وكان العيال الأربعة يغمزون كل منهم الآخر بإصبعيه أو بحاجبيه أو يمتعض بشفتيه كمن يقبل على شيء جديد يجد فيه شيئًا يسعده ..

.. وكانت ثمة إشاعات قد راحت تنتشر فى جنبات القرية بأن هناك عددًا آخر من الرجال فى بحرى وقبلى والكفر قد أصبحوا من عواميد الاتحاد القومى ولكن جميعهم يساعدون الشيخ أمين الاتحاد ..

ولّما بدأ الدخان برائحته التى تسطل الرءوس بعد كل مساء الخير يقولها من بيده الجوزة للذى يناوله الجوزة .. مساء الخير .. فيتلقف الواحد منهم كوز المدخنة مبتسمًا ويسحب وكأن مكنة الطحين تسكن كل أنف وفم وصفارة المكنة تقول.. مساء الخير .. كُرسى ثم خمسة كراسى وتوالت كراسى الحشيش وعبق الدخان الدكان وتلاعبت الرءوس وثقلت وسكتت عن الكلام ورحت أجفّف عرق جبينى وشعرت بدوخة لكننى لم أكن أستطيع إغراء حلاوة رائحة الدخان، وغسل عبدالله البلح الأمهات وجاء به وسط الدائرة وقال رمضان الورور :

- دى مزّه بلدنا .. مد إيدك ..

ويقول عبدالحكيم :

- نزّل كمان يا رمضان ..

- أنزّل نص قرش .. كل واحد عايز يحُط قرش .

غير أن نصر قال :

- كفايه .. العيال راحت هاتروح لأهاليها إزّاى ..

فأكمل حداد :

- كفايه كده علشان نقدر نروّح ..

وطفق عبدالحميد :

- كفايه كده ياجماعه دانا قمت بالعافيه وانتصب بيننا وهو يمسك برأسه يهزُّها وانتصبنا جميعًا ونحن نترنح وتقدَّم رشاد إلى صاحب المحل ونقده حسابنا فى الشاى والمعسل والذى كان أيسرنا هذه الليلة بالصيفية التى باعها .. ولطشنا الهواء البارد خارج الحانوت فزاد من ترنُّح كل منا وكدت أقع فأمكسنى حداد وأصر أن يوصلنى إلى باب بيتى كما أصرَّ على أن أغسل وجهى فى حنفية خليفة الأكرت التى تقع بين بيتى وبيت القطان .. وغسل معى وجهه وتمضمض وفعلت مثله وتماسكتُ قليلاً وساقنى بيده وهو يمسك بذراعى حتى دفعتُ باب السور ودخلتُ وأنا لا أعى شيئًا ولَّما دفعتُ الباب الكبير شرع أمامى ولا أعرف لماذا تركوا الباب مفتوحًا .. وعلى أطْارف أصابع قدمى حفيت بعد أن خلعت البرطوشه ومن باب الوسط آويت إلى باب غرفتى الصغيرة ولَّما ارتميتُ فوق سريرى حمدت ربىَّ أنه لم يرنى أحد .. كانت رائحة الحشيش قد سرت حتى فى هدومى .. أين أبى وأمى وإخوتى .. وأخذتنى رأسى فى نوم داهم وكأن قطارًا قديمًا يدهس جسدى ....

****

فى بيتنا انتهت دولة الفرن بين أبى وزوجته التى ذهبت لتعيش مع أخيها فى مساكن إيديال ناحية شبرا مصر .. كان أبى قد كسَّر ضلوعها فوق قبو الفرن وكان هبو القاعة ورائحتها صيف شتاء مثيرًا لأن يواصل اللقاء مع تلك الزوجة صاحبة الضحكة الرنَّانة فى تلك القاعة، التى شهدت كل هذا العشق بين جدرانها المطلوسة بالطين الذى دهنته أم ست أبوها التى كانت متخصصة فى دهن القيعان بزلطة من طمى الترعة اللزج ..

ولم تكن هذه السيدة السوداء المكروعة الجسد تملك شيئًا ؟ غير عمل مساج للرجال والنساء الذين يعانون من آلام البرد بواسطة كاسات قوالح الجاز المغموسة به والمولَّعة بالنار، ومهما اشتد الوجع بظهر أبى فلم تكن هناك امرأة فى القرية بعد موت ست أبوها تقوم بعمل هذه القوالح إلاَّ الزوجات اللائى مازلن يعشقن أزواجهن، وهؤلاء النسوة قليلات .. فقليل من بيوت القرية التى فيها زوجة تبحث عما يريده زوجها من حب وحنان .. وكانت معظم النساء تتجه إلى العناية بأمور تدبير البيت من طحن القمح وخض القربة وخبز يوم الأربعاء وعمل الوجبات التى تغذّى أبناءها مثل الفطير المشلتت والمخروطة بالسمن، وكان الرجال الكبار الذين يملكون الأرض ليس لهم هم سوى إشباع مزاجهم فإذا كانت المرأة فى البيت لا تهتم به التقط من بين سكك الغيط ودوران السواقى امرأة ترقد له من نساء الأنفار أو حتى من نساء أصحاب الأرض اللائى يبحثن عن ارتواء عطشهن لعدم إلتفات أزواجهن إليهن بشكل كاف ..

وكانت أمى تهتم بأولادها زيادة عن اللزوم ومن لزوماتها عدم اختلاطهم بغيرهم من أعمارهم غير أن إخوتى كانوا يذهبون إلى الحقل ويتشاقون ويتشاجرون كما يفعل كل أبناء الغيط فى الحقول وعند تارة البحر الأعمى، ولَّما كنت أشعر بأبى وبمعاناته وانتقام أمى منه بالبعد عنه وعدم الاهتمام به

وإعطائه حقوقه، كانت لا تنسى أبدًا عندما جعل زوجته الأولى تنام معها فى غرفة واحدة فى أول أسبوع من الزواج بأمى .. وكان لدى أمى كثير من دواعى الانتقام منه، وسارت الأيام بأمى وهى تعتقد تمامًا أن كل الرجال مثل أبى وأن هناك حكايات كثيرة سمعتها أمى من نساء أخريات عن مثل هذه التصرفات من الأزواج .. ولّما كبرت وبدأت أنضج فى الفترة التى أتأهب فيها للالتحاق بالمدرسة الثانوية كانت أمى تكيّل لأبى كثيرًا من الضربات النفسية المتلاحقة كل يوم صباح مساء مثل :

- فاكر لما عملت وعملت ..
- ياراجل عيب اختشى خلّى عندك شويه من الأحمر ..
- ياراجل ماعندكش دم .. العيال كبرت اتكسف على نفسك ..
- .. ورأيت أبى لّما كان يقابل تقريعها له بالضحك بصوت عال ورأيته أيضًا عندما كان يختلى بنفسه ويبكى وفى يوم ونحن نجلس فى المندرة قلت له فى ود :
- قولّى يابه إنت ليه بتعيّط ..
- دا يابنى حكم الله .. إنت عارف أنا دلوقت فى عمر ماقدرش أتطفل على امرأة زى زمان .. زمان كنت شباب وكانت النساء هى التى تأتينى ..
- إتجوز يابه ..
- ماينفعش .. هاجيب ليكم المشاكل .. وهاضيّع معاشكم ..
- طيب إصبر ..

- أنا صابر والحمدالله وأنا إيمانى بالله وقضاء حوائجكم عندى بالدنيا كلها بس الراجل فينا برضه محتاج لمراته حتى ولو فى الشهر مَرّه ..
- أمى دى هايحاسبها ربِّنا ..
- يابنى إنت كبرت ممكن بينك وبينها قول لها خلّى بالك من أبويا..
- هاقول لها .. هىَّ الفكرة بتنتقم منك من أسبوع جوازها الأولانّى..
- أنا غلطت يابنى وقلت لها فى يوم سامحينى أنا غلطت .. قالت لى والله لأورّيك وأذلّك زى ما ذلّتنى وماخلّتنيش أفرح زى ما بتفرح كل البنات لّما بتتجوّز..
- قول لخالى .. أهو خالى قاضى وبيحكم بين الناس ..
- قلت له .. لو كان أبوها عايش ماكنتش هاتستجرى تعمل معايا كده على طول بالشكل ده ..
- ومافيش راجل فى تلوانة قريبها يصحّيها من المعصية دى ..
- بعد موت جدك .. بعد موتك يا أحمد فودة مافيش فى تلوانة راجل..
- قول لمرات عمها الست جليله ..
- ماقدرش دا الطير بيخشى من الست دى .. ماقدرش أقول لها كلام زى ده ..
- خلاص يابه .. خلّى أمرك مع الله ..
- هوَّ دا اللىِّ بحاول أعمله ..

.. وبعد هذا اليوم رُحت أغطس برأسى وأتفحص صفحات الكتب عن أى أفكار أو حلول أو قضايا تشبه قضية بيتى، وهى الخلاف بين أبى وأمى .

واعتبرت ذلك نتيجة تخزين العقد والأمراض النفسية التى تنتج فى أحوال الحياة فى قريتى .. وقريتى مثل كل قرى مصر، وحتى أريح نفسى تعاطفت مع مطالب أبى؛ لأننى أحسستُ عندما بلغت وأصبحت رجلاً أن الرجل فى حاجة إلى هذه العلاقة القوية الموجودة فى داخلنا خاصة بعد ما جرى مع فكيه فوق ظهر الحمارة، واعتبرت أمى تقدِّم لأبى نوعًا حقيرًا من الخوف، بل أكثر من ذلك لقد بدأت أمى تتحكم فى أبى وترهبه ليس انتقاما من أسبوع الزواج الأول فحسب ولكنَّها لن تنسى ليلة أن كرشها مع أبيها فى الليلة الممطرة، ولم يكن أبى فى تلك الفترة القديمة إلاَّ مدفوعًا بتحريض أهل زوجته الأولى وأيضًا بحركات زوجته وشدة جاذبيتها عليه بضحكتها الرنانة التى تهز بها أركان الرجل وتكحيلها لعينيها السوداوين وكيف كانت تأتى له بعطر من السويقه تتعطَّر به فكانت رائحتها النفاذة لها مفعول السحر عليه، وكانت تستخدم نوعين من العطور، عطر فى سريرها وعطر فوق الفرن الذى يفضِّله أبى .. كانت تنسيه شقاء الدنيا فعشقها، ومن أجمل المعانى أن يعشق الرجل زوجته وأن تتهيأ الزوجة لرجلها فى شوق ..

******

وبعد يومين كنت فى شدة انكفائى على كتاب أقرؤه فى رحلة البحث عن حل فيما ما يحدث بين أبى وأمى..أمسكت بالقلم ولأول مَّرة فى حياتى يسيل قلمى وأكتب كلمات تسيل من دمى:

- يا أمى يا امرأة أبى لولاه ما فُتحت أبوابك ولكانت أيامك مقفلة تبقى كما هى عندما كنت عذراء فى بيت أبيك .. يا أمى إن أى والد لفتاة فى دنيانا لن يغنيها مهما كان غنيًا .. يا أمى إن حق أبى عليك كبير وعليك أن تتخلَّصى من عقدك النفسية ..

.. لو كنت متدينة حقًا لقدَّمت نفسك لأبى طواعية حتى من أجل رضـــاء الله وتركت تلك الأحقاد فى زمنك الأول معه .. يا أمى حتى ولو كان أبى أحمق فلا تربطى ولا تقفلى أبوابك عند أيام الزواج الأولى وسفالته معك فى الليلـــة الممطرة بتقديم واجبك له .. يا أمى إن أبى قد كبر واندثرت أيامه الأولى مع نساء الغيط فى غرفة التبن .. يا أمى قال لى أبى انه غير قادر على اختراق حائط الاستقامة الآن وفى مثل هذه السن .. يا أمى أطيعى الرجل الذى عبَّ من النساء الكثيرات كما يعُب الفرس مياه البحر، لقد عاش أبى فـــى أمـــواج متتابعة من النساء عند تارة البحر الأعمى، يا أمى إن أبى عاش فـــى أرض ملأة مريان التى تقع على شاطئ البحر الكبير فى تلك الأرض الخصبة التى أغنت خصوبته كرجل .. إنه الآن فى حاجة إلى امرأة واحدة تكفيه، والمرأة هذه هى أنت لأنك زوجته .. لماذا أنت هكذا خشنة الأضلاع وصلفة الطباع .. إن أختك فى تلوانة تعشق زوجها علاَّم .. تتكحل له وتنتف شعر جـسدها من أجل أن تسعده .. ألست أختها .. يا أمى أنت إرهابية واذهبى لأن تكونى رجلاً .. أنت لا تستحقين أن تكون من عالم النساء ولا من عالم الرحمة ولا من عالم الحب، أنت يا أمى من عالم القسوة والإنتقام .. أنـــت لـــست أمـــى التى كانت ..

.. ولو كان هناك مثقف واحد فى قريتى لأعطيته ورقتى ليقرأها .. كثير من المدرسين فقط ومعظمهم دخل الاتحاد القومى إنهم يريدون مزيدًا من الفلوس حتى ولو كانت بريزة فى الشهر .. هوَّ هايخسْ حاجة لَّما يصفَّق أو يهتف .. يهتف لأى حد يجيبوه مش فى الآخر فية قرش أهو يسد حاجة فى البيـــت .. ومشيت كده على كل أهل البلد مدرسين وموظفين فى الشئون الاجتماعية أو المستشفى أو فى مجلس القرية جموع من أهلها السياسة عندهم ارتزاق، أى

قرش ييجى فايده .. ياعم إحنا طايلين حاجة أهو دا اللىّ نقدر نطولـه وإيـه يعنى يحيا عبدالرؤوف الزلبانى وليس تحيا مصر .. لأن تحيا مصر طريقها طويل مايقدرش عليه حد من البلد دلوقتِ .. هوَّ بيقول مـصر .. وهـىَّ لا مصر ولا حاجة .. لو مصر بحقيق كان يعرف مرَّه واحده يقرا كتاب .. فى مرَّه قال أنا قريت فى حياتى كلها كتاب فى الاقتصاد مافهمتش منـه حاجـة وهكذا كان عبدالرؤوف الذى طيَّر الرءوس من حوله ومن أعز أصـدقائه .. من أجله هو أو من أجل مصر ؟ .. عبد الرؤوف الذى أصبح رئيس كل الهيئات السياسية والرئاسية؛ لأنه يتمتع بكفاءات لا يتمتع بها أحد .. والشعب يحبُّه حبًا ناريًا والدليل على ذلك أنهم ينتخبونه بنسبة تسعة وتسعين فى الميَّه .. ولَّما تمكن عبدالرؤوف من البلد بيطير كل الرءوس التى يحاولّ أصحابها رفعها ويفتح المعتقلات عن آخرها لتمتلئ بالآلاف .. تمكنَّ من البلد هكـذا تهيَّأ له .. إنه الآن ليس بطل مصر ولا قائد الثورة فيهـا .. هـذا لا يكفـى إنه بطل القومية العربية وبطل الحركات التحررُيـة فـى العـالم العربـى وإفريقيا وبطل الانقلابات فى البلاد المجاورة فهو الملهم الذى ينقذ شـعوب المنطقـة مـن الحكـم الملكـى إلـى الحكـم الجمهـورى .. الـشاويش والرائد والصول يصبح رئيسًا طالما يهتف يحيا عبدالرؤوف أو يستنجد به أو يخطب فى أى مكان بالحرية والوحدة والقومية .. قائد القوميـة والحركـات الثورية التحررية فى كل أرجاء العالم العربى والإفريقى، وبدأت النعرات .. هذا عصر التجعير والإثارة والحنجرات التى امتلأت بكلمة الشعب..

.. لم يعرف مدرس أو غير مدرس موظف أو فلاح معنى أو مـدلول اسـم الحزب ولا يدقق فى معنى القومية والاشتراكية .. إنهم ينضمون اسمًا مقابل بريزة ومستعدون لأن يهتفوا لأى أحد فى مقابل بريزة أو حتى قرش .. لقـد

استرخصتهم السياسة وجعلتهم مرتزقة وهم من حاجتهم وفقرهم مدّوا أيديهم وصفقوا، لقد صنعوا جيوشًا من الناس تعمل أى شيء لهم مقابل تعريفة، وعليه كان الشعب عددًا لا قيمة وكمًا لا كيفًا .. وأدركت ذلك بينى وبين نفسى بأن تلك السياسة السوداء التى تنتشر بين الشعب هى ذنب من ذنوب الدنيا اقترفه الناس فى حق أنفسهم، إن الناس يتجمعون من عدم ويكونون جماعات تجعير وصوت عال على الفاضى وليس بالمليان من عدم، ولا يمكن فى وسط هذه الفوضى الجائعة أن نوقف أحدًا بالدفع أو الحديد أو القتل، وهكذا بدأت تلك السياسات مع الناس تنتشر فى أرجاء القرية وفى كل أنحاء البلاد، وأقاموا جسرًا من الصفيح والقش والبكش بين الناس وجماعات السياسة المتاجرة بكل رخيص من أجل أى مصلحة، وهكذا بدأت تبنى الجذور وتنتشر الفروع بخطيئة جماعة الانقلاب فقيرًا أو فلاحًا يحمل الفأس، ولّما تمكّن من البندقية وأمسكها وخاف الناس منه بدأت سفالة محترفة تنتشر فى أرجاء البلاد وموجة عامة من العنف والخبص والفتنة وسباق رهيب لا من أجل الحصول على رغيف، ولكن الحصول على ما هو أكثر من ذلك من مكاسب، إذا كان التاريخ مزيفًا فالذين كتبوه سفلة، وكان كل شيء بينى وبين أعماق نفسى يدور أمامى بكثير من التفاهة لأن ما فى داخلى واندهاشي لم يكن يصدّق أن أرى الناس بهذه السطحية، فلقد كُنت أعتقد أننى عندما أكبر وأصبح رجلاً فسوف أكون وسط رجال أتعلّم منهم المزيد من النضج والمعانى الجميلة .. وكم تمنيت أن أعود طفلاً فى دار لا أرى فيها غير أبى وأمى يخافان علىّ .. كان مكنون نفسى واحدًا قويًا لا أحد يستطيع اجتزاءه ولم أكن أعرف أن العالم حولى بين الكبار بهذه العدمية .. وانتويت أن أنطوى على نفسى وأدخل دارى وأعيش كما كنت طفلاً، ولكن كان هناك

فرق كبير بين الطفولة البريئة والجاهلة بالقراءة وبين الآن وأنا صبى كبير يجب عليه أن يهرب إلى داره مرَّة أخرى يأكل ويشرب ويتمتع بقوة الخوف عليه وأن هناك نافذة للإطلال منها على الحياة، وهى أننى الآن أستطيع أن اقرأ كل الكتب التى فى المندرة وأعى كثيرًا مما تحتويه، ولَّما دخلتُ الدار وجدتُ أمى نائمة فى الغرفة التى كانت تعيش فيها أمى لبيبة وإخوتى جميعًا كالعادة ذهبوا إلى الغيط .. كانت أمى حريصة على أن تخلى غرفة نومى والمندرة لى حتى أتمتع بحريتى دون مضايقة حتى منها ..

.. دخلت مندرتى (حجرة جلوس البيت) وجلست فوق الكرسى واحتضنت المنضدة وللمرة الثانية أمسكت بقلمي ورحت أكتب :

- إن الجو الاجتماعى المألوف بين الناس لا يعجبنى وعلىَّ أن أصنع عالمًا خاصًا بى، إن هذه الإغراءات التافهة من أجل بناء أحزاب هشة لهى جنون وضعف خرج من عدمية الناس وفقرهم وجهلهم وكان أجدى بالناس أن ينغمسوا فى أعمالهم الزراعية والوظيفية خيرًا لهم من بيع أنفسهم بالرخيص .. ولكن لماذا لا أستعين على ذلك الجو الشائن بأصحابى وزملائى فى الدراسة الإعدادية، ورحتُ أفتّش عن هؤلاء فوجدت نصفهم قد انخرط مع الهتيفة والآخرون يساعدون آباءهم فى الزراعة وكنت أنا الوحيد فى ناحية هذه القرية الذى يملأ حياته بالبحث عن أى حقيقة أو الهروب من هذا الواقع الذى يقلقنى ويصدمنى عمَّا كنت أتمناه وأنا صغير .. وسكت القلم عن الكلام ورحتُ أضرب رأسى فى خشب المنضدة ثم توقفت بعدها، قمت لأنام فوق الكنبة بعد أن شعرت بدوار شديد يسكن دماغى ..

.. كل الناس منهمكة فى جمع معاشها ولا ضير فى ذلك ولكن ما يقلقنى لماذا يمد الناس أيديهم إلى خدم هذا الحزب .. الحاجة والجوع والعلاقات الجنسية الفجة التى تدور فى الحقول والخوف من عسكرى النقطة والخضوع نحو رجال ينشرون الفتونة هنا وهناك .. تلك الظواهر والصراعات جعلت الجبن أكبر من كل هذه الأشياء جميعًا، وفى يوم بقيتُ مغمومًا من دنو الأفعال حولى، وبدأ يسيطر علىَّ قلق جديد .. إمَّا أن أنغمس فى الحياة وإمَّا أن أرحل وثالثها أن أتقوقع فى البيت مع أمى .. ولَّما كانت الترعة فى هذا اليوم تعج بكثير من النساء يقمن بأعمالهن هربت من تلك الزحمة وهرولت إلى داخل البيت لأجد أمى تقعد أمام الكانون وتدفع بجدر توتة فى داخله فتعلو ألهبة النار تحت الحلة .. اقتربتُ منها وجلستُ على كرسى خشبى وأخذتُ يدها وقبَّلتها كما اعتدت فى كثير من الأوقات فقالت لى وقد فرشت ابتسامة عريضة كل وجهها :

- إنكَّ دائمًا تمس قلبى ..
- لأننى أحبك ..
- أعرف ولكنَّك يابنى أصبحت بعيدًا عنى وأننى أخاف عليك من اعتيادك الذهاب إلى الدكان ..
- لقد كبرت وعلىَّ أن أخطو خطوة واحدة خارج البيت حتى أعرف الدنيا حولى ..
- مع من تقعد ؟ أمع رجال كبار ..
- مع أولاد القطان ..
- من منهم يدخّن ..
- إننا نشرب الشاى فقط ..

- الدكان مليء بالحكايات والألفاظ غير المهذبة والخالية من الأدب..
- نحن نجلس مع أنفسنا خارج الدكان ولا نجلس مع رجال ..
- وهل أضافت لك قعدة الدكان شيئًا مفيدًا ..
- إنها حكايات عن الناس والبلد .. أكيد أنها تفيدنى ..
- كنت أتمنى أن تنكب على تلك الكتب التى تملكها فى المندرة..
- إننى اقرأ فيها ولم أصل إلى شيء وكلما قرأت ازددتُ تيهًا..
- الدكان وحكاياته كبيرة عليك وقد تذهب بك هنا أو هناك ..
- بالعكس .. كنت أبحث عن جانب آخر فى الحياة يوقف شـطحى عندما اقرأ ولَّما ذهبت إلى الدكان أخرج ما فى داخلى من معـان وأفكار ..
- لا أفهم ..
- كتبت أوراقًا عن حكايتك مع أبى ..
- وهل بينى وبين أبيك حكايات ..
- نعم يا أمى .. إنك زوجته وأم أبنائه .. إنك تعيشين معه كل الحياه فحكاية حياتك كلهّا معه إلاَّ حكاية واحدة ..
- حكاية واحدة ما هى ..
- عصيانك لأبى حكاية كبيرة .. حكاية أكبر منّى ..
- هذا عيب يابنى .. حكاية عيب فى عيب ..
- أعرف وعيب علىَّ أن أفاتحك فى أمر كهذا وهذا يسبِّب لى خجلاً كبيرًا ..
- أليس من العيب أن تقول لى عصيانك لأبى .. وما شأنك يا حسن بهذه الحكايات ..

- لقد اشتكى أبى ..
- اشتكانى لك ..
- نعم .. قال لى كل شيء ..
- حقيقة إنه رجل مفضوح .. طوال عمره يفضحنى ..
- إنه لم يقل لأحد غريب ولو كان جدى على قيد الحياة لذهب إليه.. وعندما حكى لى فأنا ابنه وابنك ..
- لكن ذلك يابنى فيه كل العيب لأن يحكى لابنه الصغير مثل هذه الأشياء ..
- إن ملاصقتى لأبى منذ أن كنت صغيرًا كان يحكى لى عن كل الدنيا حولى فنشأت على كل الحكايات التى تحدث فى كل أنحاء قريتى .. إن طريقة أبى فى تربيته لى جعلنى أملك كثيرًا من الخبرة قد لا يملكها مثلى فى القرية كلّها ..
- أى والد يرسل ابنه إلى المدرسة ويعلّمه كيف يصلى ويقرأ القرآن .. ولكن لا يعلّمك ما بينى وبينه .. إن هذه أسرار وفيها عيب كبير اقترفه أبوك ..
- إن أبى رجل ليس له مثيل .. أرسلنى إلى المدرسة وعلّمنى الصلاة واقرأ القرآن وأسمعه منه وهو يقرأ وأسمعه من الراديو صباح مساء ..
- لا أعتقد أن هناك مثلك فى شنشور أو فى تلوانه يتدخّل فيما بين أمه وأبيه والعيب ليس فيك ولكن فى أبيك ..
- لقد علّمنى أبى الحياة حتى لا أكون قفلاً ..

- ولكن يابنى قد تكون فاجرًا أو كما يقـول المثـل "تبقـى عينـك جامده"..
- وهل رأيت فيَّ فجورًا حتى اليوم ..
- أخاف عليك يابنى من بكرة .. ما كان يجب أن تعرف من الحياة أكثر مما يجب ولا تتدخل فى شيء يخص العلاقة الزوجية بينـي وبين هذا الرجل ..
- إن هذا الرجل هو أبى وهو الذى حجبك فى بيت ملـيء بـالخير وأنجب منك حتى الآن خمـسة أولاد وبنـت .. مـاذا تريـدين بعد ذلك..
- لا أريد منه شيئًا آخر .. إننى حزينة فقط لأسلوب التربية الـذى أنشأك عليه .. أريده أن يبعد عنى ..
- لو كنت يأمى تعيبى على أبى أسلوب تربيته لى فأنا أعيب عليك معصيتك له .. كونى له امرأة ..
- إن لم تقم من أمامى فسوف أصوِّت بصوت عال يـسمعه النـاس جميعًا ..
- لا تصوِّتى يأمى أرجوك لا تفضحينا .. إننى سأقوم سوف أذهب بعيدًا عنك ولن أفاتحك فى هذا أبدًا ..
- اذهب إلى غرفتك واغرب عنى الآن ..

.. وراحت أمى تجهش بالبكاء وتولول قائلة :

- يافضيحتى ..فضحنى مع ابنه..حرام عليك ياحداد ..

.. لم تسكت وأنا أرقبها من باب غرفة نومى وانسالت دموعها بغـزارة وراحت تجففها بحجر جلبابها .. وتندب وتزيد وتعيد بصوت عال ..

- يالهوى يامَّه تعال شوفي حداد فضحنى .. تعالو ياناس شوفوا حسن عينه جمدت ولا يختشي ولا يستحى .. يالهوى ياحميدة من اللىّ جاى ..

- إن إمى لا تحب الحكايات الصريحة العارية المجردة التى تهدف إلى الصدق لمعالجة الأمور .. إنَّها مثل معظم نساءِ القرى بتتكسف وتخبّى جواها وبتعرف العيب من ناحية واحدة وماتعرفشى أن أكبر عيب أن تمنع الزوجة نفسها عن زوجها عقابًا له عن ذنب اقترفه معها فى أسبوع دخلتها الأول .. ولا أعرف لماذا لا ينسى النساء عقدهن أو صدمات قابلتهن فى يوم ما .. أليس الزمن ومرور الأيام ومن أجل خاطر العشرة والأبناء أن تنسى الزوجة سوءات زوجها وتسامحه وترحمه ولا تحرمه من حقّه معها .. هذا ما يجب أن يكون شيء من الرحمة والتسامح والغفران ثم تسير الحياة كأن شيئًا لم يكن .. أبدًا إن المرأة لا تنسى إساءة لها وتترك الأحداث توغل فى صدرها ونفسها حتى تتهيأ لها فرصة الانتقام ولا أعرف إلى متى تصرُّ أمى على الانتقام من أبى طول العمر .. وهى تبكى الآن على فضيحتها التى وصلت ابنها وأبى يبكى حرمان أمى له .. بكاء هنا وبكاء هناك حتى أن جدران بيتنا عادت حزينة وأشعر أن سقف بيتنا سيقع فوق رءوسنا جميعًا .. إلى أين أذهب وقد توقفت الحياة بينهما .. ولم يكن غير الدكان ملاذى ودخان الجوزة والحشيش مع صحبتى شفائى ..

.. لم يكن الحشيش ميسورًا كل ليلة .. عدد أصابع اليد الذين يبيعونه، فى بحرى رزق البليدى البقّال معلّم وتاجر وقرفته كلها حشيش حتى

أنه عندما تزوج من فاتنة قرية مجاورة كان مهرها سهرات ليال مع شقيقها فيها أمتع رزق أخيها بكل ما هو طيب من الكيف .. ومن هذه الليال كانت ليلة الخميس عند رزق فى بيته الذى يقع فوق دكانه؛ حيث يقدِّم المعلّم ألذ الطعام قبل وبعد قعدة الكيف، ولم يكن فى القرية المجاورة من يعتني بطهى الوز والبط مع الفتة مثل قريتنا .. ومَّرت شهور قليلة حتى انتقلت الليال إلى قرية الخضرة التى فيها دار فريد شقيق أمونة التى جذبت رزق بحركاتها وجاذبيتها ومعان الدلال فى عينيها .. بتوع الكيف فى كل بلد أصحاب مزاج بيحبوا العيون والدلع وتقصيعة مشية الست فى الرايحة والجاية وآه من التربيعة المحبوكة تحت الطرحة وياخرابى على كحل السويقة اللى بتشتريه كل ست من سويقة شنشور .. يعنى كحل عيون الستات والبنات فى قلتى والخضرة وهيت ومجيرية وبراشيم وسمان وكوم عياد كله من سويقة بلدنا وفى ليلة من ليال الانسجام فى دار فريد بالخضرة لمَّا فريد اتسطل من كتر الحشيش اللىّ شربه مع رزق معلّم حشيش بلدنا .. رقد فريد وراح فى نوم عميق كأنه بيجر نومه من تارة البحر الأعمى .. جت أمونة وراحت تصحّى أخوها اللّى اتقلب على جنبه وشد أكتر فى نوم يوديه على موج الرِّيَّاح المنوفى الجميل اللّى واقع على سكة الباجور إلىّ تودّى مطرح ما تودى أى مسطول من الحشيش وتذَّوقه طينة النيل اللىّ ياما نامت الجاموس من حلاوتها وياما حلبت البقر العاصية لبن طلّع زبدة البقر الصفرا ..

.. ابتسمت أمونة للمعلّم وراحت تخدّم عليه .. جابت له أكل حلو من جوه دارها وأشعلت نار جديدة فى القصعة .. إتبسط لما اختلى بأمونة

ومصمص سنانه بريقه وصدح دخانه فوق وش أمونة اللىّ قعدت جنبه تبص له بمزاج ودلال تحط له النار فوق الحجر وتقطع له الحشيش على صفيحة فضه ولّما راح فى الدنيا .. دنيا تانيه غير دنيا كل البلد .. قال لأمونة :

- تاخدى نفس ..
- دانا عمرى ما خدت يا معلّم ..
- خدى على أدّك .. بالراحة ..
- أنا بس خايفة .. هات ..
- الله .. الله على دخانك عجب من بين شفايفك .. خدى كمان ..
- أنا خايفة أرقد جنب أخويا يا معلّم ..
- وماله وحتى لو رقدت جنبه .. أنا أمين عليك يا أمونة ..
- وإيه كمان .. قول ..
- بحّبك يا أمونة وعايز ..
- عايز ..
- حاجات كتير عايزها .. ورب العزّه يا أمونة قعدتك معايا دى تساوى الدنيا كلها ولو جت البلاد حوالينا وشافت قعدتنا دى هاتفوق البلاد على كحل عينيك المغمس بدخان شفايفك .. ولا هايبقى عيان فيها ولا جعان .. الناس كلها هاتخف وتشبع لّما تشوف الإيدين الحلوة دى ماسكه بوصة الجوزة .. دا البوص اللىّ على تارة البحر بتاع كل البلاد هايقول ياريتنى أتقطع وأبقى عقله فى جوزة أمونة ..

- كل ده يا معلم .. قطيعة البوص وكل حاجة فى كل البلاد وتبقى إنت موّتنى بنظرة عينيك .. خوّفتنى بشنبك الأصفر وخلّتنى أقول أموت فى شنبه .. إنت مين وجيت منين .. أحب أخويا أوى لأنه جابك لحد عندى .. أنا عايزاك يا معلّم ..
- ما تقولى رزق أحسن ..
- عيب .. ليك مقامك الكبير ..
- حلّفتك قولى يارزق ..
- هاقول .. أحط نار كمان ..
- إنت عايزه إيه ..
- عايزاك يارزق ..
- أنا قتيلك يا أمونة الليلة ..
- لأ والنبى .. ربّنا يخلّيك .. تعال كل ليلة ..
- ليلة الخميس كفايه ..
- مش معنى الخميس ..
- الخميس فى بلدنا عيد ..
- فى بلدنا عمرى ما شفت عيد فيها ..
- مافيش حد يقدر يخلّى كل ليله عيد ..
- الناس فى بلدنا مقفوله أوى ..
- شدّى ..
- بكفايه أنا مش داريه بنفسى ..
- شيلى الطرحة ..
- مكسوفة ..

- وشيلى التربيعة ..
- معقوله وشعرى لسه غسلاه ..
- شيلى إنت كده حلوه أوى ..
- أخويا لو قام هايموتنى ..
- دا رايح فى سابع نومه ..
- طب كفايه كده ماقدرشى أشيل حاجة تانية ..
- تعال جنبى ..
- هاجى بس بلاش دخان بقى ..
- بكفايه إنت .. خد كل حاجة عايزها ..
- أنا خايف أخوك يصحى ..
- طب تعال جوّه ..

******

.. كنّا قد دخلنا الدكان واستأسدنا وأصبحنا مثل الكبار .. هكذا شعرنا بعد أن شربنا الحشيش فى المرّة الأولى .. ذهبت البراءة ولم يعد فى داخلنا أى خجل وتجرأنا مع الكبار فى كلامهم وجالسناهم فى ليال قبل هذه ولكن كنا نشرب المعسّل حاف بدون حشيش إلى أن جاءت هذه الليلة، وهى الليلة الثانية بالغموس والذى استضافنا فيها أبو حجاج أكبر شرّيب حشيش فى العزبة واللىّ يقعد معاه ويشرب معاه للآخر يبقى راجل .. وهكذا شعرنا جميعًا أننا وأصدقائى أولاد القطان أننا أصبحنا رجالاً من هذه الليلة، ولأول مّرة فى حياتى أسمع منه حكاية رزق تاجر الحشيش وكان هذا الرجل أبو حجاج أكبر

حاك فى العزبة عن تجار الحشيش وشريبى الكيف، ولّما حكى كيف تـزوج المعلّم من أمونة انهلنا عليه بالأسئلة دون ترتيب أو تنظيم :

- ياه هو كده اتجوز .. يابخته خد اللّى عايزها ..
- وهىّ كانت عايزاه ..
- يعنى وز وبط رزق كان السبب فى تمييل راس أخوها ..
- لأ .. دا نوم أخوها كان السبب ..
- لأ .. الحشيش بيسطل أوي لدرجة إن أخوها ما سمعش كلامهم..
- الكيف لّما بيزيد عن حدُّه بيعمل أكتر من كده ..
- لّما خدته جوّه عملو إيه ..
- أكيد قلعت له الجلابية ..
- المهم إن لولا الحشيش ماكنتش أمونة اتجوزّت رزق ..
- شوف الحشيش من يوم ما طلعنا على وش الدنيا وهوّ السبب فى حاجات كثير فى حياتنا ..
- ياعم أبو حجاج هو الحشيش بيجى منين ..
- من الشرقية ومن سينا .. بيقولوا من العرب بتوع الصحرا ..
- مش مهم بيجى منين ..
- المهم هوّ بيعمل إيه ..
- اسحب ياحسن الكرسى دا حلو أوى ..
- ياريت أنا عايز أنسى ..
- تنسى إيه ياحسن ..
- أبويا وأمى زعلانين مع بعض على طول ..
- علشان لبيبه مشيت كانت قاضيه له طلبه ..

- وش عرّفك يابو حجاج ..
- كلنا عارفين ياحسن أمّك ست محترمه مالهاش فى الرجاله ..
- أحسن حاجة أبويا يتجوّز تانى ..
- دا أبوك دا محرات ..
- والله مانا عارف الراجل ده خمسين سنة ولسه عايز كل ليله ..
- البلد كلّها فيها راجلين اتنين زى أبوك مابيهمدوش ..
- يعنى البلد فيها عشرين ألف راجل فيها تلاته بس جبارين ..
- مين دول يابو حجاج ..
- واحد هنا فى العزبة البحرية ..
- مين ..
- بلاش ..
- بس قول عايزين نعرف .. ناخد خبرة بضرّيبة البلد ..
- إنت عارف خطاب أبو موسى ..
- اللىّ فى شارع أبو دخان ..
- دا راجل أد الحيطه ..
- بس أبويا رفيّع ..
- الحاجة دى لا بالرُفع ولا بالتخن ..
- إنتو عارفين خطاّب ده ليه كام واحده ..
- كام ..
- تلاته واحده فى البلد واتنين فى الغيط ..
- ومراته ..
- ست طيبة أوى سايباه فى حاله ..

- الست اللىّ فى البلد مين ..
- دار جنب داره يدوبك بيعدّى الشارع ..
- جوزها عايش ..
- أيوه ..
- شايف وعارف ..
- أسكت والنبى دا بتشتمه وتهزّأه وتمشيه من البلد مابتخلّهش يبات ليله فى البيت ..
- أمّال بيبات فين ..
- بيشتغل فى العزبة .. عزبة فى البر التانى .. إنتو عارفين بتقوله إيه إمشى ياوسخ من هنا إيه اللىّ جابك ..
- يانهار إسود ويمشى ويسكت ..
- لأ بيّديها الفلوس اللىّ اشتغل بيها ويمشى زى الندل ..
- وإيه اللىّ خلاّه يبقى ندل ..
- غلبان مش قادر عليها .. جامده عليه ودى أكبر حاجة تكسر الراجل مننا .. وخد على كده زمان لازم يتشتم فينسحب من سكات ويروح على العزبة ..
- على فكرة أنا بشوفها وهىّ بتغسل المواعين أدّام البيت ..
- شفتها .. دا عليها ورك ..
- هىّ مره فاجره أدّام اللىّ رايح واللّى جاى رجليها عريانه ..
- بتخلّى العيال والرجاله يريلوا عليها ..
- دى فعلاً مايقدرش عليها جوزها .. جوزها غلبان أوى ..
- يعتبر شغال عندها ..

- وخطّاب ده ماشى معاها من زمان ..
- من عشر سنين ..
- هىّ اللّى بتروح له ..
- لأ .. بيروح لها بيتها بعد نص الليل ..
- يقعد معاها كتير ..
- لحد شقشقة النهار ..
- يانهار إسود ..
- بيقولوا على الراجل ده بيحلب فى البحرايه ..
- يعنى إيه ..
- حلاّب زى الجاموسة الحلابة ..
- بس داتور ..
- أجمد من التور ..
- بيشرب حشيش ..
- ولا بيدوقه ..
- هوّ جامد من غير حشيش ..
- وبتوع الغيط بالليل برضه ..
- الصبح .. بيروحوا يحلبوا البهايم الصبحيه وكل واحده ليها يوم..
- هى الستات اللّى بتحلب البهايم الصبح فى شقشقة النهار بيروحوا الغيط عشان ..
- مُش كلُّهم ولكن كتير منهم .: اللّى بتروح أول ما تعمله فى الغيط تصحّى النفر وتقوله قوم جتك عزا ..

- والست اللّى أُدَّام غيط خطَّاب جوزها غلبان مـالوش .. أول مـا تروح تحُط دست اللبن ورا البهايم وتزعق بعلـو حـسها كإنهـا بتتخانق مع الجاموسة قايله .. حيه اتعـدلى ياعاصـية .. كـل الحركات دى علشان تقول لصاحبنا أنا جيـت .. يجـرى علـى زريبة هناء فترقد له عارية على كومة رتش ورا البهايم .. يلاقى السكة سَالكه فيذهب معها فى لقاء الصباح الذى ترتوى منه وتشبع قبل أن تحلب أى جاموسة .. ياسلام عليك ياهناء وبعد ما تحلـب البهايم تشيل الدست فوق راسها وتروَّح البلد .. يفتح ليها حماهـا الباب ويقول لها .. خشّى ياشاطرة .. جبت الخير من يـوم مـا جيتى دارى .. عمَّرت بيتى ياهناء .. الراجل ده كل همه شـوية اللبن .. فلاحين ماديين بيحبوا الفلوس وبس بأى ثمن وبيغـضُّوا الطرف عن أى شيء آخر ..
- يانهار إسود ياعم أبو حجاج ده كله بيحصل فى الغيط ..
- وأكتر من كده .. إنتو عارفين هناء دى بتقول إيه لواحده حبيبتها بتروَّح معاها بعد المغرب .. أنا عايزه كل رجَّالة البلد يشتغلونى علشان أشبع ..
- عارفنها ياعم أبو حجاج .. بيضه وطويله وشرحه وعينيها دَّباحه توقَّع أى راجل غاوى .. كحلها برضه من سويقة الخميس ..
- هىَّ عينيها من غير كُحل رهيبة..عينيها كلّها كلام ..

.. قام عبدالواحد وغيَّر مَّية الجوزة وغسلها .. كان لسه فيه تصافى حـشيش .. وكان كل واحد مننا ينظر إلى أبوحجاج فى انبهار يريد كل منا المزيد من

أخبار الرجال والنساء .. وراحوا جميعًا يسحبون ما تبقى فى ليلتهم من تعميرة الحشيش ونكشه حَّداد قائلا :

- والست التانية بتاعته يابو حجاج مين هىَّ .. قول لنا حكايتها ..
- بكفاية كده الليلة ..

وأمسك عبد الحميد بذراعه وقال :

- لا والنبى كمّل لنا حكاية خطَّاب مع نسوان الغيط ..
- الست التانيه أصغر من جوزها بتلاتين سنة اتجوزت مصلحة .. أبوها جَّوزها مصلحة .. خد قرشين من عبدالجليل أبو معزة تاجر القمح وماعرفشى يسددهم .. خد عليهم قرشين كمان وكان ده مهر بنته .. جليلة مرات عبدالجليل أجمل وأحلى ست فى العزبة كلّها..
- عبدالجليل دا مالوش غير فى كيلة القمح وسعر التبن وتجارة العدس والبلح ..
- بس دى ست أجمل وأقوى من هناء بكتير .. هىَّ دى اللّى تقدر تشيل خطَّاب ..
- على فكرة الست مش بجسمها .. فيه مثل بيقول درهم من النسا يشيل قنطار من الرجال ..
- وإيه حكايتها دى مع خطَّاب ..
- الست دى كانت بتروح الغيط بعد الفجر على طول .. أول ما توصل الغيط تصحّى النفر إنتو عارفينه الواد شفيق الكحيان بن عبدالغفار أتش .. تصحّيه وتديله لقمه زيادة شويه الواد على أدُّه رنّها وخلاص .. كان ده الراجل الوحيد اللّى بتلاقيه علشان يبل

ريقها شويه .. وكانت دايمًا تقولّه بعد ما يخلّص معاها .. جتك نيله ياشفيق عليك وعلى أمّك .. هيه ها نعمل إيه .. حمارك الأعرَج أحسن من سؤال اللئيم .. وينصرف شفيق إلى عمله فى الغيط وتروَّح بشوية اللبن لجوزها اللّى بينام للضهر ..

- طيب وفين خطّاب .. دى مش حكاية خطّاب ..
- خطّاب كان حاططها فى دماغه .. فى يوم مسك شفيق وسحبه فى الكلام بعد ما إدّاه حته لحمه وشوية رز .. كانت الدنيا ليل والليل دايمًا واسع فى الغيط والقمر الليلة دى كانت مفنجلة .. كان خطّاب بايت فى الغيط وقرّر شفيق الغلبان وخلاّه حكاله حكايته مع جليلة كل يوم الصبح ..
- وبعدين يابو حجاج سكت ليه ..
- ركزّ معاها خطّاب بعد كده .. كلمه حلوه الصبح .. صباح الخير ياجليلة عامله إيه .. إزيك ياعم خطاب .. شوية شوية راح لها الزريبة الصبح وبعت شفيق مشوار البلد ..
- بس إيه اللّى عرفك بالتفاصيل دى يابو حجاج ..
- على فكرة أنا وخطّاب أصحاب من زمان بيحكيلى كل حاجة من واحنا صغيّرين ..
- سألته جليلة ولاّ هناء أحسن ..
- قال لى كل واحدة ليها طعم .. هناء حركات أوى ولكن جليلة جسم وجمالها مُش على حد ..
- وكل نسوان الغيط كده .. أقصد النسوان الحلاّبه كل صبح وليل..

- فيه أكتر من تلاتين واحدة بيروحوا الغيط يحلبوا البهايم من التلاتين دولت فيه قول خمسه ملاديع وغاويين ..

وخلُص الحشيش ودارت رأسى وتركنا أبو حجاج ليشرب كوباية شاى بعد الحشيش كعادته ..

******

.. كالعادة نام الصغار ونامت أمى معهم فى غرفة أمى لبيبة التى رحلت نهائياً إلى مصر (القاهرة) شدّيت حبل سقاطة الباب الكبير ودخلت حثيثًا قد يكون أبى نائمًا فى المندرة أو تندفع أمى نحوى كعادتها هلعة من تأخرى حتى هذه الساعة من الليل .. لكن كان كل شيء يسير كما أتمنى فلم أجد أبى فى مندرته وكان شخير أمى عاليا كعادتها .. أحمد الله على سكون البيت وعدم وجود أبى أشرح صدرى أنه يعرف رائحة الكيف .. كان الليل شديد الحرارة فنمت مرتديًا الفانلة والشورت الفلاحى الذى يصل إلى الركبة .. كنت جائعًا إلى أى طعام رغم أننى تعشيت فتة وملوخية ووز .. صحيح الحشيش بيجوّع .. لم أنم ورحتُ أتقلّبُ فى فراشى متعجبًا من كيفية زواج رزق وحكايات خطّاب مع حلابات البهائم وجارته .. أبو حجاج هذا يعرف كل حكايات القرية الماجنة .. إننى فى حاجة إلى امرأة مثل خطّاب ولكن إذا كنت لا يعجبنى امرأة من بحرى فهن على شاكلة واحدة فكيف لى بذلك ؟ هل أذهب إلى الكفر لأبحث عن فتاة أو امرأة .. لم تعد هناك سميرة ولم يكن لى هناك غيرها .. ليتنى عرفتها فى هذه السن .. لكن لماذا العجلة إننى ذاهب إلى مدينة منوف لا تلقى تعليمى الثانوى وهناك سوف أجد ضالتى..

.. استيقظت عند الضحى وفتحت الباب فأتانى صوت أبى وأمى خفيضًا وهامسًا :

- حسن اتغير ياحداد وبيطلع بَرّه كتير ..
- أنا خايف عليه أوى خاصة إنه إمبارح قعد مع أبو حجاج..
- وش عرَّفك إنت كنت فى الغيط ليلة إمبارح ..
- واحد قابلنى وأنا جاى الصبح كان قاعد فى الدكان وقال لى على كل حاجة ..
- حاجة إيه .. قول ياحداد هو الدكان فيه إيه ..
- فيه حشيش وبلاوى زرقة .. هيه ..
- قول إيه اللّى سمعته ..
- إمبارح حسن كان فى القعدة وشرب حشيش مع أبو حجاج ..
- يالهوى ياحوستى ياخراب بيتى ابنى هايبوظ مننا .. قوم ياحداد صحّيه وهاته نشروده .. انا مش قاعده فى الدار دى ..
- طوّلى بالك أنا لىَّ تصرُّف معاه ..
- دا ما يطلعش من الدار تانى ..
- على العموم أنا هاكلّم أبو حجاج وكلها أيام وحسن هايبعد عن البلد..

.. خبطت أمى على صدرها بكف يدها وزعقت :

- هَّى منوف مافيهاش أبو حجاج ..
- كل بلد فيها عشرين أبو حجاج بس قعدات الحشيش فى البلاد الأرياف كتير ومنوف بلد تجارية ومتنوَّرة ومافيهاش دكاكين زى عندنا ..
- خلاص يبقى حسن يروح ويجى يوماتى ..

- ماينفعش مافيش مواصلات منتظمة ..
- طيِّب يروح أشمون ..
- أشمون مدرسة فيها مشاكل كتير ومش زى مدرسة منوف وبعدين عبدالعزيز هايدخل مدرسة ظاظا الخاصة ولازم يروح منوف ..
- والحل ..
- الحل عند الله ماتخافيش .. إحنا هانعمل اللّى علينا والباقى على الله ..
- هايسكنوا فين فى منوف ..
- مع ولاد عمهم محمود .. السيد هناك فى مدرسة التجارة وعبدالرحمن هايدخل مدرسة ظاظا مع عبد العزيز ..
- ومين يضمن سلامته .. أنا هاتجنّن .. إزاى حسن البريء مرّه واحده كده عِرف الحشيش ..
- بلدنا مليانه لبش فى كل دكان فيه واحد واتنين زى أبو حجاج ..
- ومين بيجيب الحشيش ..
- فيه كذا تاجر فى البلد وفى العزبة رزق شغّال ..
- بلدنا مافيهاش حشيش ..
- لأ فيه بس مش زى بلدنا ..

.. عدت إلى فراشى وشعرت بالخوف من عالمى الصغير فى بيتنا ولم يعد الصوت يصلنى بعد قفلى الباب غير أننى اشتقت إلى من يتكلّم معى وينصحنى ويشدُّ من ضعفي ويجعلنى أستعيد من جديد ما كنتُ عليه .. نمت كثيرًا وقمت بعد العصر واجتزت باب الوسط وقعدت بين كتبى أتصفحها كتابًا بعد الآخر وقرأت فى بعضها كثيرًا حتى وجدتنى أمسك القلم وأكتب :

.. ماذا أنت فاعل بى ياأبى .. ألا تريدنى أن أكون رجلاً .. أبوحجاج هـذا علمت منه ما لم أعلمه منك وهل أنا أول من دخّن الحشيش .. اذهـب إلـى ترسينة (بلكونة) قريبنا بركات مخيون كل ليلة تجده نصب القعدة ومعه عدد من المدرسين زملائه يشربون الحشيش ويتناولون المزّة حتى الفجر، ويقلّبوا البلد كلها فى حواديت وأقاويل وكلها حكاوى عن القيـل والقـال والقحبـة والعريان والسّناط وفى ليال كثيرة يعزمون ضابط النقطة ليـدخّن معهـم .. روح شوف يابه كل اللّى بيدخنوا وحرّيفة الجوزة مدرسين وموظفين وتلاتة منهم فى الاتحاد القومى..البلد كلها كده يابه وأنا بس بعرف الدنيا مش أكتر..

.. يا أبى البلد بتدخن من زمان وأنت تدخّن وكثيرا ما شربت الحشيش، ياأبى لا تتدب مع أمى وأصلح من نفسك فأنت قد أخطأت معها فى ليـال دُخلتهـا الأولى وهى الآن تنتقم .. إن أشياء كثيرة تتضاعف فى داخل نفسى منكما .. ألست أنت الذى كرشها إلى بلدها فى عز ليل ممطر وكنت وقتها لم أبلغ من العمر عامين .. ياراجل ياتقى دا إنت ياما خلبصت فى غرفة التبن وجـاى تتكلّم مع أمى كأنى عملت عاملة، كان لازم تبقى طبيعى علشان أكون زيّك، احمد ربّنا يابه إنى ماعملتش أى حاجة مع فكيه، أنا لسه دلوقتى صاغ سـليم وأحمد ربّك إنى مابحبّش نسوان بحرى ولا باروح درة ولا قمح أدوّر فيـه على واحدة ..

.. ببراعة أخذت أرتّب كتبى ثانية ووضعت الورقة الثانية التى أكتبها حتـى آخر أغسطس عام ١٩٦٠ وتنفّستُ الصعداء وفتحت نوافذ الغرفـة، وبـدأت لأول مرّة أتنفّس الهواء النقى كفرس ولد من بطن أمه، شعرت بأننى فـرس أتحفّز للانطلاق ولماذا الاندهاش إذا كنت قد اسـتيقظت أفكـارى وتنفّسـت هوائى فى حكايات الدكان وسمعت بنهم شديد إلى "أبوحجاج" الـذى يعـرف

ويعى كل ما يجرى فى عراقيب القرية .. المهم أننى أحتفظ بكيانى ولم أزن ولم أسرق ولم أنصب إن الحكايات التى سمعتها فى الدكان وكيف هذا تزوج وكيف هذه عشقت وكيف أن يكون لرجل قوى ثلاث نساء هذا غير الذى رأيته وشاهدته من حكايات الغيط والترعة والبحر .. إن أكبر شيء فىَّ الآن أننى أحب أن أسمع حكايات القرية كلها .. ولكن كيف وهل هذه معرفة .. إننى لم أنصهر فى حياتى مع الناس ولكننى كنت دومًا أتأمل وأرى وأندهش وآخذ جانبًا فى أى ركن من أركان مدرستى أو بيتى .. وكان علَّى أن أتقدَّم الليلة للحديث مع أبى ومفاتحته فى كل ما جرى فى حياتى الماضية وأحداثى الآن فى الدكان .. إننى لست متهمًا حتى أنتظر ما يسوقه لى أبى من خوف وحرص علىَّ، إنه لن يفلت منى شيء فى حياتى وأصبحت نفسى تقبض على كل شيء حولى .. أشعر أننى مثل منزل معمور لكن هذا المنزل لابد له أن يكبر ويعلو .. وعلا أذان المغرب ودخل بعده الليل وبدأت الغرفة تظلم ولم تأتنى أمى بلمبة الجاز التى تضيء المندرة .. هل بدأت تهملنى .. إنها لم تأتنى بطعام هذا اليوم .. أبدأت تغضب علىَّ وهذا أول الحرمان، إننى أتعامل مع نفسى حتى الآن كغلام لأننى مازلت أنتظر أن تأتنى أمى بالطعام الشهى، لماذا لا أعدِّى هذه العادة وأذهب بنفسى للبحث عن الطعام الذى أريده فى غرفة الغموس، هناك الزبد والجبن بأنواعه والخبز .. بتاو ومرحرح وعيش قمح وكثير من البيض فى طبق الخوص، ماذا أريد بعد أليس لى الآن أن أذهب إلى تلك الغرفة لآتى منها بالطعام الذى أريده .. ورحت فى نوم خفيف لكننى كنت أسمع عودة الفلاحين بحيواناتهم من الغيط الى بيوتهم صوتهم وتنعير بهائمهم وهمهمة نسائهم وصراخ أطفالهم، وفتح باب المندرة وشممتُ رائحة أمى النفاذة وأنفاسها الدافئة، اقتربت خطواتها وضعت شيئًا على

المنضدة، ولم تستطع أن تتحكم فى زفرة كأنها تتنرفز فى صمت .. ونـدت عنها زفرة أخرى وطفَقت قائلة :

- حسن .. حسن ..

وتقلَّبت فى نومى وعاد وجهى نحوها فرأيتها وقد وقفت مثل شـجرة تـوت مالت بفرعها حيث أرقد .. كنت أريد أن أسمع منها .. حسن .. حسن تـاني .. انحنت نحو رأسى وقالت :

- حسن مالك إنت مش دارى ..
- هيه .. هيه (فى خبث) كأننى أحاول أن أستيقظ .. أيوه يامه..
- قوم .. قوم ياحسن .. الفرخة والرز والعيش على الترابيزة .. قوم كُلْ قبل بتوع الغيط ماييجوا .. قوم علىّ شريط اللمبة ..

وقعدت أضع كفى يدىَّ على وجهى كأننى أفيق .. كم كانـت غبطتـى فـى داخلى إن أمى هى أمى، ولم تدعنى فرصة أن أقول شيئًا لكننى لم أنبس ببنت شفة فأخذت يدها فى كف يدى ورحت أقبّلها ودعتنى ثم قالت وهى تنقلب إلى وسط دارها :

- قوم بقى .. كُلْ بسرعة قبل الشعب ما ييجي ..

.. التهمت الدجاجة عن آخرها وسلطانية الشوربة وطبق الأرز وشقة عـيش .. ياه أد كده أنا لسه حسن .. يعنى إخوتى عبدالعزيز ومحمد وثروت وعلى .. أربعة إخوة فى كفة وأنا مازلت فى كفة .. إخوتى الأربعة يأكلون مايفيض منّى أو يأكلون من طعام الأنفار .. إخوتى الأربعة عبيد ولدتهم أمى من أبى وأنا السيد الوحيد رغم حكاية أبى لها عن شُربى الحشيش فى الدكان مع "أبو حجاج" .. غسلت يدى من الطرنبة وتوضأت ثم آويت إليها وهى تقعد أمـام الفرن وانحنيت فوقها لأقبّل رأسها ووجهها فسالت الزفرات منهـا بغـزارة

واحمر وجهها وراحت تجففه بالطرحة ثم راحت تبكى فى صوت تسمعه كل جدران البيت ولم أستطع إسكاتها .. تركتها تبكى ورُحت أربت على ظهرها فى حنو .. كنت أتهته .. مالك يامَّه فيه إيه .. بتعيَّطى ليه .. استغفرى الله .. إنت زعلانة من أبويا .. طب زعلانه منّى..

.. راحت فى نهنهة من البكاء وأمسكت بذراعى وأبعدتنى عنها قليلاً وأخذت تهزُّنى بكلتا يديها وقالت :

- هوَّ إنت حسن .. إنت ابنى اللّى كان كل أملى ..
- آى والله أنا حسن ..
- آه ياحسن آه .. بتشرب حشيش هاتبوظ هاتروح منّى .. أنا طول عمرى بخاف عليك وبّحبك أد الدنيا علشان تبقى زى أهلى فى تلوانه .. لسه لا رحت ولا جيت وأول ما شطحت نطحت .. إذا كنت ابنى صحيح ماتروحشى الدكان ولا تعرف "أبو حجاج" تانى .. إنت لسه بغو بريء ..

.. ولذتُ بصدرها أحتضنها بقوة وأبكى وهى تبكى ثم أمسكتنى من رأسى وبكف يدها ملَّست بأصابعها شعر رأسى فى حنو وبأناملها الأخرى مسحت دموعى فى رقة بالغة .. كانت تريد أن تسمعنى أن أردَّ عليها أن أتوب عما فعلته .. لكننى عدلتُ نفسى عنها وتخلَّصت فى أدب من يديها، وكنت بين قدميها أجلس فوق الأرض وأمسكت بركبتها وقلت وكأننى تدبَّرت شيئًا :

- أنا ولد فى داخلى أكبر من عمرى .. المشكلة يا أمى إن جوايه ثورة ومجون ..
- مش فاهمة حاجة .. إنت عايز إيه يا حسن ..

- أنا لو قعدت فى الدار مش هاعرف حاجة عن الدنيا .. الدنيا مليانة حاجات وحواديت رهيبة .. إذا قعدت فى البيت جنبك هابقى جاهل يامَّه مش هاعرف حاجة عن الدنيا .. مش إنت عايزانى أبقى راجل ..
- اعرف كل حاجة من غير دكاكين ..
- الدكاكين فى بلدنا هىَّ التاريخ وحكايات الناس .. إذا كان أحسن ناس فى البلد بيقعدوا يشربوا حشيش ..
- زى مين ..
- بركات أشهر مدرس فى البلد وظابط النقطة وموظفين المستشفى والمجلس البلدى وكل أعضاء الاتحاد القومى دول كلُّهم قعدتهم على طول يوم الخميس فى بيت بركات بيشربوا الحشيش وبيقولوا كل الحكاوى والحواديت ..
- دول ناس كبرت واختاروا حياتهم لكن إنت لسه لارحت ولاجيت .. على فكرة الناس دى فى عرف الأخلاق مش ناس كويسين ..
- طيب أجيب مين يهَدِّى حاجتى ويشبعنى حكايات وحواديت أنا عايز أعرف الدنيا كلها كل يوم ..
- مش لازم تشرب حشيش .. هوَّ مافيش إلاَّ فى قعدة الحشيش اسمع حكايات أم سلامة وحكايات البُكلية وأنا باحكيلك حاجات كتير ..
- لَّما كنت صغيَّر شبعت من حكاياتهم .. حكاياتهم لا تودِّى ولا تجيب دى كانت حاجة حلوة لَّما كنت نونو زى الأرنب المسكين..

- إذا كنت لسه فى البلد وأدّام عينى رُحت الدكاكين وشربت الحشيش أمّال لّما تروح منوف وتبعد عن عينى هاتعمل إيه .. أُستر يارب على اللّى جاى ..
- خلّينى أشبع من البلد علشان لّما أروح منوف أبقى شبعان حواديت .. وعلى فكرة يبقى عندى خبرة بالدنيا علشان أبقى قوى ماحدّش يضحك عليا ..
- مافيش حاجة فى حواديت البلد تشبّع ضبى زيّك عبيط ..
- عبيط عبيط .. سيبينى أعرف بنفسى حكايات كل البلد من غيرها أبقى عبيط بصحيح ..
- اللّى عاوز ربّنا يرضى عليه يطاوع أمه وأبوه ..
- آه يامّه هاقولّك حاجة ماتزعليش .. وسكتْ ..
- سكت ليه قول ..
- إنت ليه بتذلّي أبويا وعاصيه عليه .. دا الرّاجل خلّف منك خمس عيال ولسه فاكره ليلة الدخلة .. إنت ليه مابتسامحيش .. هوّ إنت حجر مصنوعة من ترابيس الحديد ..
- أقول إيه .. هاتخلّينى أدعى عليك .. حرام ياحسن اللّى بتقوله لأمك مالكش دعوه بللّى بين أمك وأبوك ..
- إذا كان ده أهم حاجة فى حياتنا .. إنت عارفة إن أبويا بينزف وجع وآنين .. حرام علّيك يامّه .. ارحميه ..شويه رأفة بيه..
- وأنا أعمله إيه..
- .. إذا كنت أنا عيّل صغير وغلطت .. طيب إنت ليه كبيرة عنى بكتير وغلطك كبير .. إنت عارفه أنا سمعت إن الست اللّى

مابتدّيش حق جوزها هاتروح النار حدف .. عارفه كـده يامَّـه سمعتى على الكلام ده .. مش إنت بتروحى جامع الشيخ سـليمان وواثقة فى كلامه .. اسألیه عن جزاء الست العاصـية جوزهـا جزاءها إيه ..

- يابنى حرام عليك ماتجّرحنيش .. ماتحرجنيش كفاية يا حسن روح مطرح ماطروح ماتطاوعنيش ..
- روحى الأول طاوعى ربّك يامَّه .. لو كنت أمى بصحيح كـونى لأبويا ست .. خُديه القاعة وحمّيه تملّكيه من ساسه لراسه يرضى عنك الكريم .. بتصلّى ليه يامَّه وبتصومى من غير قلب من غير عَقل من غير تمييز .. يامَّه قومى استحمى واتكحلى وحُطّى على شعرك الأكرت شوية جاز وسَّرحيه .. شوفِ نفسك شويه واعرفِ دينك والبسى وازّبرقى زى نسوان الكفر الله يرضى علـى كـل نسوان الكفر نسوان صحيح مش خناشير .. يامَّه إنت من تلوانـه بلد الطاعة والحنين مين غيَّرك .. مين شقلب الأصول عنـدك .. روحى اسألى أختك فهيمة بتعمل إيه لجوزها ياريت تكونى نصها هيَّ دى الست بصحيح .. صلّحى نفسك يامَّه وقبل ما تقولى لابنك بلاش دكاكين .. أرجوك يامه افتحى القاعة من جديـد واحمـى الفرن وافرشى حصيرة نضيفة على قبته زى ما كانت أمى لبيبـة بتعمل اعملى هوَّ إنت مش من الحريم .. يامَّه إمكانياتـك كتيـر قومى وصحصحى وعيشِ بقى قبل ما أبويا يموت من الذُّل إلّـى دوقتيه حنضل من سنين .. ارحمى ربّنا يرحمك يامَّه وتوبى من

جديد .. وإذا عملت الليله زى ما قلتلك والله عمرى ماهدخل دكاكين ..

- إذا كان دا شرطك هاعمل لأبوك اللّى إنت عايزه ياحسن ..
- لأ مش كده بس .. اعملى لأبويا بحب وبمزاج .. كونى امرأة .. كونى امرأة .. طلّعى اللّى جواك من مشاعر وأحاسيس خلّلت جواك من سنين ..
- خلاص ياحسن إنت كسفتنى بكفاية أكتر من كده ماتكسفنيش .. دا واجب ربّنا يابنى .. هانسى كل اللّى فات واحده واحده هايهدينى ربّنا ..

*****

. فى هذه الليلة كأنما قطعة من الليل المظلم تظلّل قريتى صعدت إلى السماء يبرز منها قمر غير هذا القمر .. وانتثرت نجوم أخرى حول بقع السحب السابحة فى العلو كأنه سيهطل المطر .. أقوى من عطر الربيع تريّحت به أمى فى ليلة كان الهمس والوجع ينفجر فوق قبة الفرن الجائع من زمن إلى ماضٍ من الحب والعشق كانا فوقه .. إن تزييق باب القاعة والصوت العاشق فيها لصوت امرأة فى ليلة دخلة جديدة كأنها لم تدخل من قبل مع أبى بعد أن أنجبت منه خمسة عيال .. أمهما خلّفت المرأة من أبناء تستطيع أن تتزوج من جديد وتعشق زوجها الذى كان يرقد تحت سطوة زوجته الأولى التى كانت تشبع تباريحه .. أليس فى هذه الليلة من روعة تفوق كل ما فى الدكاكين من كيف وحشيش .. إن من سعد فى داره مثلى لسعادة أمه وأبيه لن يكون له حتى صحبة تشرب شايًا فى حانوت .. إننى أستطيع الآن فى بيتى أن أقيم عالمًا من تلك الكتب القديمة والجديدة التى جلبها أبى من سور

الأزبكية، لقد اقترب سفرى إلى مدينة منوف لألتحق بالصف الأول الثانوى أليس فى ذلك بهجة لعالم جديد أقبل نحوه ..

ومرَّت الأيام بسلاسة وكما كان لعواء مكنة الطحين إيقاظ لنفسى يأتينى من بين أوراق العنب فى حديقة جارنا زكى أبو شنب أصبح الآن صوت أبى وأمى فى داخل القاعة وتزييق بابها العتيق أثرًا عميقًا يشدُّنى الآن إلى تذكر يوم أن رأيت سميرة عارية ومعها عروس الكفر التى شلحت كل ثيابها لتحيِّك لها سميرة مثلها.. إننى الآن فى شوق لأن أرى جسد امرأة .. جسد امرأة من الكفر وليس امرأة من بحرى البلد .. وكما تعقدَّت نفسية أمى فى ليلة دخلتها الأولى كانت نفس عقدتى من نساء الترعة والغيط ..

وبدأت أبتعد عن صحبة الدكان حتى لا نذهب ثانية ونشرب الحشيش، وعلمت فيما بعد أن خالهم ضربهم جميعًا علقة ساخنة فكانوا حريصين مثلى فى مقاطعة الحانوت، وبعد صلاح حال أمى مع أبى شعرت بأننى لست فى حاجة إلى قعدات الليل فى قريتى وأن قوتى الحقيقية تأتينى من داخل نفسى، وأن الصلاح الذى حصل فى بيتنا أمدَّنى بنور جميل فى أعماق تلك النفس، وأن المهالك التى كانت تتصارع فى أغوارى بدأت تزول، من هذا اليوم بدأت أقعد مع نفسى وأمتلك ما يسمى بالإرادة خاصة بعد أن أصلحت ما بين والدى وأمى وأنا الغلام الصغير فأعطانى ذلك ثقة لا حدودَ لها .. وكان علىَّ أن أنميِّ عقلى ليس بمخالطة الناس الذين يحصدون أخبار الفساد فى قريتى ولكن بالتأمل وقراءة كل الكتب التى أستحوذ عليها فى بيتى .. إن عصا عقلى هى إرادتى ولكن لابد لتلك العصا أن تكون أداة فى يدى لأضرب بها كل ما هو خيبة ويأس فى داخلى، وأنه علىَّ أن أتجنَّب طيش العقل الذى كان يأخذنى إلى تيه لا حدود له ولا يمكن تحقيق ذلك إلاَّ بتغذية تلك الروح التى

ترفرف حول قلبى وعلىَّ بكثير من الوضوء الذى يشفينى ويجعلنى طاهرًا قبل كل صلاة مع ربِّى الذى يمدنى بعدها بكثير من الرضا عن نفسى .. لكن حاجتى إلى الجنس الآخر لم تمت وكنت فى حاجة شديدة لأن أنشيء علاقة مع فتاة .. علاقة روحية فيها ود وحنين تأخذ وتعطى معى حديثًا لا ينتهى.. إنه لابد من الاستعانة بشيء فى المرأة كى يعيننى فى شفاء مايعترينى من شوق وحاجة إلى ذلك الجنس الذى لم أمسُّه ولم أقترب منه فى بلدتى حتى بلغت هذا العمر الصغير لتمردى على الفلاحات وقصورى عن الذهاب إلى بنت الكفر التى هجرت بيتها إلى الإسكندرية ..

****

.. ذهبت إلى مدينة منوف وأنا أحمل فى نفسى هذا الوجع وتلك الحاجة فهل أجد فىترحالى تلك الفتاة التى أبحث عنها .. ولم أكن أبحث فى تحصيل الدروس أكثر مما أبحث فى شيء آخر ..

.. انبهرت فى أول الأمر بشوارعها وحوانيتها ودار السينما الوحيدة بها .. تجولت فى المدينة وحدى ومع زملائى وأصدقائى .. تهدَّجت أنفاسى من كثرة التجوال فى حواريها وميادينها يوماً بعد يوم وجدت نفسى بلا قريتى وتبدَّلت أشياء كثيرة فى داخلى وأول عادة تعودَّت عليها كل صباح هو شراء جريدة أخبار اليوم بقرش صاغ وأقف أمام باب المدرسة قبل أن يفتحها الفَّراش لأتصفح الجورنال من أوله لآخره ..

.. كانت المدرسة مقابل إدارة مصنع الدفراوى للمعسل ويحفُّها يميناً مبنى مركز منوف للشرطة ومن اليسار تقع المدرسة التجارية وخلف تلك الأبنية والبيوت يسارًا تقع الكنيسة والتى يقطن حولها كثير من النصارى .. ولم أكن قد رأيت كنيسة من قبل فإذا انتهيت من قراءة الجريدة قبل أن يفتح الفراش

باب مدرستى تمشيت يسارًا حتى أبلغ مبنى الكنيسة لأتأملها وأنطوى فى شارع خلفها تقع فيه مدرسة إعدادية للبنات أتأمل التلميذات وهن يدخلن إليها ثم التوى يمينًا لأصل إلى سور المدرسة التجارية الذى فى نهايته أمشى قليلاً فأجد باب مدرستى مفتوحًا فأسأل الفراش :

- حسن محاريق جه ..
- زمانه جاى ..

وكان حسن محاريق تلميذًا من قرية فيشا الكبرى يأتى المدرسة راكبًا عربة أوبل .. يجلس فى المقعد الخلفى خلف سائقها الذى ينزل ليفتح الباب للتلميذ حسن محاريق فينزل فى غرور وقد حمل له السائق حقيبته ليدخل حسن أمامه، ويظل السائق معه داخل المدرسة حتى يدق جرس الطابور الصباحى فيسلّمه الحقيبة وينصرف .. كنت أرى فى حسن فُرجة تبهج قلبى للعز الذى يعيش فيه وكان كثير من التلاميذ والمدرسين يراقبون حسن وسائقه كل صباح وهما يدخلان المدرسة ويجدون فى ذلك عزًا كبيرًا ويحسدون هذا التلميذ على ما فيه من أملة وجاه ..

.. كان كل تلاميذ المدرسة من قرى مركز منوف ومن أهل المدينة، ولم يكن من قريتى فى هذه المدرسة سوى حداد الصاوى وأنا .. وكانت مدرسة ظاظا الإعدادية الخاصة تمتلئ بأكثر من ثلاثين تلميذًا من قريتى وفيهم أخى عبدالعزيز الذى يصغرنى بعامين .. ومنذ أن عرفت القرية تعليم أبنائها فى المدارس لم يشهد حال العام الدراسى الأول فى هذه المدينة أحداث عيال خائبين جاءوا من قريتهم إلى منوف ليدخنوا السجائر والجوزة ويدخلوا السينما فى كثير من ليال الأسبوع ويلعبون الكوتشينة والدومنو فى سكناهم

وفى المقاهى .. ولم يكن أهلهم يدرون بشيء من أحداث هؤلاء الأولاد الذين ملأوا مدينة منوف لهوًا وعبثًا ..

.. كان المنزل الذى أقطن فيه هو ملك محمد الجمال من سرس الليان .. والشقة ثلاث غرف يسكن فيها ستة تلاميذ أكبرنا سيد بن عمى محمود وهو بالدبلوم التجارى والباقى أربعة أخى وعبدالرحمن بن عمى محمود وتلميذان آخران أقرباء لنا من القرية .. كنت أول من يخرج من البيت قاصدًا مدرستى وبعدى أخى وبعد شهر تقريبًا لم يعد أخى يذهب إلى المدرسة مثل بقية الصحبة التى تقطن معنا، وسيد محمود أكبرنا هو شيخ المضربين عن المدرسة ولو كان فى استطاعته أن يقعدنى معهم لفعل .. يرسل سيد أحدهم ليشترى الفول والطعمية والبصل والجرجير والخبز، وتبدأ القعدة بتناول الفطور ثم الشاى ثلاثة أدوار بعدها المعسّل الحاف وأحيانا تغميسة بالحشيش إن وجد ..

.. لم أكن أستطيع نُصح إبن عمى عن هذا البوظان الذى نشره بين هؤلاء الغلمان الأربعة لأن الصغار مقتنعون بأفعالهم وأنهم جاءوا إلى مدينة بعيدة ليفعلوا ما يحلو لهم بعيدًا عن أعين الأهل .. أقفل غرفتى حتى منتصف الليل وأنا فى داخلها أستذكر دروسى واقرأ قصص الجيب التى اشتريتها من بائع الجرائد .. والشلة ومعها أخى الصغير يجلسون ربطة واحدة فى غرفة ابن عمى يلعبون الكوتشينة ويدخنون المعسل والسجائر حتى يؤذّن الفجر .. وعندما يدخل أخى الغرفة لينام أكون قد شبعت من النوم .. أستيقظ وأمارس بعض التمارين الرياضية بعدها أتوضأ وأخرج فى هدوء لصلاة الفجر ..

.. وكم كنت فرحًا عندما أصلّى فى جماعة مع أهل منوف ومعظمهم من كبار السن وجوه أراها لأول مرّة .. إنه مسجد قديم صغير يقع فى شارع

داير الناحية فى آخر استدارة شارعى نحو الغرب .. كنت حريصًا علـى ألاَّ يرانى أحد من الشلة حتى لا أعطيهم فرصة التريقة علـىَّ .. وكـان ذلـك مألوفًا فى بلدتى إذا وجد الصغار واحدًا منهم يصلّى أو يذهب إلى أمر مـن أمور الاستقامة أشبعوه تريقة ونقوزة .. أذاكر دروسى حتى تطلع الشمس ثم أرتدى ملابس العسكرية (ملابس الفتوة) وهى الملابس التى كـان يرتـديها تلاميذ أى مدرسة ثانوية فى ذلك الوقت .. أخرج من البيت أحملُ كتبى فـى يدى وأتجه إلى شارع القيسارية الذى تقع فى نهايته مدرستى .. أمشى مزهوًا كالفرس الذى يختال في تبختُر .. أشترى جريدة الأخبار من بـائع الجرائـد الذى يجلس وسط صحفه مقابل بقالة الخواجة بطرس والذى منـه أشـترى سندوتشات الجبنة الرومى التى كانت عجبة فى ذلك الوقت، وكما كان الناس فى قريتى يعتبرون من يشترى الفول والطعمية حضارة، فإننى أعتبر نفسى متحضِّرًا لأننى آكل الجنبة الرومى التى أشتهيها من الخواجة كل صـباح .. متعة فى التهام سندوتشات الجبنة الرومى والتى أثناءها أتصفح الجريدة أمام باب المدرسة المقفل وأختم تلك المتعة بالدخول فى الشارع المؤدى إلى مبنى الكنيسة لأقف عند ناصية الحارة المواجهة للباب الذى منه يدخل المصلُّون .. أستمتع بدق الأجراس المتدفقة من علو المبنى القديم العتيق .. مثـل الـذى يدخن الحشيش فى قريتى أصل منتهى السيطرة على نفسى عندما أرى الناس حولى ينصرفون إلى أعمالهم، وكأن أجراس الكنيسة تصفّق فرحـة بيقظـة المدينة ..

*****

-٣-

.. كنا أكثر من مائة تلميذ فى قريتى نتلقَّى التعليم فى مدينة منوف .. نعود عصر كل يوم خميس إلى أهلنا فى البلدة ويوم الجمعة تكون عودتنا إلى المدينة لنتأهب فى سكنانا لمعاودة الدراسة صباح كل سبت، نرتدى الجلاليب فى العودة وفى الإياب نفس الجلاليب، فى العودة يوم الخميس تكون المؤن قد فرغت من الأسبتة وفى العودة نملأ الأسبتة بالخبز والزبد والجبن والبيض كل بيت يموّل ولده ماستطاع من مواد غذائية ليساعده فى المعيشة طوال الأسبوع، وكان متوسط المصروف الأسبوعى للتلميذ خمسين قرشًا وبعض التلاميذ الفقراء ثلاثين قرشًا، وكنت أنا وأخى خمسة وسبعون قرشًا فى الأسبوع، وكانت أمى كعادتها تغمزنى بربع جنيه دون أن يعلم أخى شيئًا عن هذه الغمزة .. ولَّما كان أخى يشعر دون أن يرى هذه الزيادة .. كان يقول وكأنه يغنّى .. الغمز أبرالى .. وحتى الآن لا أعرف معنى أبرالى ولَّما كنت أسأله .. يعنى إيه أبرالى فيقول هىَّ كده .. الأغنية كده .. ومن الرخاء الذى كان أبى يغدقه علينا أنه كان يشترى كل شهر صفيحة عسل نحل زنة خمسة كيلو من حسن الفخرانى تاجر العنب والذى كان يحتكر تربية النحل فى حقوله .. وفى يوم قلت لأبى :

- إنت بتدِّينا كتير أوى ..
- الخير موجود وانتو أكبر ولادى ..
- عبدالعزيز بايظ وغرقان مع الشلة .. مانستهلش كل ده ..
- عبد العزيز ربَّنا يهديه ..
- اضربه يابه أدِّبه .. الجوزة ولعب الكوتشينة هايضيعوه ..
- البركة فى سيِّد بوَّظ عيال ظاظه اللّى معاه فى الشقة ..

- قول لسيد كفايه ..
- السنة الجاية هاتسكنوا لوحدكم وهابعدكم عنه ..
- هوَّ ليه بيعلّم العيال شُرب الجوزة ..
- علشان هوَّ من زمان عرقوب من عراقيب الجوزة تحت الشجرة فى الغيط كل ليلة ..
- يعنى هوَّ راح منوف علشان يكمّل القعدة ...
- لو ودّيت سيد آخر الدنيا .. لو راح فرنسا هايعلّم أهلها أصول قعدة الجوزة والحشيش .. هوَّ كده علّمه أبو هنطش شيخ قعدات الحشيش فى البلد ..
- طيّب وليه سكّنتنا معاه ..
- علشان هوَّ الكبير بتاعكم وماكنتش أعرف أنه مُضرب عن المدرسة وإن قعدته هاينقلها منوف ..
- طيب ليه أبويا محمود مابيقولُوش عيب ..
- قاله كتير .. الواد طالع عاصى أبوه على طول الخط ..
- وإيه السبب ..
- السيد لَّما ماتت أمه وهَّو صغيَّر مالقاش حنان من أبوه .. محمود اتجوّز على طول وخلّف منها وبقى ولاده من الجديدة أغلّى حاجة عنده ونسى السيد .
- وعلشان كده السيد طلع قاسى على أبوه ..
- أبوه هوَّ اللّى قسى أوى عليه .. القسوة ولّدت قسوة ..
- أنا شُفت كتير السيد مابيقولش لأبوه سلام عليكم ..
- وأبوك محمود لَّما بيشوفه بيدعى عليه ..

- علشان كده هرب من أبوه وراح لقعدات الحشيش ..
- دا مش كده وبس .. السيد طلع لقى الأرض كتير والفلوس كتير كان لازم يروّق نفسه لّما علاقته مع أبوه بقت مافيش .. ومافيش من أبوه غير الشديد عليه ..
- مش فاهم ..
- السيد بياخد من ورا أبوه كل مصاريفه من ريع الأرض .. شوية برسيم شوية قطن كوزين دره كيلتين قمح ويخلّص نفسه ..
- يعنى السيد مش غلطان ..
- لأ غلطان بس ناقص حنّيه .. العِيل لما بتموت أمه يبقى يتيم والراجل مننا لّما بتموت مراته بيتجوّز قبل الأربعين .. وكان المفروض محمود ياخده فى حضنه لكن السيد عنيد لّما كبر عاند أبوه ..
- كل واحد منهم راح فى سكه ..
- طيّب المهم إحنا دلوقتى .. أنا وعبدالعزيز ..
- السنه الجاية هاتبقوا لوحدكم ..
- هايكون ساعتها عبدالعزيز راح مننا ..
- عبدالعزيز ده بايظ من صغره ولسانه طويل المهم إنت من الشغلانه دى كلها ..
- ياه إنت يابه خلّصتها كده ..
- اللّى إنت ماتعرفوش عن عبدالعزيز .. وسكت ..
- إيه هوّ يابه ..
- إنت عارف لّما بييجى الغيط بيعمل إيه ..

- يضرب البهايم بالشمروخ عامل زى السيد حجاج ..
- دى ممكن تتعالج ..
- ومن ورايا بيبيع البادنجان والبامية لولاد هيت ..
- بيّديك الفلوس ..
- الفلوس بيشرب بيها سجائر وبالليل بيشرب مع الأنفار ..
- اضربه .. ماضربتوش ليه ..
- مرّه زغدته فى كتفه وقلت له عيب .. إنت عارف عمل إيه ..
- جرى من أدّامى وقالّى الأيام بيننا ..
- يانهار إسود .. وعملت إيه ..
- ولا حاجة ربّنا يهديه ..
- يعنى ليه إنت هادى مع ولادك أوى كده .. مابتضربش ليه ..
- أضرب مين ياحسن .. أنا جبت ولادى بعد مرار .. أنا بادعى ليهم بالهداية ..
- يعنى عبدالعزيز إنت قريت فتحته ..
- مطرح مايروح يروح .. العيّل المهدى مهدى من يومه والبايظ بيبقى باين عليه ..
- يبقى مافيش داعى نودّيه المدرسة تانى ..
- لأ .. أنا معاه للآخر يمكن يبقى كويس السنة الجاية ..
- دى مصاريف على الفاضى .. خلّيه يساعدك فى الغيط ..
- لوجه يساعدنى فى الغيط هايخربها ..
- الخلاصة إيه ..
- يمكن ينفع خلّيه فى مدرسة ظاظا لحد ماياخد الإعدادية ..

- يابه العيال بتوع مدرسة ظاظا كلّهم ضايعين ..
- شوف خلّيني معاه للآخر يمكن ينفع نفسه ..
- آه يابه .. ينفع إزّاى وهوَّ مابيروحش المدرسة ..
- آه ياحسن ماتزهقنيش .. أنا تعبت ..

****

.. كانت أمى حريصة على أن تملأ السَّبت بكثير من الغذاء .. ترُص الخبز فى أسفله وعلبة بلاستيك محشوة بالبيض وكيس به رطلين زبدة وآخر جبنة حصيرة وقريش مع جبنة قديمة .. السَّبت وعاء طولى مجدول من البوص الناشف وله يد فى شكل نصف دائرة فى حجم الشوال الممتلئ بالدقيق، وكان بيتنا به كثير منها صغيرة ومتوسطة ومستطيلة، وفى الناحية البحرية يقوم بصناعتها سعيد رزق السودانى وهو من آخر سلالة عبيد القطان، وكان يجلس أمام دكانه طوال النهار يجدل فى أسبتة حسب طلب الزبون، محل طولى فارغ من أى بضاعة وليس به إلاَّ كراملة ونعناع وكان يستخدم مساحة المحل فى فرش حصيرة طولية بداخله يجلس عليها الأطفال الصغار فى شكل طوابير صغيرة ليعلمهَّم تحفيظ القرآن فى ألواح صغيرة من الصاج .. وكان سعيد رزق زربونه يعنى صاحب حرْ بمعنى إنه كان خُلْقه ضيق يتزهق بسرعة على الأطفال ويضربهم بعصاته عندماً لا يحفظون القرآن بشكل جيد حتى أنه جاء عليه يوم فرَّ التلاميذ جميعًا من كُتَّابه وذهبوا إلى كُتَّاب الشيخ محمد الجريسى الذى كان أشد قسوة منه؛ لأنه كان يضرب بالفلكة حتى تتورَّم كف رجل الغلام من قسوة الضرب ثم يفر الأولاد بعد ذلك إلى كُتَّاب ثالث لصاحبه حسن تنَّك .. بعد ذلك يزهق الصبية ويطفشون من الكتاتيب الثلاثة إلى أن يأتى موعد افتتاح الدراسة الابتدائية .. فى الحته البحرية لم

يحفظ القرآن كثيرٌ من الصبية إلاَّ القليل الذين تحملّوا قسوة أصحاب الكتاتيب الثلاثة .. أمَّا الكُتَّاب الرابع فكان لصاحبه الشيخ أمين البارودى الذى كان رحيمًا بالأولاد وحفظ القرآن على يديه كثيرٌ من غلمان القرية، ولكن هذا الكُتَّاب كان بعيدًا يقع فى درب البكلَّه وهذا الدرب فيه كثير من الكلاب الضالة التى تعضُّ المارة ..

.. كنت أقترب من حفظ جزءين من القرآن (عمَّ وتبارك) وفى ذروة إتقان الحفظ صفعنى حسن تنَّك على وجهى فناولته بفردة الشبشب على رأسه وجريت إلى الشارع ودخلت البيت متهدِّج الأنفاس، وحكيتُ لأمى التى وافقتنى على عدم الذهاب إليه ثانية، بعدها بأيام أخذنى أبى من يدى حتى وصلنا إلى كُتَّاب محمد الجريسى الذى كان ضريرًا وأشد قسوة، وفى يوم ضربنى فى شراسة بعد أن علَّقنى فى الفلكة من قدمى بمساعدة أولاد كبار من تلاميذه فتورَّمت قدماى وبكَّت دمًا ورحتُ أبكى وأتوجع ولَّما انصرف الأولاد الكبار قبلى .. حملت طبلية من الخشب كان يضع فوقها عدة الشاى وألقيتها فوق رأسه وقلت يافكيك إلى بيتنا .. حكيت لأبى وأمى واتفقا على ألاَّ أذهب ثانية إلى أى كُتَّاب .. ورحت أحصِّل القرآن بنفسى لكننى لم أستطع حفظه واعتمدت بعد ذلك أن أقرأ ما تيسَّر منه من يوم لآخر وأن أسمعه من الراديو صباح مساءَ ..

.. نتجمَّع جميعًا نحن تلاميذ العلم فى مدينة منوف كل يوم جمعة بعد العصر عند قهوة رجب "أبو عزيزة" ننتظر الكافورى .. الأتوبيس الكبير .. لنركب فيه حتى نصل إلى قرية سمادون التى تبعد عن بلدنا أربعة كيلو متر والتى منها نأخذ البخارية إلى مدينة منوف (قطر صغير هو البخارية)، فإذا لم يأت الكافورى إلى البلد نمشى إلى أن نصل إلى محطة قطر سمادون .. كنَّا نمشى

ونحمل الأسبتة فى أيدينا عشرة أولاد بعدها عشرة .. وجماعات فى أرتال تحمل الأسبتة والمقاطف وبعضنا كان يحمل قُففًا صغيرة .. وقليل من التلاميذ يقطع التذكرة من مكتب المحطة، والغالبية منهم يزوغون من الكمسارى حتى تصل بنا البخارية مدينة منوف، وكانت الحناطير تنتظرنا عندما نخرج من المحطة لتحملنا إلى سكنانا .. وكان كثيرٌ من التلاميذ يمشون حتى يصلوا إلى بيوتهم التى يسكنون فيها .. غير أننى وأخى وثلاثة آخرين كنا نأخذ حنطورًا ليوصّلنا واحدًا بعد الآخر، حيث سكنه وكنا ندفع لصاحبه ثلاثة قروش أو أربعة وكانت تذكرة القطار الصغير من سمادون حتى منوف بقرش ونصف والتى كانت تمر بمحطات رملة الإ نجب وكمشيش حتى نصل إلى المدينة .. وكان صوت حوافر الفرس والبغال التى تجر عربة الحنطور مع احتكاك عجلات العربة بالأرضُ صوت جرس فى شكل قلّه على جانبى العربة يحدث صوتًا ثلاثيًا مؤثرًا فى شوارع المدينة وعربة حنطور بعدها عربة ثم ثالثة ورابعة وخامسة رايحة جاية فى الشوارع تحدث جلبة ورنينًا وهوسًا .. هو كلُه صوت عالم الحناطير مع أصحابها ومناداتهم شيه .. شيه ياللا يافارس .. جلبه وجوًا ودوشه وهرجًا جميلاً وممتعًا للنشاط البشرى للمدينة مساء كل جمعة فى عودة تلاميذ صغار من كفورهم وبلادهم المنتشرة حول تلك المدينة الذاخرة بالحياة الصاخبة التى تصفّر جو القرية النائم الهالك القابع الكسول إذا ما قورن بزيطة هذه المدينة وحركتها القوية المزدهرة فى كل شارع وميدان .. ولّما كنت أنزل من الحنطور وأدخل بيت الجمّال الذى أسكن فيه لو طاوعت نفسى لعدت إلى محطة القطار ثانية لأكرّر العودة على حنطور آخر لأنتعش بهذه العودة الجميلة فى تلك المدينة التى جعلتنى أسبوعًا بعد أسبوع أنسى أحداث قريتى

التى مضت .. لكن أين أنا من هذه المدينة .. بلدة كبيرة واسعة وأنا فيها نقطة فى بحر .. أين أحداثى فيها وأنا تلميذ صغير فى مدرستها الثانوية ..

****

.. فى كل يوم الإثنين من كل أسبوع تتغير أفلام السينما التى تعرض فيلم عربى وفيلم أجنبى، ولّما كانت سمة تلاميذ بلدنا اللهو والونسه كانوا أسبق الأولاد فى الذهاب إلى دار العرض كل يوم إثنين، ولم أكن أستطيع حجز نفسى عن هذه المتعة معهم، إلاّ فى يوم من أيام السينما لم أقدر على الذهاب معهم وتركونى وحدى فى السكن .. كنت أشعر بقشعريرة فى جسدى والحرارة تقترب من رأسى ودوخة تهزُّ دماغى .. نمتُ قليلاً أندلش فى أحلام ثقيلة وكم كنت أتمنى أن أكون بجوار أمى حتى تأتينى بالشوربة والدجاجة وتناولنى كوب شاى .. رُحت فى غيبوبة نوم حتى سمعت طرقًا خفيفًا بالباب .. يسكت الطارق لحظات ثم يطرق .. كان الطّرْق رقيقًا كأنه تخبيط قلم فوق مكتب .. استمر الطرق كأن الطارق يصرُّ على شرع الباب .. قمت إليه وفتحت الباب فوجدتُ فتاة فى نهاية عِقدها الثالث .. أراها لأول مَّرة ابتسمت فى لطف وقالت :

- قلقتك ..
- إنت مين ..
- إنا جارتك فى الشقة اللّى قصادك .. عندك ملح ..
- أكيد ..

وفتحت ضلفة الباب عن آخرها وقلت وقد علت وجهى ابتسامة ..

- عايزة ملح .. خشىَّ خديه من المطبخ ..

وتقدمت خطوة حتى أنها سدَّت فوهة الباب ثم طفقت :

- معاك حد ..
- كلُّهم راحوا السينما ..
- وإنت ..
- عندى سخونية ..
- ياروحى ..

ووضعت أناملها فوق جبينى فاستراحت نفسى وقلت :

- خُشّى ..

دخلت وقفلت الباب وأشرت بيدى نحو الغرفة :

- خُشّى جوه ..
- مافيش حد ..
- لأ .. أنا لوحدى ماتخفيش ..
- أحسن جوزى يشوفنى ..
- هوَّ جوزك فين ..
- فى شغله ..

وقفت فى دلع وركنت بظهرها ظهر السرير ..

- اقعدى ..
- مكسوفه منَّك ..
- هوَّ جوزك بيشتغل إيه ..
- صول فى المركز ..
- طيب اقعدى نتكلّم ..
- أنا عارفاك من زمان وحسيت انكَّ لوحدك وعشان كده خبَّطت..

طوت ركبتها وقعدت .. تنهَّدت كأنها تحمل هموماً كثيرة وقالت فى حنان :

- مارحتش ليه معاهم ..
- إنت عارفه همَّ راحوا فين ..
- عارفه كل يوم اتنين تروحوا سينما شفتهم كلُّهم مـالَقتكش فـيهم وعلشان كده جيت ..
- أنا عَيَّان من الصبح ماقدرتش أطلع معاهم ..
- ياروحى عندك إيه ..
- شوية سخونية ..
- خدت حاجة .. أروح أجيب لك إسبرينة ..
- لأ أنا عايز حاجة أقوى من كده .. الحرارة زادت ..
- هاروح أجيب لك من الأجزخانة ..
- هاتعبك .. أنا فعلاً تعبان .. رشح ودرجة حرارة ..
- طب هاروح أجيب الملاية .. خمس دقايق هاكون هنا .. هاخـد الباب ورايا ماتقفلوش ..
- خدى فلوس ..
- معايا ..
- مايصحَّش ..
- خلاص هانتحاسب بعدين ..
- ربِّنا يخلّيك ..

.. غفلت ولَّما عادت اقتربت منه فى قعدتها عند رأسه كانت عيناه مغمضتين وجسده ممتداً وأمسكت بيده فبصرها قائلاً :

- جيتي ..
- قوم خد البرشام الميَّه أهه ..

.. وشدته فى رفق وبأصابعها الحنون ألقت حبتَّين فى فمه وتجـرع الكـوب بأكمله ثم ألقى بجسده ورأسه الثقيلين فوق فراشه وأمسكت بذراعـه وقبلَّـت كف يده .. قفل عينيه فشدَّت الغطاء عليه وراحت تتأمله بعينين عطوفتين ثم قامت ترتب غرفته وتنظفها بعدها دخلت معه فى الفراش واحتضنته بذراعها وهى تضع رأسها فوق كتفه .. صبَّ العرق جسده والتى راحـت تتحسـسه بأناملها وهى ترتعش .. كل ما فى كيانها يهتز .. كانت تريده مـرَّة واحـدة الآن وليس بعد .. ولكن ماذا تفعل إنه لا يشعر بشيء .. غلام بغو مـريض صغير وامرأة ؟ يملأ قلبها الشفقة نحوه لكن لا مكان لجسد يفور كأنه شـلال يندلع من أعلى إلى تحت لتصبَّ ماؤه فى بحر لا يعرف ولا يعى ويجهل ما قيمة عطش امرأة بعد .. إنه بحر صغير ونهر لم يعرف كيف تذهب مياهـه إلى أين وكيف .. وراحت تزرف الدموع من مقلتيها وتشهق .. كانت تمسك بجسده وتعتصره .. وكيف لغلام نائم وعصب فى جسده يقظ .. أين زوجـى من هذا الجسد .. آه يا إلهى لماذا لم يكن لزوجى هذا ؟ .. إن جسده لا حياة فيه مهما احتضنته وأصابعى هذه كم باتت طوال الليل تعتصره .. عشر سنين طويلة مثل كابوس مع رجل بدين غليظ القلب شره فى طعامه .. حيوان فى كل شيء عدا جسدى .. فى عمرى كله هو ذبيحة بلا رأس أو حمار ينهَّـق وسط حميره الأنثى ولا حمارة من الحمير تنطوى إليه .. إن رجـلاً مثـل زوجى لا يعنى شيء ..

*****

كانت تلك الليلة شتوية فبراير ١٩٦١ حيث يكون الدفء فى أصـابع امـرأة لذيذًا منعشًا فى كثير من الأحيان إذا أحسنت تدوير أصابعها فوق جسد غلام لا يعى أى معنى للمرأة بعد، أقبل الليل خاصة بعد أن صدحت المآذن بـأذان

العشاء، واقتربت ساعة عودة الأولاد من دار السينما، كانت تريد أن تخلع ثيابها وتبقى طول الليل تعبثُ بجسده خاصة أن زوجها مسافر إلى بلدته سروهيل ليدبِّرلها زوَّارة كل شهر من بيت أمه هناك .. إنها لا تستطيع أن تبقى وعليها أن تغادر .. سمعت دوشة عيال بالشارع فهرولت إلى الباب قبل أن يدخلوا عليها ولم يدرِ حسن بشيء أنه مازال يغُط فى نومه الثقيل الذى تلفه الحمى القاسية التى تزحف إلى رأسه ..

.. دخلت شقتها منهارة الجسد وفتحت النافذة فوجدت السماء تزدهر بنجومها الساطعة بنور القمر .. إنها لا تريد الآن أن تتأمل وما فى داخلها يشدُّها أن تقفل المشراع .. تشتاق إلى ظلمة لا يراها أحد فيها حتى القمر والسماء والنجوم .. إنها تشتهى أن تفترش الأرض الصلبة ومعها هذا الغلام المريض .. إن هذا العليل الصغير أيقظ فيها ما كان خافيًا .. لم تكن تعرف أن جسدها قوى فيه أسرار لا تنتهى شديد الرغبة والجنون مثل هذا اليوم .. حدقت جسدها فوق سريرها كأنها تلقى بنفسها فوق موج البحر وراحت تتشوق حتى آخر الليل ..

.. وفى الصباح راحت تقضى حاجات البيت وهى تبكى بكاءً مريرًا ورغم نحيبها الحزين على حظّها غُرست فى أعماقها ذكرى الوقت الجميل، الذى قضته مع حسن أمتع لحظات عمرها سعادة منذ أن أصبحت امرأة حتى اليوم .. احتضنت ليلة أمس فيما تخبئه جوانحها وارتدت ملابسها وخرجت إلى وجه المدينة تمشى فى شوارعها تائهة ..

.. إذا مَّر حنطور فى شارع أحدث ضجة .. احتكاك عجلاته ورنين أجراسه وحوافر الفرس الذى يعلن تمخطره بين الخيل .. إن كل صاحب حنطور يعرف خيل مركبته .. فإذا نادى ياللا يافارس تمايل الحصان وانطلق وإذا

قال شيه بقى .. مَّر من بين المركبات والمشاة فى رشاقة .. وإذا خلا الطريق أمامه ترك له اللجام قائلاً يابيوضة قزح الفرس بأربعة كالخيل التى تنطلق كالرهوان فى سباق نادى الملوك .. إن الذى أيقظ حسن من قسوة الحرارة فى رأسه صباح اليوم التالى حوافر خيل الحنطور التى تمخر الشارع الذى يسكن فيه خلف مبنى المحكمة القديمة التى تطل من الناحية الأمامية على طريق محطة القطار .. إن عربة يجُرها فرس وجرسين يدقان على جنبها ورجل يقودها يشوِّح بالكرباج يمنة ويسرة .. يافارس.. ياللا .. شيه .. يابيوضه .. يافندى .. هو صوت المدينة كل صباح الذى يجلجل ويهز كل شوارعها وميادينها فى حاراتها الضيقة وكل زنقة وعرقوب .. إن تلك العربات التى تنقل الناس من المحطة إلى داخل المدينة لهى كل الحياة فى تلك المدينة الصاخبة .. من وإلى قطارات تتجه شرقًا نحو شبين الكوم وطنطا وغربًا نحو أشمون والقناطر ثم العاصمة .. هى حركة الذهاب والعودة فى مدينة تهلّل بالرحيل وترحّب بالقدوم .. حتى الذين يأتونها بحيواناتهم من القرى ليبيعوها فى سوق السبت الذى يقع فى أول الطريق المتجه إلى سرس الليان .. و هؤلاء الذين تتقشف أيديهم من أحبال يمسكون بها ليل نهار ومن حش البرسيم كل ندى صباح ومن ضم القمح بعد منتصف الليل فى غيط هنا ومسقة هناك .. هؤلاء الذين يصلون إلى سوق المدينة كل سبت تصافحهم صدورها من تجارها وعطاريها ومقاهيها ومطاعمها .. هو يوم المولد وبورصة البيع والشراء وكل ما يملأ السوق من فلاحين وحيوانات وزروع وفواكه وأسماك حتى النساء المكافحات اللائى يملأن كان ميادينها وشوارعها حاملات القفف والمشنات بالفجل والجرجير والبقدونس والملوخية والبادنجان والخيار هؤلاء وفى صوت يعلو فوق المدينة بالحياة بغير نباح ولا

صراخ تزغرد المدينة بغير أهلها وتلاميذ يذهبون إلى مدارسهم وأطباء إلى مستشفياتهم وموظفون إلى مكاتبهم .. وإن أهل البلدة يحضنون كل من يأتيهم ويفرغون ما فى جيوبهم حتى عربات الكرشة والسجق وأكشاك الحلوى والسوبية والعرقسوس والتمرهندى .. وعربات الترمس والحمص واللب والفول السودانى ناهيك من محلات بصلة ودباب والقارح تجار الأقمشة الذين يبيعون بالبواكى والرُّزم ..

.. كان صبيحة هذا اليوم هو الخميس ولم يقدر حسن الذهاب إلى مدرسته ولَّما بلغت الساعة العاشرة قام ليغسل وجهه ويتوضأ .. إنه بحاجة لأن يصلّى حتى يشفيه الله .. الغرفتان مقفلتان العيال الأربعة يشخّرون ناموا بعد طلوع الشمس كالعادة الشقة تعبق بدخان السجائر والجوزة وعبدالعزيز الصغير الذى كان مجتهدًا ومواظبًا على المدرسة أصبح الآن واحدًا منهم .. يغُط فى نومه ويشخّر مثلهم وقلت ..

- هكذا تمدُّ بلدنا هذه المدينة بأولادٍ منحرفين وأخى واحد منهم .. إننى أشعر بأننى قريب منهم اليوم .. كابوس يخيِّم على رأسى.. وأين الجارة التى حنت علىَّ أمس .. كانت حلمًا دافئًا لذيذًا لكننى لم أكن أدرى بشيء .. أريد أن أغادر هذا البيت الكئيب وانقاذ نفسى من هؤلاء الخمسة الغارقين فى ملذاتهم .. أنا فى حاجة إلى الشارع يلهينى عن بلائى إننى قادر الآن لقد مصَّ العرق رأسى وأخلاها كثيرًا من ارتفاع الحرارة .. ارتديت حذائى ولبست جاكت البدلة فوق الجلباب وخرجت إلى شارع داير الناحية الموازى لشارع القيسارية بعيدًا عن الطريق المؤدى إلى المدرسة..

.. ولأول مَّرة أقعد على مقهى فى هذه المدينة، وكان أغلب المارة من العربجية الذين يحملون فوق مركباتهم أجولة القمح والذرة ذاهبين بها إلى المطحن وعربات أخرى من العربجية درجة أولى والتى تجر عرباتهم البغال والخيل الطاعن فى السن، ويحملون فوق عرباتهم الحديد القديم والخردة والروبابيكيا وأخرى تحمل عجول مذبوحة تدخل بها إلى محلات الجزارة التى تنتشر فى الشارع المؤدى إلى المستشفى ..

.. كانت رأسى تشحن كل ما يدور حولى فى صمت كما كنت صامتًا فى ليلة أمس مع زوجة صول المركز التى جاءتنى وطببتنى، ولم أكن أدرى بشيء سوى يد تتحرك بأصابعها وتدلّك شيئًا لذيذًا فى جسدى .. استغرقت ساعة كاملة أتمتع بمدينة حرة تروح وتجيء أمام المقهى وقمت أمشى في شوارعها حتى وصلت من أحد شوارعها الضيقة إلى شارع القيسارية .. كنتُ أشعر بدوخة تهزُّنى ويلفُّنى جوع شديد فأخذتنى قدماى الواهنة إلى مطعم "أبو النور" للفول .. كان الفول والطعمية والسلاطة لذيذًا فالتهمته فى شراهة .. انتهيت من طعامى وخرجت قاصدًا بيتى الذى فيه خمسة أولاد لا يعرفون فى حياتهم غير السينما والسهر وشُرب الشاى والسجاير والجوزة .. لقد بدأت أمتعض من هذا الجو الكئيب المحيط بى .. سوف أحكى لأبى لينقلنا إلى بيت آخر ليس فيه أقاربى هؤلاء .. ولكن ما فائدة أن ينقلنا ومعى أخى المنحرف مثل بقية هذه الشلة الخائبة .. يجب علىَّ أن أغادر وحدى ..

*****

.. لَّما كانت زوجة الصول تنزل من عزبة الحنطور عند زاوية الشارع المؤدى إلى بيتها كان حسن يراها فانشق قلبه لها وجرى نحوها مناديًا :

- يامنى .. يامنى ..

التفتت نحوه .. ولَّما وجدته هو الذى دوَّخها ليلة أمس اندفعت نحوه وأمسكت بكف يده :

- حبيبى روحى قلبى إيه جابك هنا دلوقتى .. مارحتش المدرسة ..
- قمت متأخر ولقيت نفسى تعبان ماقدرتش أروح ..
- طيب العيال فى البيت ..
- نايمين مع الملايكة ..
- طب تعال عندى جوزى مش جاى النهارده .. كلّمته فى التليفون من السنترال هاييجى بكره على الشغل ..
- بس أنا خايف ..
- خايف مِنّى ..
- عشان إنت أكبر مِنّى .. أنا عيِّل بالنسبة ليك ..
- دا إنت راجل أد الدنيا ياريت جوزى نصّك ..
- مش فاهم ..
- اسمع علشان مانضيعش وقت .. تعال ورايا اتأخَّر شوية .. هاتلاقى الباب مفتوح خُش على طول ..

.. كانت الغرفة رحبة عالية السقف وكان سريرها نظيفًا تعطَّرت شراشفه بعطر مثل عطر عتريس الذى يبيعه للنساء فى سويقة الخميس، ويبدو أن بائع العطر يتجول فى كل أسواق البلاد حولنا .. وفوق مائدة (طبلية) وضعت طعامًا ساخنًا يتصاعد منه البخار .. طبق لحمة محمَّرة وأرز وملوخية وشقق من الخبز الملدَّن .. عيش بتاع البلد .. كان الطعام قد أوقع فى نفسى حنوًّ مثل الذى كنت أشعر به نحو أمى عندما كانت تأتينى بالطعام وتقول :

- قوم كُل قبل بتوع الغيط ما ييجوا ..

كانت تريدنى أن ألتهم طبق اللحم .. لكننى التهمت نصفه .. ثم قامت فى رشاقة تحمل الأطباق الفارغة إلى المطبخ وشالت الطبلية ونظفت بقايا الطعام .. دقائق وعادت بكوبين شاى .. قائلة :

- اشرب الشاى على ماجى ..

.. كنت أجلس على كنبة بعد أن غسلت يدى وفمى وهذه التى تكبرنى بخمسة عشر عامًا ماذا تريد ولماذا طاوعتها ودخلت بيتها .. ألا يجب أن أذهب من هنا .. أشعر بالخوف وأن شيئًا فى داخلى يبكينى على ما أنا فيه من ضعف .. إن منى امرأة يانعة صاحبة جسد صارخ تحمل فى قلبها حنينًا نحوى .. ما الذى تريده منّى.. سوف أرى تُرى لماذا ذهبت وقفلت باب الغرفة عليها.. أحسَّت بارتعاش جسدها وسخونة أطرافها وراحت تبدّل فى ملابسها حتى ارتدت جلبابًا مزركشًا من الزفير لكن صدرها تركته عاريا وارتدت تحته قميصًا قصيرًا لا يصل إلى ركبتيها وأحبكت حول ردفيها شورتًا من الساتان كالذى ترتديه فتاة فى جمنزيوم الرياضة .. مازال الوقت شتاءً فلا هى تستطيع أن ترتدى له ملابس شفافة ولا هى تريد أن توقعه فى مفاتنها دفعة واحدة .. إنه ما زال صغيرًا وأظن أنه لم ير جسد امرأة بعد ..

.. جلست إلى جواره واحتست الشاى معه واطمأنت على صحته وهزَّ رأسه دلالة على أنه أصبح على ما يرام فقالت له :

- أنا تعبانه شوية هاجضع على السرير ..

- ربِّى خدى راحتك ..

.. نامت فى سريرها فى تحفُّظ فهى مازالت مَّدارية تحت ردائها ويكفى أنه قصادها تتأمله وتحاوره :

- إنت مسافر النهارده ..

- أيوه لسه بدرى .. لّما يقوموا من النوم .. على الساعة اتنين هانمشى سوا ..
- ماتخلّيك معايا .. لازم تسافر ..
- أمى تتجنّن .. تيجى جرى تدوّر علىّ فى منوف حارة حارة ..
- ليها حق .. إنت لسه صغيّر ودى أول مّرة تغيب عنها ..
- طيب هاقوم إسمحيلى ..
- مش لسة بدرى الساعة لسة إتناشر .. أنا عايزاك محتاجاك .. اتكلّم معايا ..
- أقول إيه ..
- عمرك ما شفت ست ..
- شفت ستات كتير فى الدره والغيط والزريبة ..
- وعملت معاهم إيه ..
- هوّ عَيل زيّى هايعمل إيه ..
- يعنى عمرك ما عملت ..
- أول مّرة فى حياتى أحس أنّى راجل إمبارح ..
- دريت بصوابعى دا إنت كنت مدلوش ولا دارى بحاجة ..
- كإنه حلم لكن راسى كانت تقيلة أوى ..
- ودلوقتى راسك اتهاودت بقيت كويس دلوقتى ..
- البركة فيك .. كنت حنينه علىّ أوى ..
- أنا من زمان بشوفك .. شوف إنت أمُور أوى وشّك حلو وجسمك أحلى ..
- بكلامك باحس إنى راجل ..

- تعال جنبى ..
- خايف ..
- شوف جسمى حلو إزَّاى ..
- وشدت أطراف جلبابها لأعلى فتعرَّت ساقاها فغرقت عيناى وغاصت فى فتنة لم أرها من قبل ولما تأكَّدت أنّنى مشدود إلى ساقيها قالت فى دلال :
- حلوة .. عاجباك ..
- إنت أجمل واحدة فى الدنيا عمرى ما شفت جمال بالشكل ده ..
- شوف بقى أد إيه أنا محرومه من يوم ماتجوزت المنيَّل ده ..
- مش مبسوطه منه ..
- إنت عارف لغاية دلوقتى وبعد عشر سنين معاه عمرى ماتبسطت ولا سعدت أصله مش .. وسكتت ..
- مش إيه ..
- مش راجل .. مالوش ..
- يانهار إسود ياحظك ..
- علشان كده من يوم ما سكنت قصادى وأنا متابعاك وعايزاك..
- بس منوف مليانه رجاله أكبر وأحسن منّى ..
- أنا بدوَّر على الأمان .. يعنى هامشى فى الشوارع وأقول ياراجل.. كنت دايمًا بدَّور على راجل بيتى .. راجل من بلد زى بلدى من قرية زيىّ .. وبعدين أنا مابحِّبش بتوع منوف رجالة منوف لنسوان منوف ..
- بس أنا صغَّير عليك لسه بغو ..

- البغو يتعلّم ..
- هيَّ الحاجة دى عايزة علاَم ..
- دى أكبر حاجة فى الدنيا عايزه علام وعايزه قبل العـلام راجـل يكون راجل ..

.. راجل الواحدة مننا تحبه .. الدنيا دى غريبة رجّاله كتير بتفكّر إن الحاجة دى كمّالة تتقضى والسلام .. إنت عارف جسمى ده عمرى مادّيه إلاّ لواحـد يعرف قيمته ..

- بس إنت اتجوزتى وخلاص .. مش حرام تدّى نفسك لحد تانى..
- وهوَّ مش حرام مايعرفش يحبّنى .. عشر سنين مش عارف يعمل حاجة يطلّقنى علشان ماعملش حاجة تزعّل ربّنا ..
- قوليله طلّقنى ..
- قلت له كتير .. ماعندوش دم ..
- بيقولّك إيه ..
- مش عيب نتطلّق الناس فى البلد تقول إيه وأمى وأبويا يقولوا إيه وأهلك ..
- وهاتتّك كده .. حاجة معلّقه موقوفه زى البيت الوقف ..
- هوَّ مش عارف يتصرّف وقفت الدنيا عنده وخلاص على كده ..
- طيب إنت عايزه منّى حاجة .. أقوم أمشى علشان أجهّز للسفر..
- تقوم وتسيبنى كده مش عاجباك .. أنا عايزاك ..
- ولو جوزك طب علينا فجأة ..
- على فكرة جوزى ندل أوى ..
- مش فاهم .. إزّاى ..

- من سنة جاب واحد صاحبه يشرب معاه حشيش ومن كتر الحشيش جوزى نام وساب صاحبه صاحى وعمل نفسه نايم .. وكررّها كذا مرّة .. وفى مرّة قال لى دا مرعى صاحبى زيّى بالضبط لو شفتك نايمه معاه مش هاقولك تلت التلاته كام ..
- يانهار إسود وقلت إيه ..
- صوّت فى وشه وتفّيت عليه وكنت عايزه أروح لأبويا واقولّه لكن اتكسفت أقول إيه .. مصيبة ومن يومها ..
- من يومها إيه ..
- باحتقره وباكرهه وساعات أقلع له الجزمة وابقى عايزه أضربه..
- وهوّ بيعمل إيه ..
- يسيبنى ويمشى .. بقى ندل رسمى ..
- يعنى لوجه دلوقتى وشافنى معاك ..
- ولا حاجة مش قلت لك ندل تعرف هاقولّه إيه ..
- إيه ..
- دا حسن ساكن قصادنا .. شوف طيب إزّاى .. لمّا زهقت جبته يقعد معايا شوية ..
- هايرد عليك يقولّك إيه ..
- أبدًا ولا حاجة .. هايسلّم عليك ويهز راسه ويروح يقعد أو ينام فى الأودة التانية أو يطلع برّه ويوسّع لنا ..
- هوّ عملها قبل كده ..
- دا اللّى هايحصل .. إنت أول واحد يدخل بيتى أنا اخترتك بمزاجى ..

- طيّب خلاص لّما ييجى أبقى آجى عادى أدّامه ..
- هوّ دا اللّى هايحصل .. عايزاك تبقى معايا على طول وعادى ..
- بس أنا صغّير على الكلام ده ..
- الصغّير يتعلم كفاية أتكلّم أنا مستريّحه ليك ..
- أنا خايف أبوظ ومانفعش فى المدرسة ..
- خلّى وقت للمدرسة ووقت ليّه .. أنا هانظمّك ..
- دا موضوع كبير أوى ..
- لكن إنت راجل ولازم تعرف كل حاجة هوّ اللّى يشوفنى يتوب ياحسن ..
- أنا كنت فاكر أنى لازم أكون صايم عن كل الكلام ده لحد ما تجوّز ..
- مافيش حد بيعمل كده لازم تجرّب علشان لما تتجوز تعرف تعيش..
- بس الدين ماقالش كده ..
- بعدين تتوب وانت ماسعيتش للحاجة دى أنا اللّى جيت لحد عندك.. هوّ أحسن حاجة تسيب نفسك طبيعى ماتحُطش حدود لحاجة ..
- اتغطىّ يامنى .. أنا تعبان ..

ضحكت ضحكة اهتز لها الفراش كمن يُرحّب بى .. ومدّت ذراعها نحوه وقالت فى ميوعة :

- تعال أريّحك ياحسن ..
- شوفِ يامنى .. أنا طول عمرى متعقّد من ستات البلد ..

- ستات البلد حاجة وأنا حاجة .. أنا ست نضيفة أوى وحرْكه ولىَّ مزاج عال أوى .. ستّات البلاد أغلبهم بشمار ومتبهدلين وريحتهم لّما تهب أجارك الله .. سيبك من البلد إنت فى منوف ..
- ما هو كل اللّى فى منوف من البلاد ..
- الست لما بتيجى هنا بتهتم بنفسها مالهاش شغلانه غير توضيب حالها ولا ليها زريبة ولا غيط ولا بهايم .. الستات فى البلاد زى الرجاله شغيّله ولّما بتشوف جوزها بتشوفه بنفس الهدوم اللّى كانت بيها وهى بتحلب الجاموسة .. سيبك من ستات البلد..
- هَو أنا طالع منين .. بس على فكرة فيه أنواع فيه سميرة وفيه الخواجاية وفيه الغلابة بتوع الترعة ..
- سميرة دى مين ..
- خياطة جميلة شوفتها وأنا سنّى سبع سنين وهىَّ قالعة ملط ..
- والخواجاية ..
- من اليونان مرات الخواجة بتاع المعمل كانت عايزة تغتصبنى وبرضه شفتها وهى عريانة وهربت منها وماكنتش أقدر أعمل ليها حاجة ..
- وبتوع الترعة ..
- دول حريم الفلاحين والشقيانين هَم أول ستات أشوفهم فى حياتى وكنت مفكّر أن مافيش بعد كده ستات ..
- كويّس إنت قلت تاريخك .. يعنى إنت لسّه صفحة بيضة ..
- أنا عمرى مانكشفت على ست ..

- ياروحى ياجميلة .. خلّى اللّى فات فى البلد حاجة وابدأ هنا من جديد .. أنا منى .. شوف لو فيه واحدة فى منوف هاتحبك زيّى روح لها ..
- والله كلامك حلو وانت أحلى من كلامك .. لكن أنا حيران وخايف..
- شوف لّما تيجى هاقول لجوزى عليك وتيجى عندنا عادى وبدل مايجيب مرعى صاحبه اللّى مابقبلوش تبقى إنت صاحبه الجديد..
- هوّ جوزك سنه كام ..
- أربعين سنة ..
- اسمه إيه ..
- طوجنى ..
- يعنى إيه طوجنى ..
- يعنى طاجن .. هوّ فعلاً طاجن ياحسن ..
- بيشتغل إيه فى المركز ..
- فى المباحث ..
- إذا كنت بخاف من العسكرى العادى أبقى ماخافش من صول فى المباحث ..
- إنت عارف طوجنى ده كل العيال الصايعة فى منوف بيخافوا منه خاصة تُجار الحشيش ..
- هوّ تخصُص حشيش ..
- الدولاب مليان حشيش .. تعرف لو كنت بتحب الكيف هاتشبع حشيش معاه ..

- يالهوى دانا هاضيع .. لسه فى أولى ثانوى وهادخل كلية الحريم معاك وكلية الكيف مع جوزك .. دا عالم كبير أوى عَلّيه ..
- بلاش كلية الكيف وخليّك فى كليتى ..
- طيب أنا هامشى علشان أسافر معاهم ..
- بص علىَّ أوى شوفنى حلوة إزّاى .. أهو دا كله ليك مستنّيك لَّما تيجى ..

انحنى فوقها حسن وقبّل ساقيها فأمسكته بكلتا ذراعيها واحتضنته بقوة ولم يفلت منها إلاَّ بجهد جهيد وجرى نحو الباب وفتحه وهرول إلى شقته وقد تهدَّجت أنفاسه..

****

.. كان تلاميذ شقتنا قد غادروا المدينة متخذين القطار سبيل عودتهم لكن أخى ظل ينتظرنى عند الباب وفى يده سبت العودة الفارغ من أى طعام ولكنه امتلأ بأغيرة الملابس الوسخة ليتم غسلها فى البلدة كالعادة فى نهاية كل أسبوع، ولَّما وجدنى أخى أخرج من شقة الجارة هزَّ رأسه وقال :

- الحبر حلبانى ..

ابتسمت وقلت له :

- حطّيت كل الهدوم مانسيتش حاجة ..

قال فى عصبية :

- هو إنت شاطر بس فى الأوامر .. كنت فين .. كنت بتعمل إيه جوه ..

وكان عبدالعزيز أخى يعرف صاحبة الشقة ودائم الحديث عنها معى خاصة لَّما كنا نستلقى فوق الفراش لننام .. كان دائمًا يقول كل ماشوفها تسألنى عَنك

.. بصراحة حلوة .. قولّى بقى كنت جوه بتعمل إيه .. ولم أرد عليه فقال ثانية ونحن سائران نحو محطة الأتوبيس :

- الحبر حلبانى ..
- تقصدْ إيه .. يعنى إنت دايمًا تقول الكلمة دى .. يعنى إيه ..
- هوَّ كده وبس ..

.. كُنت أجد متعة كبيرة فى تأمل البيوت والحقول والترع المشقوقة وسط الزراعات والأشجار والفلاحين والفلاحات وذلك فى الطريق المؤدى من منوف إلى شاطئ البحر الفرعونى بقرية تلوانة .. نركب أحد قوارب الصيادين لنعدّى البحر إلى البر الثانى، والذى يقع فيه غيطنا وبيتنا الذى بناه أبى لنا لنكون قرب الحال والمال والزرع والحصاد .. كنت أنا وأخى دون تلاميذ قريتنا نعود بالأتوبيس وليس القطار لقرب هذه المواصلة من بيتنا فى ملأة مريان الزراعية التى تقع عند أطراف شاطئ البحر الفرعونى (الأعمى) المواجهة لقريتى تلوانة وهيت ..

.. وكنت فى هذا اليوم خائفًا من أن أخى يبوح بشيء لأبى أو أمى بأننى كنت فى شقة الجاره فلم أكن آمن جانبه ولم أفهم معنى كلمته الحبر حلبانى .. هل يتوعدنى..

.. انطويت فى غرفة داخلية بها سرير وكنبة وشباك صغير يطل على حقول الجيران .. رُحت فى نوم قلق وتركتُ أمى تطبخ طعام الخميس فوق عيون الكانون وسط الدار، وكانت تساعدها الشغالة الجديدة التى جاءت إلى بيتنا الريفى وهى سعدية بنت منصور ابنة الصياد الفقير الذى يصيد السمك بشبكة صغيرة يرميها فى المياه وهو يقف مشمرًا سرواله حتى تصل المياه بالكاد عند ركبتيه.. يرمى بعدَّته مرَّات حتى تحصد شبكته كمية من السمك كفيلة

بمعاشه يعود بعدها إلى البلدة ليبيع السمك لصاحبة مطعم الفـول والطعميـة الذى تقليه بعد الطعمية لزبائنها .. كان صيادًا بسيطًا يعيش برزق سمكة يوم بعد يوم وكانت كل خلفته بنات خمسة كل واحدة منهن تعمل فى بيـت مـن بيوت القرية ..

.. شعرتُ بالعجز الدائم لعدم استيعابى ما يدور فى المدينة، ودخل الخـوف فى قلبى من المرأة التى تريدنى بكل ما فيها من مشاعر وأحاسيس مدفونـة من عشر سنوات منذ زواجها بصول المباحث .. ورُحت أفكّر فى كلمة أخى العابثة والتى لها معنى فى داخله .. الحبر حلبانى .. إنَّ لها معنى واحـدًا .. يعنى ماننتش نافع .. أكيد هو يقصد هذا .. ولكن كيف لا أنفع وهذه الأم تعوّل علىَّ آمالاً كبيرة ..

.. كان شيء كبير ومبهم أكبر من مداركى الصغيرة ومشاعرى تلك الناقصة التى تدخل أغوار الحياة الكبيرة، وكأننى شاب جاوز الثلاثين من عمره .. أن أدخل لامرأة بيتها وتخلع عنها ملابسها ليتعرى نصفها التحتانى وأتأملها كل هذا الوقت وتدعونى أن ألقاها وتحكى لى عن ندالة زوجها .. إنَّهـا تفـسح الطريق لى وتفتح الباب على مصراعيه وأن كل ما فـى بيتهـا أمـان لأن أصادقها وأعرفها وأعاشرها.. وهل من الطبيعى أن أقيم علاقات مع النـساء فى مثل هذا العمر .. وهل ذهبت إلى المدينة لأنال تلك الحرية التى تدعونى إليها امرأة .. لم أكن أعرف ماذا سيحدث يوم السبت عندما أعود إلى تلـك المدينة المتوحشة .. إننى لو بقيتُ فى قريتى لما رأيت مثل هذا الجسد وامرأة تدعونى فى بيت آمن يحرسه زوجها ببندقية ..

.. جاءتنى أمى تدعونى للطعام فى وسط الدار، نزعت نفسى من هواجـسها وقمت إلى النافذة لأشرعها ربما أجد الجارة التى تساعد زوجها فى النهـار

وتبيع الشاى والدخان والمعسّل فى الليل لكل زبائن الغيط .. وكانت هذه الجارة تقعد فى عشة مقامة تحت ظل شجرة نخل بعد العصر لتستريح وتستغل وقتها بتوضيب شعر حواجبها ووجنتيها بالملقاط ونتف شعر ساقيها بعجينة الحلاوة .. وكنت أجد متعة فى رؤية جسدها الأبيض المفتول لكن يتكرَّر فى داخلى عقد المقارنة بين جسد بائعة الشاى وجسد منى الرائع الذى أشعل فى داخلى حاجتى إلى المرأة، وأننى أصبحت على باب لقائها وموعدى معها يوم السبت فالأيام بيننا وزوجها الطيب صول المباحث الذى يخاف منه كل تجار الحشيش فى منوف سوف يحرسنى من أجل زوجته ..

.. فى سرية تامة وضعت أمى حلة تحت سريرى وقالت لى فى زهق :

- بطَّل لكاعه وتعال برَّه الأكل على الطبلية ..

وتبعتُها وأنا أقهقه :

- تحت أمرك إيه الجمال ده ..

- بطلّ بكش أقعد مع إخواتك وأبوك ..

.. كانت أمى فى يوم الخميس تطبخ الملوخية والأرز والباميه والبطاطس والمكرونة وكانت أطباق الجبن القديم والأبيض والمخلّل الليمون وقشر برتقال ولفت وخيار، هى أطباق ضرورية تزوّد بها الطبلية مهما كان هناك من طعام فاخر فلا يغنى البط والأوز والدجاج من تزويد الطبلية بكل أنواع الجبن والمخلل ناهيك عن مصفاة وضعت بجانب المائدة مملوءة بالجرجير والفجل والبقدونس مغسولة جيدًا من مياه الطرنبة .. وكل أنواع الخضار المطبوخ والطازج والمخلّل والجبن من إنتاج الحقل حتى الطيور بكل أنواعها بنى أبى لها غرفة سمَّيت زريبة الطيور تبذل أمى يوميًا جهدًا كبيراً ووقتًا للعناية بهذه الطيور وإطعامها فإذا دخلت تنثر الذرة والقمح وأعواد البرسيم

ظاطت الطيور مهللة بدخول أمى مثل ما كنا أطفالاً أو حتى كباراً نلتفت حول أمى ونزيط لأنها مصدر طعامنا والقلب الحنون الذى يكفينا زادًا تشبع به بطوننا .. هديل الحمام يعلو وصوصوة الأرانب وزكزكة البط والأوز وصياح الفراخ والديكة .. وكانت أهم أطباق زريبة الطيور هى تزويد المسقة ببقايا الخبز والبتاو وغمسها فى مياهها لتكون تسقية (فتة للطيور) يلتهمونها لقيمات طرية حتى يكون البط والأوز مزقوقًا (معلوفًا) مثل العجل عندما يُعلف ويصبح جاهزًا ليذبحه الجزار ولا تذبح أمى البط أو الأوز إلاَّ عندما يصبح وزنه أربعة كيلو جرام .. زريبة الطيور وقاعة الغموس وفرن الخبيز وكانون الطبيخ وتدبيلة الغيط أهم مصادر الحياة والطعام والتموين الذى يتمتع به كل بيت فى قريتى خاصة إذا كانت الدار تقع في الغيط أهم مصادر الحياة والطعام والتموين الذى يتمتع به كل بيت فى قريتى خاصة إذا كانت الدار تقع فى الغيط ولا ننسى زريبة البهائم التى تغذّى بيتنا باللبن صباح مساء وأمى التى تصنع الجبن والزبد من خض القربة التى تعلّقها بحبل نازل من السقف فى وسط الدار والتى تخُضها كل ثلاثة أيام واللبن الذى يزيد عن حاجة الدار تحمله الشغَّالة سعدية بنت منصور وتذهب لتبيعه فى معمل لبن الخواجة أو معمل لبن اسحق حسين اللذان يقعان فى بحرى البلد ..

.. وفى أثناء تناول الطعام كان عبدالعزيز يبتسم نحوى ويقول فى خفة :

- الحبر حلبانى ..

فيقول له أبى :

- يعنى إيه .. هوَّ دا اللّى اتعلمته فى المدرسة ..

- فيرد على أبى وهو يهز رأسه ويضحك ..

- دا اللّى شفته بعينيه أدّام عينى .. دا اللّى شفته فى منوف ..

- يعنى إيه يابنى ..
- اسأل حسن ..
- فيه إيه ياحسن ..
- أبدًا ماتاخدش على كلام عبدالعزيز ولو مابطّلش تخريف هاقولك عليه ..
- فيه إيه ياحسن ..
- عبدالعزيز مابيروحش المدرسة بيسهر طول الليل مع العيال فى الشقة وينام طول النهار ومافيش حاجة اسمها مدرسة ..

يصفع أبى عبدالعزيز بقوة على وجهه زاعقًا :

- يبقى يا كلب ماتروحش منوف تانى ..

.. يجرى عبدالعزيز إلى السطح وهو يلعن حسن ويقول :

- اضرب حسن كمان .. حسن بيدخل الشقة اللّى قصادنا ..
- شقة مين ياولد .. تعال انزل قولىّ ..
- أيوه هانزل .. حسن بيناغى الست اللّى قصادنا وبيخش عندها ويقعد بالساعات اسأله إنت بيعمل إيه جَوّه ..

.. نزلت كلمات عبدالعزيز عليهم جميعًا كحائط وقع على رءوسهم وحبس الكلام لسانهم وتسمَّرت عين الأم على وجه حسن فخجل ووضع عينه فى طبق الأرز وارتعشت المعلقة بين أصابعه فوقعت حباتها فى حجره وتلعثم وقام وهو يرمى حبات الأرز من حجره فوق الأرض وهرول إلى غرفته الداخلية وهرب تحت غطاء سريره وراح يبكى ..

.. بعد قليل دخلت أمه عليه وقفلت النافذة لبرودة الجو وانكفأت عليه توقظه :

- حسن .. حسن إنت نمت ..

انفحم حسن وتيقَّن من حنو أمه عليه مهما كان متهما ..

- حسن رُد عليَّ إنت زعلت .. ماتزعلش ماانت عارف أخوك خايب ..

أمسك بكف يدها وقبلَّه فضغطت على أصابعه وقالت وكأنها تهمس :

- صحيح إنت دخلت عند الست دى ..
- أنا دخلت يامَّه بس مافيش حاجة وحشه .. أنا عَيل يامَّه مش ممكن أعمل حاجة كده أو كده ..
- لأ ياحسن إنت راجل .. طب إنت دخلت ليه ..
- يامَّه دى ست بتحبنى وبتعطف عليَّ وبتحكيلى حكايتها من يوم ماتجوزت .. يامَّه دى ست تعتبر من بلد .. دى من السرو .. ست اتظلمت فى حياتها وجوزها تاعبها أوى ..
- خد خد ياحسن وهوَّ إنت لا رحت ولا جيت ولاَّ إنت قاضى هاتحل مشاكل الناس .. إنت هاتعمل ليها إيه .. وهىَّ ست زى دى عايزة إيه بالظبط وأنت مالك تحكيلك مشاكلها .. هىَّ سنها كام ..
- تلاتين سنة ..
- يالهوى يعنى إنت زى ابنها .. على العموم ياحسن ماتروحش عندها تانى .. إنت يابنى رايح منوف علشان تروح المدرسة ماتروحش عند النسوان ..
- يامَّه دى من السرو والنبى وصَّى على سابع جار ..

- للأسف إنت فاهم غلط .. هوَّ كلام الرسول بتفسَّره العيال علـــى مزاجها .. جرى إيه يابنى إنت هاتلبَّخ .. اصحى فوق .. جـــرا إيه..

- والله أنا طلعت لقيت أبويا بيحل مشاكل النسوان فى البلـــد .. أنـــا طالع زيُّه يامَّه ..

.. خبطت بيديها فوق صدرها وكان ناقص عليها تلطم وقالت صارخة :

- إنت هاتشلّنى .. لَّما تكبر تبقى اعمل زى أبوك .. وبعدين هـــىَّ المشكلة دى أكبر منك هاتوقعَّك فى حاجات إنت مـــش أدّهـــا .. البنت لما بتتجوّز حتى ولو كان سنها .. خمستاشر بتعرف كـــل حاجة فى الدنيا وبتبقى الواحدة بعد الجواز واعرة .. يعنى إنـــت يابنى محطوط فى حته خطر أوى والست دى مش هاتسيبك عند الزيارة وخلاص .. هاتبتدى معاك حكايات ودموع وبعدين تخلَّص عليك ..

- مش فاهم يامَّه إنت قلت كلام كتير أوى ..

- يابنى إنت بتحب أمَّك ..

- أيوه ..

- ماتروحش تانى عند الست دى ..

- مش إنت عايزانى أنفع فى المدرسة ..

- أيوه طبعًا ..

- طيِّب شوفى السيد ابن عمى وكل العيال فى الشقة مـــابيروحوش المدرسة ويقعدوا فى البيت يشربوا معسل وحشيش ..

- وعبدالعزيز معاهم ..

- عبدالعزيز باظ خلاص هَو وعيال مدرسة ظاظا كلُّهم ..
- إنت يابنى عايز تقول إيه .. أنـا عارفـه وأبـوك عـارف إن عبدالعزيز باظ خلاص لكن إنت مش هاسيبك تبقى زيُّه ..
- والله يامَّه أنا غبت يوم واحد من المدرسة .. كُنت عَيـان ولـولا الست دى جابت لى برشام ودوا شرب ماكنتش هاخف وعلـشان كده رُحت عندها ..
- كتَّر خيرها .. تروح عندها تانى لأ ..
- طيِّب أروح عند واحدة باستَّريح لها ولا أقعد فى البيت مع شـلة المعسل والحشيش ..
- لا كده ولا كده ..
- أمَّال أروح فين ..
- من المدرسة للبيت ومن البيت للمدرسة وبس هَو دا التلميذ الصح .. شوف ولاد تلوانة نافعين إزَّاى .. لا معسل ولا حـشيش ولا حريم عيال مؤدبة بصحيح ماحدَّش بياخد مصروف زيَّـك إنـت وأخوك .. شوف كده هوَّ فيه تلميذ فى منوف كلّها بياكـل عـسل نحل .. تقريبًا يابنى كُتر المصروف والعـسل والـشبع بيبَّـوظ العيال..
- طيب يامَّه سيبينى أعيش براحتى وانت مش هاتمشى ورايـا زى العسكرى.. سيبينى أعيش الدنيا زى دماغى ماتودَّينى إنت ليـك عندى أنجح فى المدرسة ..
- يعنى لَّما العَّيل فيكم بيكبر شوية يمشى بكيفه ..
- والله ما تخافى عليَّه ..

- والدليل على كده ..
- أنا كفيل نفسى .. هوَّ اللّى وارث أبوه يبقى وحش .. أنـــا وارث من أبويا إنّى أعرف كل الدنيا حواليه .. أبويا حكى لى حكايـــات ماعرفهاش الرجّالة الكبّار .. أبويا هوَّ اللّى كبَّر دماغى وخلاَّنـــى أسبق سنّى .. أبويا ربانى مش تربية طفولة ولا عيّل صغَّير كبَّر دماغى أوى وفتَّح عينى على دنيا أكبر منّى ..
- هاتخلّينى طول عمرى أمشى وراك وأحط إيدى على قلبى ..
- إنت خايفة علىَّ زيادة عن اللزوم علشان بتحبينى أوى ..
- هىَّ الدنيا كده معايا ..
- مش معنى أنا ماتروحى تقولى لعبدالعزيز مابتروحشى المدرســـة ليه وبتقعد قعدات الحشيش ليه .. إنت ليه مش خايفة على أخويـــا زيّى ..
- عبدالعزيز طول عمره بعيد عنى .. من صغره بعتُه لمرات أبوه وإنت الوحيد من دون إخواتك كل أملى ..
- طيّب خلاص سيبيها شوية وماتخافيش عليَّه .. إنت ليك عنـــدى أنفع فى المدرسة ..
- والباقى ..
- الباقى مش هاتقدرى تحكُمينى فيه ..

****

(٤)

.. انتقلت القرية من الاتحاد القومى إلى الاتحاد الاشتراكى ولم يكن يهُم الفلاح سوى زراعة أرضه وحصادها والمياه فى الترعة والكيماوى والجاموسة الحلاّبة.. وكان الهتيفة فى البلد كثيرين وجميعهم يذهبون إلى أى مكان فى أى مدينة مشحونين فى صندوق عربة نقل يقودهم رجال وشباب قبضوا ثمن الهتاف والتصفيق مقدمًا، وعندما يعود أمين الحزب إلى القرية هو وجماعته أعضاء الاتحاد الاشتراكى يسهرون فى قعدة حشيش ومعهم ضابط النقطة الملازم عبدالواحد فى دار عامر أفندى مدرس الإعدادى، وكان ابن العمدة يشاركهم فى معظم لياليهم وكذلك رئيس الجمعية الزراعية ورئيس المجلس القروى، وكان يساعد هذه الشلة وشلل أخرى كثيرة على هذه القعدات الحشيشية القرش الزيادة الذى يأتى من رجال الحزب فى القرية، وكانت البلدة تعجُّ بكثير من الشلل فى قبلى وبحرى ومعظم هذه القعدات يقودها المدرسون والمثقفون فى القرية، وكان أكبر المثقفين الذين يأتون بأخبار البلاد من المدن والمراكز التى يسافرون إليها للعمل ثم يعودون وكان كثير من الشباب الذين يدرسون حتى المرحلة الثانوية وشباب الفلاحين تكفيهم تلك الأخبار عما يحدث فى المدينة والعاصمة، وكانت هذه هى الثقافة التى يتشدَّق بها الناس والتى يتم تداولها فى قعدات الحشيش المنتشرة فى أرجاء البلدة المختلفة، وكان سيد ابن عمى هو الوحيد فى ملأة مريان الذى يقود قعدة الحشيش الوحيدة تحت فروع شجرة التوت الكبيرة ويأتيه عدد من شباب القرية من أغنى عائلاتها ليقضوا تلك الليالي والتى يتم ختمها بأكلة سمك مشوى من البحر الأعمى والتى يجلبها الأنفار من شباك الصيادين والفلاحين الذين يحترفون وضع الجبْى السلك عند رءوس غيطانهم، وكان الجو فى قريتى مغموساً بين عمل الفلاحين والفلاّحات ليل نهار من أجل زيادة إنتاج محاصيلهم ورجال الجمعية الذين يصرفون الكيماوى والتقاوى ومجلس قرية يرش عماله مدخل البلد بمياه الجردل المتنقّل بين الزراعية ومدخل القرية

حتى أمام باب المجلس، ومدرسة إعدادى يذهب إليها التلاميذ فى غرب البلد ومدرستين للابتدائى مازال فيها نفس المدرسين وسوق الخميس الذى يبتهج منه أهل البلد فى سوق الخضار واللحم والطيور والعطارة والبقالة وكل أنواع الفواكه وسوق الجزارة الذى يحتل مكانًا كبيرًا يقبع تحت مظلة سوداء من الصاج تحتها ما يزيد على عشرين جزَّارًا يعلّقون ذبائحهم فى جنازير حديدية تتدلى من سطح المظلة، وفى الناحية الأخرى سور حديدى فيه تجوب كل أنواع الحيوانات جاء بها أصحابها لبيعها من كل القرى والنجوع المحيطة وتجار الجاموس والبقر والجمال والحمير والغنم يملؤون سوق البهائم تجارة وبيعًا وشراءً وكان أشهر تجار الجاموس والبقر من قريتنا وتجار الحمير والمعيز من سمادون، وأكثر تجار الوقيع (يعنى البهائم العيَّانة أو المكروعة أو غير الحلابة اللّى هىَّ البهائم السَّكه) شهرة هم أولاد سيد شرارة .. وكنت أتوه عندما أذهب إلى السوق .. أتأمل الرجال والنساء من تجار وبائعين وسماسرة وزبائن وأحلى ما كان فى السوق ويشدُّ انتباهى هو كحل البنات العذارى فى عيونهن وطرحات سوداء تتدلى على أكتافهن وترابيع ألوان محبوكة فوق رءوسهن وحواجب مرسومة وكعوب سيقان لامعة من شدة دعك الحجر أثناء إستحمامهن فى الطشوت صبيحة يوم الخميس فالسويقة هى إحدى الأماكن العلنية والمشهورة فى إعلان الفتيات عن جمالهن وفتنتهن لتراهم عيون شباب ورجال البلدة .. سويقة الخميس هيصة أسبوعية للحياة فى قريتى والقرى المجاورة .. وكنت أنفر من كل القوى الغوغائية التى تنتشر فى الليل والنهار ولّما كنت أذهب إلى السوق وحدى أشعر أننى أعيش فى قاع الحياة المغموس بالواقعية التى يعيش الناس فى أعماقها لكى تزدهر حياتهم لكننى كنت دومًا أخاف من مراءات وبكش وأكاذيب أعضاء حزب الاتحاد القومى الذى انحل وحلَّ محله حزب الاتحاد الاشتراكى وجميعهم أسخم من بعض ومنهم أيضًا تجَّار بصل وحمير ومعيز وبطيخ وعنب .. وما يهم هؤلاء الذين احترفوا السياسة ضم العديد من الرجال والشباب إلى الحزب

وكان يقود رجال السياسة مدرس ابتدائى يرتدى عمامة يعمل فى كل شـــيء بعد خروجه من المدرسة .. يصلح بين الرجال والنساء ويتاجر فى العنـــب والبلح الأمهات وبيطلّع وز شركة وفاتح قهوة صغيرة فى العزبة يديرها الولد جلال المبطرخ الذى يأكل الفول فى صفحات كتب المطالعة فى الصف الثانى الابتدائى .. وإذا صافح امرأة دلّك كف يدها فى حنية وفركه فى رقـــة بـــين أصابعه وهو الذى يتعامل مع ثلاثة من رجال الصعيد الذين يأتون إلى القرية كل شهر مَّرة جالبين طُرَب الحشيش فى سيَّالتهم فيذهبون إلى البقال عـــواد جلاَّبية ليقيّلوا طول النهار فى دكانه ويتناولوا طعامهم وينـــاموا الليلـــة فـــى حانوته بعد سهرة حشيش ممتعة وفى الصباح يكون عَّواد قد أخذ نصيبه من الحشيش الذى يوزعّه على زبائنه فى سرية تامة ومن أهم زبائن عواد فـــى القرية عبدالمنعم المراكشى وسيد حجاج وعدد من أصـــابع اليـــد يـــشترون الحشيش من عواد فى سرية تامة .. وكان هذا الشيخ ناعم دهليزى لا يقاومه أحد فى نعوميته وكلامه الحلو، وكان وراء كل عمل بارز وغريب ومريـــب فى بحرى البلد ولا يستطيع أحد أن يمسك به فهو صـــديق ضـــابط النقطـــة وطبيب المستشفى وكل نظَّار المدارس ورئيس الجمعية الزراعية والصَّراف الذى يجبىَ ضرائب الأرض الزراعية وطبيب الوحدة البيطرية وأبو عـــوف طبَّال الميتين والمنجِّد وحلاقين الغبرة "الحمير" هو رجل جامع كل من يعيش فى القرية يقبع تحت سيطرته النفسية .. رجل سياسى ناعم كهين يرتدى ثيابًا زاهية مزهَّرة ووجه أبيض حليق باسم فوق قمة رأسه يحبك عمامته الحمراء التى يلفَّها بشال ناصع البياض .. هو رجل القريـــة الأول رغـــم أن النـــاس جميعًا يدركون مكره ودهاءه والآعيبـــه الـــسياسية بـــين النـــاس والإدارات الحكومية الكائنة فى البلدة . لسان عطر وكلام حلو ومجامل للفقير والغنى .. على كل لون وفى آخر كل نشاطاته الجارية فى أنحاء وشوارع بحرى وقبلى فهو إن طال امرأة عجبته رنَّها ولا يخشى إن كانت متزوجة أو أرملة، وكان يفضّل المطلقات ولا توجد امرأة فى بلدتى إلاَّ وتمتعت بكـــف يـــده النـــاعم

الدافيء عن طيب خاطر .. فإذا كان الرجل صاحب وجه جميل وطول فارع وابتسامة حلوة وكف يد تذوب فيه كفوف النساء وأدمغة من الرجال لا يطيب لها أن يشتكوا من زوجاتهم إلاَّ له لأنهم يعرفون مدى سحره على النساء فإذا قال لواحدة :

- ليه يا عواطف زعلانة من جوزك .. يابنتى الله يرضى عليك ماتحرميه من نهر العسل إذا كنت بتحبّى عمّك حسانين خلّى بالك من جوزك روّحى حمّيه على الأقل كل يوم خميس دوّقيه من جمالك روّقيه ..

.. لا يترك عمى حسانين امرأة زعلانة مع جوزها إلاَّ وقال لها هذه الكلمات أو مثلها حتى تخجل فإذا أمسك بكف يدها تصافحه بلغت المرأة ذروة سعادتها ورضخت لرجائه المغلَّف بالغزل الذى يجعلها تذوب تحت وطأة كف يده الطرى الدافئ ..

.. هو رجل فاعل يلف ويدور وفى كل أنحاء بلدتى تجده يروح ويعود .. بارع ناشط ودود ولهذا اختاره مأمور المركز وأمين الاتحاد القومى ثم أمين الاتحاد الإشتراكى أمين الحزب فى تلك القرية الكبيرة وإن جاء عشرون حزبًا أيا كانت أسماؤهم ومبادئهم فهو الرجل الأمين والرئيس والمناسب ليس للقرية وحدها بل وكل القرى والنجوع المحيطة .. إنه رجل فظيع .. وكان لابد لى من وظيفة إجتماعية مثل كل هؤلاء الرجال حولى، وكنت أغار من هذا الرجل الفظيع خاصة عندما كنت أراه يصافح امرأة .. إن قريتى كلُّها مندمجة فى قالب واحد وكل يعمل وفق ما آلت إليه الحياة من إمكانيات وأنا التائه الوحيد هنا حيث لا دور لى .. إننى لم أفلح فى الغيط ولم أفلح فى البلدة ولم أحب المدرسة وكرهت المدرسين .. واليوم أعود إلى قريتى كل أسبوع ثم أتركها ذاهبًا إلى مدينة منوف وتعاتبنى أمى بهذه القسوة لأننى دخلت عند الجارة .. أشيء ضعيف يسكن فى نفسى كما تسكُن الأمواج الهادئة تحت الباخرة .. حاولت منذ ولادتى أن آلف ما يجرى فى بلدتى ولم أنجح مَّرة

واحدة وكأننى ولدت غريبًا فى بيت أمى وغيط أبى ومدرسة صبحى ولو كنت أستطيع الرجوع إلى بطن أمى لفعلت وذلك ليأسى الآن من قسوة وقنوط شديدين نحو الحياة فى قريتى .. من هنا ياأمى سوف أذهب إلى جارتى التى وجدت فى جسدها المثير مدينة أخرى سوف تكون مدينتى ..

*****

.. علم أبى بالأمر ولم ينبُس بكلمة معى ويبدو أنه أجّل الحديث معى بعد أن سمع كل ما دار بينى وبين أمّى، وانتهت ليلة الخميس بلا كلام آخر فى هذا التطور الخطير لى، ولأول مرّة أبغض أخى لإفشاء أمرى، وكان صمت أبى يقلقنى وكلّما زعق قائلاً .. لا إله إلاّ الله .. ارتجف قلبى وزادت نبضاته وأنتظر أن يفاتحنى فى شيء لكنه يبدو أنه أجّل ذلك إلى وقت آخر، وأصّر أبى فى هذا اليوم أن يوصّلنا أنا وأخى إلى البر الثانى (بر تلوانة) لنركب من هناك أى أتوبيس ذاهب إلى منوف، ولحكمة الرجل أنه كان يشيح بناظريه عن وجهى، وهو الذى جفّف فى المركب الذى وجدناه بلا صاحب عند نزلة عامر، استغرق وقتًا فى ربط القارب بوتد على الشاطئ وطلعنا نسبقه أنا وعبدالعزيز ننتظر عند مستشفى البلدة، وقف أبى بجانبنا وتنحنح ثم قال بصوته الأخنف وكأنه يحذّر عبدالعزيز :

- بتروح منوف على الفاضى .. ليه مابتروحش المدرسة ..

.. سرسع أخى كعادته وقال وكأنه يصرخ :

- هوّ أنا لوحدى اللّى بايظ .. قول للسيد ابن أخوك مش هو معلّم القعدة ..

- ماليش دعوة بالسيد دا من زمان كده .. لكن المهم إنت مقروط ولسّه لا رحت ولا جيت ..

- كل عيال ظاظا كده ..

- يبقى بلاش تروح منوف أقعد معايا فى الغيط ..

- هاروح منوف زى حسن وزى مابتصرف عليه اصرف عليَّه ..
- حسن بيروح المدرسة ..
- وبيروح عند الست اللّى قصادنا ..
- بس ياقليل الأدب ما تـتكلّمش عـن أخـوك الكبيـر كـده .. دا موضوعى أنا معاه ..
- لأ إنت بتحبُّه ومهما عمل إنت بتدارى عليه ..
- إنت بجح زيادة عن اللزوم .. ياللا الأتوبيس جاى شورلّه ..

توقف الكافورى وشد أبى على كف يدى قائلاً :

- خد بالك من نفسك وخلّى بالك من المدرسة مالكش دعوة بالعيـال دى ..

سعدت باهتمامه بى وقلت :

- حاضر يابه .. ماتخافش عليَّه ..

.. كانت الكافورى خالية من الركاّب إلا القليل منهم لا يزيد على عشرة، وقد انتشروا فوق الكراسى فى مقدمة الأتوبيس، جلست على كرسى فى المنتصف وشديت السَّبت بجانبى وفى مؤخرة المركبة قعد عبدالعزيز وأشعل سيجارة، ذهب إليه الكمسارى ليقطع تذكرة فقال له :

- أخويا الكبير هناك .. جنب السَّبت خد منه ..

جلس الكمسارى بجانبه وقال له :

- هات سوجارة بقى ..

.. أعطاه سيجارة وأشعلها له بعد ذلك انصرف الكمـسارى عنـه وجـاءنى هامسًا تذكرتين يا أستاذ .. نقدته ثلاثة صاغ ثمن التـذكرتين وراح بعـدها يجلس على كرسى صغير يتحدث مع السائق .. كنت أجد متعة كبيـرة فـى

تأمل السكة وغيطانها وأشجارها وحيواناتها التى يمر بها الكافورى مارًا بمنازل تلوانة وأرضها الخضراء ثم عزبة سعد عطية وقبله بيت جدى الذى هجره جدى وجدتى ولم يبق فيه غير عديلة الغولة وعبد السلام ابن خالى الذى يراعى البيت ويزرع فى أرض جدى التى بقى منها القليل بعد الميراث .. كانت الدموع تسيل منّى بغزارة ولا تجف إلاَّ بعد مرورنا بالطريق المؤدى إلى فيشا النصارى ثم يأتى زمام قرية السروهيت بعدها طريق طويل يؤدى إلى قرية سرس الليان ويلتوى الكافورى يسارًا على طريق مستوًا سفلتُته مرَّة واحدة فى عام ١٩٥٨ .. ضوضاء المدينة وجلبتها تريحنى تذكرّنى بصفارة مكنّة الطحين .. إن حركة المدينة أقوى وأشد من أى صوت فى بلدى .. وإن بيت محمد الجمال الذى نقطنه خلف موقف الأتوبيس ولسنا فى حاجة لنركب الحنطور الذى يسعدنى أكثر من أى صوت يصدر عن مدينتى ..

.. خرج عبدالعزيز يشطح فى شوارع المدينة .. يقعد حول عربة الكوارع يتناول ما يشتهى منها خاصة طبق السلطة الحار ثم يغادر إلى عربة الحلويات ليتناول طبقًا منها خاصة حلاوة جوز الهند بعدها عربة السوبية والعرقسوس والتمرهندى.. يملأ بطنه من العربات المنتشرة للطعام والشراب فى ميدان القيسارية الذى يسبق ميدان المحطة .. إنه غلام شره يشتهى كل مأكولات الميدان وعندما ينهل منها ويشبع يجلس على قهوة قلاضة التى تتنصف دائرة الميدان ليشرب الشاى ويشعل سيجارة بعدها يذهب إلى بيت الجَّمال لينام حتى ينتصف الليل ..

.. لم أكن أرتاح الى مشى أخى وكان الحوار بينى وبينه معدومًا لعصبيته وطول لسانه .. اعتزلته لضيق خُلقه معى ولم يكن بينى وبينه أية علاقة

أخوية حميمة وكان لى طريق يختلف عن طريقه .. هو خمورجى بتاع كيف حياته من دماغه رغم صغر سنه هوَّ طالعه فى دماغه يموت فى ملازمة جيرانه من شباب القرية الذين يقطنون معنا .. وجميعهم أصحاب مزاج سجاير وجوزة وحشيش والسهر هو لذة ليلهم والنوم طيلة النهار هو مخزون سهرات لياليهم التى انتقلت إلى منوف بكل حرية واحتراف .. نسوا جميعًا أنهم جاءوا من قريتهم ليتعلموا فى مدارس تلك المدينة لكنهم ألفوا شيئًا واحدًا يجمعهم وهو اللهو والقعدات وشرب الجوزة والسجاير والكلام فى سيرة الناس بالقرية .. وكانت أسعد أوقاتى أن يخرجوا جميعًا من البيت ليمشوا ويتسكعوا فى الشوارع التى تبتلع شقاوتهم وثرثرتهم ويتركونى وحدى فى هدوء .. ولَّما اطمأننت أنهم لن يعودوا إلاَّ فى منتصف الليل كان لى حرية فى أن أفتح الباب أو النافذة لأرقب قدوم أو خروج منى .. أين هى لا حسّ ولا خبر .. جلست إلى مكتبى أذاكر فى كتبى وبعد مرور ساعة سمعت طرقًا ببابها واربت الباب لأجد زوجها وقد ارتدى بدلته البنية ويبدو أنه عائد من المركز الذى عادة يغادره إلى بيته بعد صلاة عشاء كل يوم .. فتحت له منى فقال لها :

- كنت نايمة .. أنا بخبَّط من بدرى ولا داريه ..

- أنا تعبانة من الصبح ..

.. دخل الصول ووقفت هى تنظر نحو بابى فى إمعان، وكأنها تبحث عن أحد وتريد أن تسمع أى صوت فى داخل الشقة .. لكنها قفلت وانقلبت لزوجها تحدِّث نفسها .. لا حس ولا خبر . همَّ جم ولاَّ ماجوش .. إنت فين ياحسن .. سمع زوجها همسها فقال وهو يخلع بدلته :

- إنت بتكلّمى نفسك ..

- أبدًا .. همَّ التلاميذ اللّى قصادنا ماجوش ..
- جم الشباك بتاعهم اللّى على الطرقة مفتوح ..
- طيب كويِّس ..
- إنت مهتمة بيهم ليه ..
- أبدًا هاهتم بيهم ليه دول زى إخواتى الصغيرِّين ياطوجنى ..
- ياستى ولاَّ كُبار .. خدى شيلى الحته دى ..
- هوَّ مافيش غير السخام ده اللّى بتجيبه ..
- السخام ده هوَّ اللّى مخلينّا ناكل زى الناس ونعيش ..
- بس ده مش حرام ..
- حرام إيه دا الكل بياخد منه .. رئيس المباحث أكبر تاجر حشيش فى البلد..
- إنت بتاخد على أد رتبتك ..
- ياستى بس ربِّنا يديمه .. قِلْ من الندر واوفى ..
- لكن إيه فايدة الحشيش معاك ماعملَّكش حاجة بتاعك زى ما هوَّ..
- الحاجة دى وراثة والحشيش مايعملش حاجة لحاجة مرخيَّه ومينّته..
- أمَّال اتجوزت ليه ..
- ماكنتش أعرف إنى هابقى نيله كده ..
- ياحظكِّ يامنى والحل .. يعنى لا خلفه ولا سُخام ياطوجنى ..
- معلهش اصبرى ..

- بقى لى عشر سنين صابره .. شوف حل ياطوجنى طلّقنى سيبنى أرجوك دانا ست برضه .. دفنت شبابى عشر سنين معاك مش كفاية ..
- طيّب سيبينى أنام دلوقتى ..
- نام إنت طول عمرك نايم .. نايم ولاّ صاحى لازمتك إيه ..
- وراحت تبكى بحرقه ولم يبال بدموعها ونام ..

*****

.. اجتازت الطرقة إلى بابه بعد أن نثرت عطر عتريس خلف اذنيها وبلّلت شفتيها بزبدة الكاكاو الحمراء .. وكأن قطة تخربش فى الباب ونطقت فى همس .. حسن.. حسن .. نهض من سريره وهرول إلى ندائها وفتح بابه فأقبلت عليه تحتضنه بكلتا يديها ولأول مرّة يحتضن ظهر امرأة ويأخذها وهو يحملها إلى غرفته .. سعدت بحضنه وبحملها وكانت أكثر سعادة لّما وضعها برقة فى فراشه وانكفأ عليها قائلاً :

- أحّبك ..
- والله قول كمان ..
- إنت جيتى منين ..
- جيت لك من عشر سنين فاتوا ..
- أنا خايف ..
- منّى ..
- خايف من اللى بعد كده ..
- حّبنى وخلاص ..
- طيب بس أنا مش هابقى تلميذ ..

- بالعكس هاتبقى تلميذ وحبيبى ..
- الخوف إن حبيبى يرفد التلميذ .. أنا كويس فى المدرسة وبـذاكر علشان أنجح ماعرفشى بعدين هايحصل إيه ..
- عمرك ما عشت مع واحدة ..
- أبدًا ..
- يسعدنى أكون أول واحدة ..
- مش حرام .. إنت متجوِّزة ..
- إنت لسه لا رحت ولا جيت يبقى حرام إيه اللّى بتتكلّم عليه ..
- يعنى الصغيرين ربّنا هايحاسبهم ..
- الصغيَّرين والكبار لو فكروا فى الحرام الدنيا كلها هاتقف ..
- بس لازم نخاف ربّنا ..
- إحنا لسه صغيَّرين نبقى نتوب بعد كده ..
- وجوزك ..
- مش عايز يطلَّقنى علشان كلام الناس ..
- هوَّ مش بيحبك وبيكفيك ..
- هوَّ فيه كونستبل فى الشرطة يعرف الحب .. دا واحد من الناس..
- مش فاهم ..
- كتير من الرجالة طربشات مايعرفوش يعنى إيه حب ولا يعرفـوا يتعاملوا مع ست ..
- اسمه إيه ..
- طوجنى ..
- علشان كده ..

- أقلع ياحسن ..
- لأ بلاش .. أنا خايف مش هاعرف أعمل إيه لّما تقلعى ..
- هاعرّفك ..
- العيال زمانها جاية ..
- طب تعال عندى ..
- وطوجنى ..
- رايح فى سابع نومة وحتى لو صاحى هايقولّى خدى راحتك أنا عايزك تتبسطى وهايروح ينام ..
- يانهار إسود ..
- الحشيش واكل دماغه من زمان ..
- بيشرب كتير ..
- وتاجر حشيش ..
- بس ده فى المباحث ..
- بتوع المباحث بيعملوا اللّى عايزينه فى البلد حشيش وتزوير وتلفيق وكلّه ..
- وسايبنهم ..
- المهم البلد تتمسك والأمن يسود حتى لو بالعنف ؟ ..
- لكن طوجنى بيتاجر علنى ..
- كل ما يجيب نصيبه يدّيه لبيوضه يوزّعه ..
- مين بيوضه ..
- أشهر عبيط فى منوف بيمشى يريّل ويشحت وبيوصل الحشيش بتاع الطوجنى وغيره ..

- بيبيع لأى حد ..
- لأ لناس مخصوص .. التجار وأصحاب الأراضى ..
- إنت عرَّفتينى حاجات كتير ..
- ولَّما تعرفنى أكتر من كده هاتعرف عشر سنين من عمرى من يوم ماجيت هنا مع الطوجنى ..
- بس دا كتير علىَّ مش عايز أعرف أكتر من كده ..
- ومش عايز تعرفنى ..
- لأ عايز ..
- طيِّب تعال عندى قوم ..
- أنا خايف أوى ..
- علشان تبقى راجل ماتخافش ..
- من خاف سلِم ..
- دا كلام أمَّك وأمى ..
- أمَّال نمشى بكلام مين ..
- امشى بدماغك .. خليِّك حر .. إنت راجل ياحسن ..
- مش فاهم تقصدى إيه ..
- ليلة ماكنت عَّيان عرفت انك جامد أوى ..
- ماتكسفنيش ..
- الراجل لا يتكسف ولا يخاف ..
- العيال زمانها جاية وهايشوفوك وعبدالعزيز هايفضحنى فى البلد..
- طيِّب قوم تعال ورايا ..
- هاتقولى إيه للطوجنى ..

- ماتحطوش فى دماغك هوَّ عمل نفسه طاجن من زمان ..
- علشان أبقى فى أمان ..
- برضه خايف عيب إنت بقيت راجل ..
- إنت بالنسبة لى جنة .. اتعلقت بيك ومش قادر أبعد عنك ..
- هوَّ دا المطلوب أمَّال لو عرفت أنى بموت فيك ..
- بكفاية علىَّ كده ..
- لأ مش كفاية .. عايزاك تموت فىَّ بحق وحقيق ..
- خلاص .. والعمل ..
- تعال ورايا ماتضيعش وقت ..

.. وهل تنبت الورود أوراقًا فى آخر الشتاء وهل بإمكان حلاَّبات اللبن أن تسقينى حليبًا ساخنًا من ضرع البقر .. إنى أرى الآن غرفة التبن قصر أبى فى الحب أيام زمان .. كنتُ صغيرًا عندما مشيت مئات الخطى أتتبع عرى امرأة الصياد، ألست أنا الذى باع حبَّات الجوافة لبنت السمرى ورفعتُ الزلعة فوق رأس عطيات وجنيت القطن مع حمادة .. ساقية تدوِّر المياه ترى الأرض فى تلك الليلة التى فيها كحَّلت عيون جميلة بائعة الشاى شاهدة على فجورى معها لَّما انطوت تحت جلبابى عندما صهدت نار الراكية فسَرت النار تكوى ضلوعى، حتى هذه أرملة صغيرة دعتنى ألبسها الحلق فى ودنها .. وحياة رتش المحدَّة الشرقية عندما كانت مرتعًا يقلب الناس فيها امرأة بعد أخرى، وتلك العشش فى وسط الحقول وعند تارة البحر فى نزلة عامر ..

.. كم امرأة من مريان ركعت فى جوف البوص حتى تلك المسقة الشرقية.. أليست هذه سعدية بائعة البلح التى رقدت لك طائعة مثل قطة برِّية وكانت أمها تقعد فى بحراية القاعة فى عز الضهرية .. إن امرأتى فى المدينة

متداعية ترنحت وجعلتنى أحملها إلى فراشها وزوجها الطوجنى يأكل مع البهائم فى طاجن البرسيم .. وفى كل طريق أجد أنثى ترقُد من أجلى .. إنهن جميعًا سيدات لهن كثير من المشاكل فهل تحلُّ مشاكلهن معى، أم أننى فاسق صغير ولأول مرَّة أحمل امرأة إلى الفراش.. كان الفجر فى المدينة قد بدأ يمتدح الرسول وقوموا إلى الصلاة يرحمكم الله .. وشعرت أننى قد خرجت من دائرة المرحومين لكن ليس كل الذين تغمدَّهم برحمته أتقياء، ولم يعرفوا التقوى مَّرة واحدة إنَّ كل الأشياء لا تأتى دفعة واحدة وفى وقت واحد ..

.. ناولتنى المنشفة وأنا أستحم كأننى فى بيتى وبعد دقائق قبل خروجى من حَّمام العافية همست فى شوق :

- هل تريدنى مَّرة أخرى ..
- ألا يكفى هذا يا منى مثل الذى طلع قلعة الكبش سبع مرات ..
- وهل تتركنى بعد كل هذا ..
- أريد أن أنام قليلاً قبل الذهاب إلى المدرسة ..
- تغيَّب اليوم عن المدرسة ..
- يكفى أن أكون نصف خايب .. عشق وغياب لا يجوز ..
- أكمل معى اليوم من أجلى ..
- ألا يجب أن نخجل قليلاً من الطوجنى ..
- أنا لم أخجل منه فكيف تخجل أنت ..
- إن عينى تبوح بأسرارى فلا أستطيع النظر إلى وجهه ..
- إن وجهه ليس كريمًا حتى تخشى النظر إليه ..
- ياسيدتى دعينى الآن أذهب إن رأسى فى حاجة إلى بعض النوم..
- لا تتناول غداءك مع العيال .. سوف أطبخ لك بطة ..

- أنت أفضل من كل بط ووز ترعة قريتى ..
- هل سعدت بى .. أكان جسدى طيّعًا لـضلوعك .. هـل أدفـأت مواضع جسدى ثورتك ..
- لقد كنت كالوحش الثائر ..
- ألم تعجبك نعومة فى شوقى .. هل سمعت من قبل كلمات فى رقة الياسمين كما باحت بها نفسى ..
- إن آذان المساجد تكسَّرت له نفسى هذا الصباح .. إن أقوى شيء آلمنى فى شقشقة نهار هذا اليوم هو الانكسار .. إننى أنكسر لأول مَّرة فى حياتى وهذا ما حصدته من المدينة حتى الآن .. هل هذا دستور هذه البلدة ..
- إنَّ الحمائم لن تغرِّد فوق رأسك .. كان ذلك لَّما كنت طفلاً .. أنت الآن تتخرج من البراءة وتطلع أول درجة إلى السطح ..
- إننى أتذكر قريتى الآن والشيء المحزن أنك ضيَّعتى منّى شكلها..
- أنت لا تستطيع أن ترسم البلاد كما هى فى خاطرك ..
- شطبت خمسة عشر عامًا هى تاريخ كان مع أبى وأمى ..
- وهذه هى الرجولة ..
- فى هذا الفجر صوت الآذان كان يبكينى من كل قلبى ..
- لا يوجد فى المدينة امرأة مثلى وأنت محظوظ دون كـل شـباب البلدة الصغار .. أنت فى هناء لا تدرى به ..
- لقد سقط المركز بكل عساكره وضباطه من هذا اليوم ..
- أتريده أن يسقط دائمًا ..

- هذا فى المعنى العام يا منى .. لكن ليس كل ما فى المركز من رجال قد سقطت زوجاتهم ..
- إن المركز مثل كل هيئة أو دار ولكن المشكلة فى الغرور الذى ينتاب العسكرى لأنه يمسك البندقية ..
- إن الزوجات يسقطن عندما تذهب الرجولة عن الرجال ..
- وإن الرجال ليس فى إمكانهم امتلاك الرجولة ولكن هذه القدرة توزَّعت على كل منهم بدرجات ..
- فى أى درجة كانت رجولة زوجك ..
- رجولة زوجى داخل مركز الشرطة ..
- وعندما يخرج إلى الشارع ..
- يخاف الناس منه ..
- وعندما يدخل بيتك ..
- أتف فى وشه وأضربه بالشبشب فيغادرنى خشية بهدلة كرامته لينام فى الغرفة الثانية ..
- لا تحتقرى رجلك بهذا الشكل المهين ..
- لكن هذا ما يحدث .. إننى الآن أنتقم منه وهو الذى لا يستطيع النظر إلى وجهى مهما حدث منى وغيابه عن بيتى مثل حضوره تحت سقفى ..
- أخاف عليك من الطريق ..
- إننى لا أخاف شيئاً ما دمت تسكن فى بيتى ..
- ضاع منِّى كل ما مضى والآن لا أملك إلاَّ أنت .. من أنت حتى ضاع منِّى عمرى ..

- سامحنى لفيض جنونى ..
- وهل أسامح من أغرقنى فى نهر الحب ..
- إذا لا تشعرنى بأنى أذنبت ..
- أنت مدينة حب ولكن ..
- لكن ماذا ..
- أنا صغير على مدينتك ..
- هل تعصى على مدينة تحرَّرك من عُقد القرية .. وهل ترفض أن تنقذنى من ذبح الطوجنى طيلة عقد مضى ..
- لم أكن أستطيع أن أرفض .. ولا أقدر على قمع جسد فاتن .. إننى يا منى ضعفت فى فراشك وخوفى الذى مضى أطلقته بين جناحيك .. أنت سيدة لا تقاوم ..
- وأنت ولد دون كل العيال التلاميذ فى مدينتى ..
- أليس لى أن أرحل إلى بيت آخر وأطوى صفحتك ..
- لا تستطيع .. دع كل العيال معك يرحلون إلى بيت آخر ..
- لا يستطيع أبى دفع ثلاثة جنيهات شهريًا إيجار شقة ..
- سوف أدفعها أنا ..
- زوجك عسكرى غلبان ..
- لا تخف إن الحشيش يدرّ لنا عشرين جنيهًا شهريًا على الأقل ..
- إننى بذلك أبيع نفسى ..
- وما العيب أنا أحُبك وأشتريك ..
- وهل هذا عُرف بين النساء ..
- النساء العاشقات لولد مثلك ..

- دعينى أذهب لأنام ..
- لولا أنَّك تلميذ تذهب إلى المدرسة لما تركتُك ..

******

.. فى أثناء العام الدراسى كانت الأخبار تتناقل بيننا بسرعة، أولاد البلد يحكون ما يجرى لهم فى الذهاب والعودة إلى منوف، وكان أكثر التلاميذ ثرثرة بأخبار المدينة هم تلاميذ المعهد الدينى وبعدهم تلاميذ مدرسة ظاظا الخاصة، ومعظم الحكايات المحببة إلى قلوب هؤلاء العيال الذين أصبحوا رجالاً عندما وطأت أقدامهم البلدة فلقد بلغ أغلبهم سن الخامسة عشرة .. كانت حكايات عن النساء والبنات فى السوق .. بائعة الفجل أم شحتة وبنتها وبائعة الجرائد الجميلة التى تقف بجرائدها مقابل محل بطرس البقَّال، وصاحبة المقهى الصغير خلف المدرسة الثانوى وهذه الفتاة التى تبيع تذاكر السينما، وكثيرات فى الشوارع والمحلات هن أقرب النساء إلى الطلبة والتلاميذ الصغار الذين يشترون من السوق وتمتلئ بهم الشوارع نهارًا وليلاً .. بعض التلاميذ افتتحوا تلك المدينة بلقاء نساء وبنات الشوارع وكان ثمن بعض الوقت قرش صاغ أو قرشين وبهذه الموجة الجارية من الونسة كان كثير من التلاميذ قد وجدوا متعة فى ممارسة الجنس مع هؤلاء النسوة اللائى يبعن الهوى وتعودوا على تلك العادة من أسبوع لآخر فى سكناهم، واعتبروا ذلك دربًا من دروب الحرية التى يجب أن ينالها مثلهم من العيال وأن تلك الممارسات لابد منها حتى يكون الشاب مؤهلاً للزواج، واعتبرت علاقتى مع منى نوعًا من السيادة والقوة التى خصَّتني بها الصدفة، وكنت دائمًا أردِّد كلمات أغنية "ساكن قصادى وبحبه" لنجاة الصغيرة، وشعرت أن وجود هذه المرأة التى دخلت حياتى بالقياس إلى صغر سنِّى درب قوي يغنى حياتى

بهجة مع أننى فى نفس الوقت كنت خائفًا لأنَّها امرأة متزوجة وكنت فى هلع شديد عندما كنت أفكّر أى وجه سيكون لى عندما ألتقى بزوجها، ولكننّى كنت أهدِّئ من خوفى أن زوجها يعطيها كل الحرية عن طيب خاطر حتى تمر حياتهما دون مشاكل ولا تفاتحه فى سيرة الطلاق، وكان من الخير أن أفزع للرجال الذين يتركون لزوجاتهم الحبل على الغارب .. وأفزع أيضًا من كونى تلميذًا صغيرًا عرف الدنيا بدرى على يد امرأة فاتنة عطشانة إلى تلك العلاقة التى يقدر عليها رجل يكبرها ولا أقدر عليها أنا .. اختلّت الموازين فى داخلى وكان علىَّ أن أفصلْ حتى لا أفشل فى دراستى.. إكوِّر نفسى فوق المكتب وأقفل باب غرفتى وأذاكر بكثير من التركيز حتى أعود لأمى وأبى ناجحًا .. إن منى لها وقتها فى بيتها ولى وقتى مع الكتب الدراسية فى غرفتى، وإذا ذهبت إليها أصبح مثل اللاعب الذى ينزل إلى ملعب الكرة ليتدرب على إصابة الهدف فى الشباك، فهل لى فى هذه اللهفة نحوها شيئًا يقوِّينى على مواجهة هذا العالم الصاخب حولى ..

.. أخذت من زوّادة أمى خبزًا وجبنًا وبيضًا وقطعة من الزبد ولففته فى ورقة جرايد كأنها لفة من قماش .. والذى أراحنى أن أخى وابن عمى الكبير سيد لم يسألانى عن شيء لأنهما لم يرانى أدخل أو أخرج من تلك الشقة .. إنهم جميعًا يغطُّون فى نومهم من طيلة سهر الليل رغم أننى عدت من المدرسة فى الثالثة ونمت قليلاً ثم قمت إلى مذاكرة دروسى والآن الساعة تدخل إلى السادسة ولم تأتنى منى .. إن زوجها يعود بعد العشاء وكان علىَّ أن أندمج فى المذاكرة ثانية دون التفكير فى شيء آخر .. فتحت النافذة التى تطل على الممشى التى يدخل منها سكان البيت إلى شققهم .. فجأة دخل رجل ضخم

يرتدى بزّته الصفراء مثل جميع رجال الشرطة فى قريتى أو فى هذه المدينة..

.. رجعتُ إلى الوراء حتى لا يرانى عُدتُ إلى مكتبى هلعًا لمواصلة الاستذكار ومَّر بعض الوقت ثم سمعت نقر أصابعها على بابى هرولت إليها وفتحت بابى دون جلبة حتى لا يدرى العيال بشيء .. وجدتها ولم تدعنى أتأملها أو أنبس بكلمة .. اندفعت نحوى تقبّلنى من وجهى بقوة ثم أمسكت بكف يدى وطبعت قبلاتها الرقيقة حتى طلَتْ أصابعى لون أحمر الشفاة وقالت فى ثقة :

- تعال ورايا .. الطوجنى جه ..

تلعثمت ولم تخرج كلمات فى فمى فبادرتنى :

- مافيش وقت للكلام تعال بسرعة مستنيينك ..

.. انقلبت وحملت لفة الزوادة وجدت بابها مواربًا فنقرتُ الباب بأصابعى وفجأة فتح لى الرجل الذى كان يقف خلف الباب :

- اتفضّل أهلاً وسهلاً ..

صافحته ودخلت فى آدب ولم أقل كلمة واحدة لكنه تابع :

- تعال هنا اتفضل .. وأشار إلى غرفة الكنب ونادى على زوجته..

- تعال سلمّى على حسن ..

.. صافحتنى بوجه بشوش وبقوة حتى أنهّا كادت تفرك أصابعى دلالة على ثقتها فى زوجها ويبدو أنها تقول .. لا تخف من شيء .. دا راجل طيب أوى

.. جلس مقابلتى وهو يهزُّ رأسه ثم طفق :

- أهلاً حسن .. منى كلّمتنى عنك ..

- وعنك وشكرت فيك أوى ..

- ما تصدّقهاش دى بكأّشه وراح يضحك بصوت عال ولّما انتهى قال :
- مدرستك جنب المركز على طول ..
- أنا بشوف العساكر من فوق السطح وهمّ بيضربوا المساجين..
- كل يوم واحنا فى وجع القلب ده ..
- أنا عمرى ما رحت بلدكم .. على فكرة ياعم طوجنى دى حاجة من البلد ..

وحملت إليه اللفة وقال ممتنّا وهو يأخذها ويذهب بها إلى زوجته :

- شوفى ياستى حسن جايب إيه ..
- دى حاجة بسيطة ياعم طوجنى ..

وعاد الرجل ثانية ليجلس مقابلتى فقلت له فى لطف :

- إنت من السرو ..
- أيوه .. عرفت أنّك شنشورى ..
- السرو كلهم طيبين ..
- مش أطيب من بلدكم .. أهلاً بيك ياحسن أنا عارف كتير من المدرسين عندكم ..
- زى مين ..
- فؤاد التلاوى وفؤاد زكى مدرسي التربية الرياضية ..
- كويّس ما انت بتاع مباحث ..
- والله دى شغلانه غبرة على طول بنشتغل فى البلاوى ..
- هوّ إنتو اللّى بتضربوا المقبوض عليهم فوق سطح المركز..
- أيوه ..

- المنظر ده كل يوم الصبح بيعقّد التلاميذ فى المدرسة ..
- علشان الناس تخاف فى كل حته ..
- والتلاميذ ..
- ماتاخدش فى بالك أوى ..
- أنا سمعت عن الحشيش والأفيون وتوزيعه ..
- طباخ السم بيدوقه .. لولا الحشيش ماكنّاش هـانعيش بالبحبحـه دى..
- ومين بيوزعه ليكم ..
- أشهر عيال الكيف فى المركز تحت أمر المباحث كل واحد بياخد حسنته ..
- حاميها حراميها ..
- شوف المرتب مابيعملش حاجة كل واحد له سين جنـب وظيفتـه بيمشّى الدنيا بيه .. همَّ عملوا المرتبات زى التراب وعلشان كده بنخلّص مع نفسنا ..
- إنت بتاخد ياعم طوجنى ..
- باخد أد أستيكة المدرسة .. كتير شوية هىَّ أستيكة ..
- وبتبيعه إزّاى ..
- زى الظباط ما بيبيعوا .. إنت عارف .. وسكت ..
- عارف إيه كملّ ياعم طوجنى ..
- أشهر الهبل فى منوف بيوزّع لى الحتة بتاعتى ..
- هَّو فيه هبِل فى منوف ..

- بيوضه أشهر عبيط عمرك ماشفته دا طول النهـار فـى شـارع القيسارية ..
- مش معنى الأهبل بيوزّع لك ..
- علشان أهبل .. خمسة صاغ بيفرح بيها ..
- وفيه ناس معروفين بياخدوا منك ..
- همَّ ثلاثة واحد من أبو علم وواحد من القارح والثالث مـن ولاد الحَّداد ..

عُمرك ما شربت ياحسن ..

- مرتين فى حياتى ..
- لَّما تحب فى أى وقت قولّى ..
- وأنت بتشرب مع مين ..
- مع واحد دمه تقيل مراتى مابتقبلوش .. وساعات أعمل تعميـره لوحدى ..
- وتجارة الكيف دى عملت معاك حاجة ..
- كنت طالع من البلد هالع بيت أمى مافيهوش بتاوه ..
- وبعدين ..
- قدِّمت في البوليس وخدونى فى المباحث علشان جسمى ضخم..
- وبعدين ..
- بالقرش الزيادة ده اشتريت نص فدان وبنيت دار بالمسلح ..
- وعملت إيه كمان ..
- طلَّعت بهايم شركه ..
- بقيت عمده صغيَّر ..

- لولا القرش ماكنتش اتجوزت مراتى ..
- على فكرة منى مراتى من عيله أحسن من عيلتى كتيـــر ولـــولا القرش بيجرى فى إيدى ماكنتش هاتجوزها ..
- إزَّاى ..
- كل ماروَّح أزور أبوها بكيس برتقان بكيس عنب بخرزانة بطاقية بكيس فول سودانى ولب .. الناس فى البلاد بتتجنّن على أى حاجة من المركز ..
- وبعدين ..
- أمَّها تطلب منى أى حاجة أجيبها من غير ماخد فلوس ..
- كل ده علشان توصل لطلب إيد بنتهم ..
- أيوه هوَّ ده اللّى كان فى دماغى ..
- يعنى قرش الحشيش هوَّ اللّى خلاك بنى آدم ..
- ماقدرشى أنكرها دى الحقيقة أنا أحسن من ناظر المدرسة ..
- تقصُد معاك قرش أكتر منه ..
- أيوه .. كل ماروَّح البلد يجيلى فلاح يخبَّط على بابى عايز بهيمه شِرك ..
- طبعًا دا بيسعدك ..
- ماكنتش أنا وأمى لاقيين بتاوه فى قعر المشنة بعد مابويا مات ..
- أبوك كان بيشتغل إيه ..
- ترَّش .. ترَّش ..
- يعنى إيه ..
- عنده حمارة بيأجَّرها للناس .. تَرِش يعنى حماره بتتأجر ..

- ولَّما مات ..
- ماتت الحمارة وتّرش بعد كده مادخلتش بيتنا ..
- وعلشان كده اتطوعت فى البوليس ..
- يعنى هاروح فين وأنا كنت لطخ فى المدرسة ..
- اتفتحت الدنيا ليك ودخلت المباحث ..
- شوف أنا عسكرى فى الأول والآخر ومش أفندى لكن جيوبى مليانة وطاجن أمى يا إمه لحمه أو بط والبتاو من ساعتها ماتخبزش فى دارنا ..
- لكن إنت عمرك ما فكرّت إن قرش الحشيش حرام ..
- هوَّ أقل الحرام الموجود فى البلد ..
- لأ لأ مش للدرجة دى إنت بتحلّل الحرام غير إنه بيغّيب الناس عن وعيها ..
- مافيش حد بيدقق أوى فى القرش الزيادة اللّى بيجيله ..

.. وسكت حسن لما وجد طوجنى فى سكة مقتنع بيها وأنه لا يستطيع إقناعه بشيء.. مازال صغيرًا وهو يحاور على قدر معلوماته المبدئية .. وزعق الرجل مناديًا :

- يامنى أنا بطنى وعوعت ..

ومن المطبخ ردَّت عليه :

- خلاص أنا بحمَّر البطه .. اصبر يا طاجن ..

ضحك حسن وقال مبتسمًا لعمه ..

- يابختك ياريتنى كنت طاجن على الأقل أبقى شبعان على طول..
- إنت ياحسن واد مسخرة وجريء ..

- طيب أنا زعلان منّك .. دانا واد غلبان جيت فى منـــوف تلميـــذ مايعرفش حاجة باين علىَّ من أول سنة هاعرف الدنيا كلها ..
- وإيه الغلط فى كده .. الحياة مدرسة وأرقع حياة موجودة فى البلد هىَّ حياة الشرطة لأنهم بيعرفوا ما بعد الأحداث وبيداروا علـــى حاجات وبيخبُّوا حاجات والناس كلّها ماتعرفشى اللّى جوه مبـــانى البوليس ..
- إحنا فى البلد بنخاف من العسكرى ..
- أهو الخوف ده هوَّ اللّى بيخلّينا نستغل الناس ونبطش بيهم..
- لكن أنا شايفك أدّامى راجل فَلَ زى أرنب السلام ..
- منى هىَّ السبب فى معرفتى بيك إنت ولد صغير بس باين عليـــك ناصح ومتربّى ..
- كلُّه من أصلك يابه طوجنى ..

.. وكانت منى تضع الأطباق على الطبلية التى اعتمرت فـــى دقـــائق مالـــذَّ وطاب وكانت تبتسم وتقهقه قائلة .. كده خلاص ياطوجنى عرفت أجيب لك ولد حبوب .. إعتبره بقى أخوك أو ابنك أنا عن نفسى باعتبره ابنى .. إيـــه رأيك ياطوجنى اعتبره ابنى أو أخويا ..

ويرد قائلاً وهو يقهقه :

- أنا هاعتبره صديقى الصغير ..

فيرد حسن :

- وأنت أخويا الكبير ومنى مراتك أختى ومرات أخويا ..

- وأنا موافق .. بس من النهارده ماتعملش فرق أنا موجود مش موجود تعال البيت .. وساعات بسافر البلد باقعد يوم واتنين تيجى من غير كلام تبات مع أختك ..

.. وقال حسن فى نفسه وهو مندهّش : يالهوى معقوله .. الراجل فتح لى على البحرى معقوله فيه راجل طيّب للدرجة دى .. هوَّ فاكرنى بنت زى مراته ولاَّ لسَّه عِّيل هوَّ طبعًا مش دارى بحاجة مايعرفشى أن مراته رقدت لى .. يانهار إسود علىَّ هو أنا رايح فين .. طوجنى فتح لى بيته على البحرى .. تعال يامَّه شوفى اللّى جارى هو الراجل ده ومراته كانوا فين همَّ ساكنين قصادى علشان أعرف الدنيا كلّها مرَّة واحدة وأنا لسة عيِّل سنى خمستاشر سنة ..

.. هل بعتُ وجودى الذى مضى وتمرُّدى على نساء الترعة بل وعلى كل ما فى قريتى ، أتشترينى امرأة جائعة إلى الرجال .. أهذه طمأنينة حياة وأن هذه هى الدنيا وهى عند كل الناس هكذا ولا أحد فى مدينتى تأتى له الدنيا ويتفلسف فيها يأخذها أو يبتعد عنها .. كان الرجل يخلى مكانه علنًا أمامى وامرأة تدعو له لأنه يفسح لها وقت السعادة والعشق وهل هناك أخ ترقد له أخته، إنها فائقة فى اندفاعها نحوى وفى لطفها وشوقها إلىَّ .. إلى كل هذا البيت الذى فتح لى غرفة نوم امرأته وعطرَّها لى واحتضننى فيها جسد صارخ فاتن لا يرحم .. كانت ليلة السبت هذه عرس غلام لعاشقة .. كانت منى قصيدة رائعة كلماتها ساق امرأة .. دخلت كل مظاهر الطبيعة عمرى الصغير غير القادر على استيعاب هذه الدنيا الكبيرة عليه.. إن جسد الأرض ارتعش طيلة هذه الليلة وحنطور المحطة المزركش المتمخطر تمايل يمنة ويسرة براكبيه وغنى صاحبه أغنيات الدخول إلى المدينة فى كل شارع

وحارة ومَهْمه الفرس وحفر بقدميه دوائر مرسومة مثل رسومات كعك العيد فوق طبلية مثل التى كنت أقعد حولها مع أمى لعمل بسكويت وكعك عيد الفطر .. إذا كان أبى لم يكن يعشق امرأة إلاَّ فوق الفرن فإننى أسعد بلقاء منى فوق أرضية الغرفة الصلبة وأنا أنفعل وأندمج مع كل صوت حنطور يمر من شارعى ويحدث تلك الجلبة المثيرة فى جسدى حتى أن جسدها عشق قدوم الحنطور وهى معى .. وكأن شيئًا خارج الغرفة يدفعنا أن نغلى مثل ماء الحلة الكبيرة يهدر فوق عيون الكانون موقد دارنا منذ ولادتى .. نزعت جلبابها الثقيل من نسيج الكستور، وكأنها تفصح عن جسد يقتلنى ولا يهمه زوابع شهر مارس العاتية .. جسد يتحدانى ولك الحق يا منى فالجسد الذى تملكيه لم يمنحه الخالق لامرأة أخرى فى المدينة .. أشتهيك كما يشتهى الأطفال العسل وأعشق ما فيك من جرأة نحو طفل يجهل واديك العطشان. تحررَّت من قريتى التى ركدت فى داخلى منذ ولادتى ولم أكن أدرى لها مخرجًا .. كنت أريد أن أثور فلم أستطع إلا عندما وجدتك فى أول مدينة تطأها قدماى .. عصر الجهل والغيط والزرائب وبر الترعة وموج البحر الأعمى والقوارب وصيادين الطبشة، كان هذا العالم يقيدّنى حتى أن صوت ماكينة الطحين عندما يعلو ويغمر ما فى صدرى من معان كنت أذهب إلى شيء لا أعى مداه .. فأنت المدى والمعانى وزرعى وحصادى وكيف أعى أو أتردَّدعن عشق امرأة منحت نفسها لى وجسدها وحده يساوى نصف أجساد النساء الجميلات فى مدينتى.. إننى أكتب حبًا جديدًا نحو امرأة خط لها قلمى الصغير لكاتب يحبو بكلمات يانعة تهتف عمَّا انساق إليه من جبال فى العشق تسوقها امرأة مثلك ..

.. لا حشيش ولا خمر يسكرنى كما يسكرنى جسدك .. إن صوت وأجـراس حناطير المحطة كانت تغمرنى نحو معان النساء فى داخلى وعندما عرفتـك الليلة وأبحرت بحورًا فى جسدك أدركت أن صوت الحناطير لا يعدو إلا أن يكون بابًا صغيرًا فى قصرك .. أنا الليلة أعلن دولة الاعتراف بأنك امرأة كل النساء فى قراى وكفورى ونجوعى ومليكة العاشقات فـوق كـل مجـاديف قوارب صيد السمك فى بحرنا الأعمى الذى ما إن ولـدت وجدتـه دنيـاى وطريقى. فالليلة لا بحر ولا حقل ولا حياة ولا سمك ولا قمح ولا بقرة تـدر اللبن إلاَّ ونبعت خيراتها من منى إمرأة منوف وبنت السرو التى جاءتنى بلا موعد ولا استئذان ولا ثرثرة .. جاءتنى كالقدر الذى انشق منه وجـودى .. تلُغى كل طواقى الفلاحين وعمائم المشايخ وطرابيش الأفندية وقعدات العمـد فى ترسينة ديارهم .. يلغى كل ما هو مألوف حتى أهازيج الهبل فى شوارع قريتى .. تلغى الأناشيد الفارغة والهتافات المارقة والطرنبيدة فى كل مدارس التلاميذ إذا هتفت منى وكل منى فى مدينة أو قرية بالحب وكان لها صفة من صفات منى ابنة السرو ..

*****

.. سجنت نفسى فى شارع المحكمة منه أذهب إلى مدرستى فى آخر شـارع القيسارية بجوار مركز الشرطة وأمام باب المدرسة إدارة شركة الـدفراوى للمعسل.. وفوق سطح المركز كنت أرى كل صباح الصول طوجنى يضرب ويلعن كل المقبوض عليهم من لصوص ومارقين وتجار حشيش فـى الليلـة الفائتة.. حتى أن مدرسى الفصل ترتعش أجسادهم، ويقشعر شـعر رأسـهم عندما يرون الصول الشديد البأس ضخم الجثة يضرب ويشتم المجرمين فوق سطح أغبر .. ولم يكن أحد يعرف من تلاميذ ومدرسـين أن هـذا الرجـل

المرعب أسد برّه مركوب جوّه.. أشعر أننى سيد هذه المدرسة وهذا المركز أمشى فى شارع القيسارية أدكّ الأرض بقدمى مزهوًا منفوش الريش مما أنا فيه من عز وسيطرة، فى الرايحة والجاية رغم شعورى الداخلى بأننى مسجون بين بيت منى ومدرستى التى كنت فيها متفوقًا بأقل جهد فى مذاكرة دروسى، كنت أشعر بأننى سيّد كل هؤلاء الخائفين لأن الذى يخوّف الجميع يخافنى ويتمنى رضاى حتى أشبع زوجته ولا تطلب منه الطلاق وحتى لا يفضح أمره بين أهل القرية .. إن الفضيحة فى كلام الناس وليس فى خضوع زوجته لشاب يسقيها من الغرام وتبعد عنه ولا تدوشه بالطلاق والهجران .. .. كنت بعيدًا عن أخى وأولاد عمى الذين يكونون أكبر شلة (غرزة) حشيش فى المدينة، تركت أخى فى حاله وتركنى فى حالى إلا أنه عندما كان يقعد معى قليلاً يقول :

- الحبر حلوانى .. أو الحبر حلبانى ..
- يعنى إيه .. إنت كل يوم تقول كلمتين مش فاهم حاجة من كلامك..
- هوّ كده وخلاص ..
- طيّب فسّر أنا مش مستريّح لكلامك ..
- مش مهم .. إنت بتفكّر انكَ أحسن منى .. لكن ..
- لكن إيه ..
- إذا كنت أنا بتاع جوزة إنت بتاع ستّات ..
- إنت قلت لأبويا وأمى كل حاجة ..
- وإنت قلتلهم إنّى بنام طول النهار وباسهر طول الليل مع ولاد عمى ومابروحش المدرسة ..

- شوف اعمل اللّى إنت عايزه بس روح المدرسة وانجح آخر السنة .. علشان على الأقل نفرَّح أبونا وأمنا ..
- شوف .. مالكش دعوة بيَّه وأنا عارف آخرتها ..
- آخرتها إيه ..
- فى الآخر هابقى تاجر بهايم فى سوق الخميس ..
- علشان كده بتروح لولاد شرارة تُّجار الوقيع .. إنت حر ياريت تاخدها من قاصرها ..
- شوف منوف بالنسبة لى تلات سنين أعيش فيها مع ولاد عمى نهيَّص وندخن ونشرب حشيش وندخل سينما وناكل فول أبو النور ونتفسَّح فى شارع القيسارية ونركب الحناطير .. إلاَّ وحلويات أبو قمر وكوارع أبو حسين ..
- وبعدين ..
- أكون شبعت من بعثة منوف أروَّح بقى أشترى بهايم أتاجر فيها كل خميس وأبيع برسيم ..
- ياه أد كده إنت مريَّح نفسك ..
- الحبر حلبانى ..
- دلوقتى حلبانى ..
- يمكن تكون فهمتنى وماتدوشنيش بعد كده .. إذا قلت عنى حاجة فى البلد هاقول عليك .. سكت هاسكت واحد بواحده ياحسن .. أد إيه إنت عنيد وبتحط راسك براسى ..
- سيبك إنت من أنك كبير .. إيه يعنى سنتين أكبر منى .. سيب وأنا أسيب..

- أسيب إيه ..
- اللّى ساكن قصادى ..
- إنت قليل الأدب ..
- وأنت قليل الأدب ..
- لسانك طويل ياسرسوع ..
- الحبر حلواصى ..
- يعنى إيه حلواصى ..
- زى ماانت بتروح لواحدة ست إحنا الغرزة اللّى مش عاجبك بتجيلنا واحدة لغاية عندنا ..
- يانهار إسود مين دى .. والسيد معاكم ..
- السيد اللّى بيجيبها ..
- منين وصنعتها إيه ..
- بنت بتاع الفجل اللى بتقعد فى ميدان الملاح ..
- بكام ..
- كل واحد بيدّيها قرش ..
- بس إنت ياعقلة الصباع مافيكش حاجة ..
- ليه راجل أحسن منّك ..
- كده كلّه طالعه فى دماغه .. الله يرحم جّدى الأرض بتاعتنا وبتاع عمك محمود ودردير بالحلال والكفاح واحنا ..
- واحنا إيه .. خلّينا نهيص كل الناس بتعيش حياتها ..

- همَّ كانوا ناس طيبين وعمرهم لا زنوا ولا سـرقوا ولا نـصبوا بالطهار ربِّنا بيبارك فيها وعلشان كده حاشوا أرض تـسد عـين الشمس ..
- همَّ ليه جابونا منوف هوَّ فيه حد يسيب ولاده فى مدينة كبيرة زى دى ..
- جابونا علشان نتعلّم وفيه عيال كويسة أوى لا نسوان ولا حشيش شوف تلاميذ تلوانة وقلتى ماشيين إزَّاى ..
- إحنا مالنا بيهم .. بلدنا شبعانة والعيال الشبعانة بتدوَّر على هضم الأكل السمين اللّى بياكلوه .. كل واحد شـبعان عـايز يحـبس بسيجارة بجوزة بحشيش ..
- هىَّ المصيبة دلوقتى فى الحريم ..
- ولا مصيبة ولا حاجة وليه ماتكونش الدنيا بتعلّمنا حاجات كتير.. إنت بتعقَّد الدنيا ليه يا حسن ..
- أول مرَّة تتفاهم معايا فى الكلام ..
- إدِّيها فى اللاوندى ياحسن ..
- إنت بقيت صايع أوى ..
- الحبر حلواصى ..
- حلواصى دى بلد فى مركز آشمون ..
- حلواصى دى حاجة تانية عندى ..
- إنت بتجيب الكلام ده إزَّاى ..
- البركة فى غرزة الحشيش وسيِّد ابن عمى ..
- آه وعلشان كده أنا بخاف منه بابعد عنه لأنه معلّم كبير ..

- دا أول واحد فى ملأة مريان عمل غرزة جوزة المعسل وبعدها جوزة الحشيش ..
- بقى له كام سنة فى دبلوم التجارة ..
- دى تالت سنة ..
- يعنى بقى له خمس سنين فى ثانوى ..
- لأ بقى له سبع سنين .. السنة بسنتين على طول ..
- وهوَّ مبسوط بكده ..
- أوى .. دايمًا يقول أنا أقدم واحد متعلّم فى ولاد على ..
- الله يرحمك ياجد ..
- الحبر حكرونى ..

*****

.. إن الذى جعل النهار رماديًا فى أيام مارس خلافًا لمناخ هذا الشهر قادر على أن يجعل من قلبه نورًا يشق سطح الغبار الذى خيَّم فوق رءوس العيال والرجال والنساء، من المستحيل أن يغيّر المغيَّبون شيئًا من أنفسهم فكيف يغيرون حال غيرهم .. وكان الذين يرقصون على سلالم من بوص أن يقعوا لأنهم اختاروا أن يهتفوا ويستأجروا بملاليم تشترى الفول بدون رغيف، ويظل الناس فقراء إلى القمح منذ أن كان عمرى ست سنوات وحتى اليوم عمرى خمسة عشر عامًا والقمح ينقص والحناجر تهتف حتى شحَّرت حناجرهم .. لا ناس فى الدنيا يهتفون لمن يريد أن يكون بطلاً على شاطئ البحر المتوسط من جيوب أهله الغلابة ولا يعرف كيف يسبح وهل ينزل البحر يعوم من كان بلا لباس أليس من العيب أن تكون عريانا فى بحر

غويط وأهلك لا يعرفون كيف يزرعون ويأكلون .. ألا تستحى من العرى ياعنجهى ..

.. كان للطعام نصف ساعة تقضيها بعد المغرب وينصرف الطوجنى إلى غرفة ينام فيها فأذهب لأحضر كتب وكراسات المدرسة لتذاكر لى منى وفوق فراشها الحريرى الدروس والواجبات قدر ما حصّلته من علم حصّلته حتى أدت امتحان الثانوية العامة من نفس المدينة منوف الثانوية للبنات ..

.. كنت أستجمع ذاكرتى وأؤدى تحصيلى وحدى مع بعض النصائح منها والوعى الذى يجب مراعاته عند الحفظ أو كتابة العناوين .. تذاكر معى كأنها ستؤدى الامتحان مثلى، وكان حرصها شديدًا فى أن أجتهد وأعى وأجد .. ومن المثير أن تكون مدرّستى أو معاونتى امرأة عارية إلاَّ من قميص وقطعة من حرير وترقد فوق سرير كفرسة أجمل حنطور ينطلق فى شوارع المدينة..

.. منى محطة قطار وأتوبيس هى عربة الكافورى التى أركبها من على تارة البحر الأعمى لأصل بها إلى منوف .. هى البخارية التى كنت أصعد فيها من سمادون .. هى الفرسة الجميلة التى تمرح فى عزبة حسن محاريق .. خلقت لأن أكون عابدًا للجمال ولا أبدع إلاَّ فى وجود امرأة جميلة ولا أجيد تحصيل دروسى إلا عندما أرى الكحل فى عيون منى وأدفئ بردى فى رموش تلامس أهدابُها، من كان يرتع فى عيون البقر يرتع فى عيون امرأة أوسع من عيون كل البقر فى حقول البرسيم، وشعرها المنثور على كتفيها لولاه تعدو قبلاتى الصغيرة جوفاء بلا معنى وهل يعنى هذا فجور.. فجور صبى صغير لا يقدر على فتنة جمالها فوق السرير، ليس اللوم على أمى وأبى ومن تركونى بلا رشيد، ولكن اللوم على جمال امرأة حُرّة جهرت

بمظلمتها فى بيتها وحرَّرته من القيود، إن ما فى داخلى رجالاً ينشقون ويختلفون حولك ويحسدوننى عليك ولولا الجدران لقتلونى ليغنموا بك .. إن النساء إذا رأتك معى لجنَّ جنونهن وصوَّتن حتى أن كلاب المدينة تهرب من نباحهن وتستغيث .. لم أكن أعرف أبدًا وأنا أغادر قريتى اننى جئت لأذاكر الجمال فى ألواح جسدك قبل أن أقرأ كلمات الكتب والدروس .. إننى أول تلميذ فى قريتى أحصل على دبلوم فى الحب قبل أن أنتهى من امتحان الصف الأول الثانوى فى مدرسة منوف .. فكيف لمئات التلاميذ معى لم يحصلوا مثلى على معنى أو حتى كلمة للحب أليس ذلك ما حبانى به خالقى دون الآخرين .. ياحسن إن لك قلبًا وجسدًا صُنع من طين آخر فى ندرة من فلتات الخالق العظيم الذى إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون .. فأنا الذى عرف الجمال وسره وبدأته من على حرف ترعة وكنت وقتها طفلا بريئًا ولَّما تدرجت فى الحب ذهبت إلى كفر قريتى مع أبى لأعشق سميرة والعروس بعد ذلك بدأت الحب ولولاه ماكنت مؤهلاً فى اجتياز طموحات امرأة منوف .. أنا لا يسبقنى فى الحب أحد لأننى رضعت قبل أن أحبو لبن حمير .. والحمير والخيل فى الحب مثلى غير كل الرجال الذين رضعوا من أمهاتهم .. أنا أمى امرأة ولى فى كل حمارة وفرسة أم، أنا ابن ثلاث واحدة امرأة والثانية حمارة والثالثة فرسة والذى جعلنى أحب منى لأنها مثل فرسة وهى التى اختارتنى من بين رجال المدينة لأننى مثل الحنطور تجره فرسة .. .. ولما عدت إلى غرفتى وجدت أخى نائمًا على غير العادة فنحن فى الهزيع الأخير من الليل وهو وجماعته ينامون بعد صلاة الفجر .. ولَّما تمددت بجانبه وأخذت الغطاء فوقى تقلَّب فى فراشه وقال كأنه ولى أمرى :

- أنا أحسن منَّك نايم من ساعتين .. كنت فين ؟

- وأنت مالك ياعقلة الصباع ..
- إنت أكتر منّى فى البوظان ياريت تعرف كده ..
- والله أنا خايف .. مش عارف رايح فين هىَّ دى المدينة ياعبد العزيز ..

.. كان جسدى يرتعش من تأثير اللقاء والانفعال إننى أنفعل وأنشقّ على نفسى وأن ما يحدث لى هو على غير عادة أن يكون الصبى محترمًا بريئًا يطاوع ربه قبل أمه وأبيه، أين ربى فى قلبى وأين خوف أمى وأين مراعاة أبى .. وقلت لأخى والدموع تنسال على وجهى :

- أنا خايف .. أبيع اللّى جواى من براءة وحفاظى على نفسى طيلة عمرى ..

من أجل امرأة أبيع نفسى وأضل طريقى .. لم آت إلى هنا لكى أضيع ..

وقعد أخى يهرش فى رأسه وكأن كلماتى خبطت شيئًا فى رأسه :

- أول مرّه أحس أنك ضعيف إنت عايزنى أتكلّم معاك بصراحة ..

جهشت بالبكاء وأحكمتُ قفل الباب وجلست على مقعد المكتب وقلت لأخى :

- إحنا هانضيع ياعبد العزيز :

.. راح عبد العزيز يبكى .. بكى كثيرًا وكأنى قعدت على الكرسى لأسمعه ولّما انتهى من بكائه قلت مظهرًا حنانى نحوه :

- عايزين نلحق نفسنا .. لازم نمشى من هنا ..
- هانروح فين ..
- نسكن لوحدنا بعيد عن ولاد عمّنا ..
- وهىَّ الست دى هاتسيبك .. مش هاتدوَّر عليك لو رحنا فى آخر الدنيا ..

- مش عارف ..
- على العموم السنة خلصت .. يبقى من السنة الجديدة .. نخلّص الامتحان ونروّح ونقول لأبوك كل حاجة حصلت لنا .. إحنا عيال هانروح فى شربة ميّه لازم نلجأ لأبونا نقولّه كل حاجة حتى لو ضربنا علقة موت .. لازم نلحق نفسنا ..
- شوف السنة دى على رأيك تخلص وبعدين يحلّها ألف حلاّل..
- وانت بقى كل يوم هاتذاكر عندها ..
- المصيبة إنى باكل الكتب وهىّ جنبى وآه لّما تلاقى نفسك غرقان فى غرام ست ..
- على فكرة لّما الجماعة جابوا بنت بياعة الفجل حسيت بأنّها شرمطة مش غرام ..
- فرق كبير بين بتوع الشوارع وبتوع البيوت ..
- جبتوها كام مّرة ..
- كل أسبوع بتيجى مّرة ..
- وانت بتبقى مبسوط بعد كل مّرة ..
- أبدًا بابقى عايز أضرب نفسى بالجزمة ..
- هوّ دا الفرق بين بتوع البيوت وبتوع الشوارع ..
- وبعدين يعنى هاتتّك معاها ..
- إحنا قلنا السنة تنتهى وينتهى معها كل اللّى حواليها ..
- وبعدين ..
- لازم نسكن فى حتة تانية بعيد عن بيت الجمّال ..
- العيب مش فى البيوت ..

- عارف .. العيب فينا إحنا .. النفوس ضعيفة وإحنا لسة عيـــال لا نعرف العيش قمح ولاَّ دره ..
- طيِّب ياللا ننام أنا بكره هاروح المدرسة ..
- ياريت ياعبدالعزيز ..

*****

.. فى أى بلد هناك فئة تمثّل موجة متداخلة بين طبقات المجتمع ليس لها إلاَّ تخويف القلوب الآمنة والبحث عما يقلق الناس ويؤذيهم، كانت التقاليد حولى بالية ولا يركن إليها إلاَّ الضعفاء وليست من الأخلاق فى شيء، ولم يكن فى البناء السياسى لأمة عمرها آلاف السنين إلا أن يأتى إليها مجموعة من الذين يصنعون الرياء وهم فى نفس اللحظة والوقت يقيمون عواميد هرئة للسياسة، وكنت أقول فى نفسى دائمًا كيف لبناء بلد أن يذهب الناس فـــى كـــل يـــوم ويعودون أكثر ما فى داخلهم الهتاف والتصفيق .. ولم يكن ما يمثّل الاتحـــاد القومى والاشتراكى وحزب مصر والوسط ثم الوطني فيما كل هذا رأيته فى معارج عمرى إلاَّ مجموعة من الأجرية والمرتزقـــة يعملـــون فـــوق أرض مجتمع بأجر وسبُوبة .. فإذا كان السياسى يتكلَّم بأســـلوب تـــاجر الحميـــر والمعيز فى السوق فكيف لا تكون لنا إلاَّ محصِّلة نهائية من اللاعدل والهلفتة والتسطُّح .. وكان كل ما حولنا يشير إلى شيء خطير سوف يظهر لنا فجـــأة كرجل كوّنت الأحداث جنونه، ولم يكن هناك من أفعال تنم علـــى أن هنـــاك قليلاً من العدل سوف يأتى .. على مدى عراك تاريخ طويل من الإنسانية فى شرقها وغربها لم يأت العدل من هلافيت ومشترين الذمم والأفاقين، فقبل أن يكون للعدل ظاهر لابد أن يكون له باطن عميق، إنه بينى وبين نفسى أقـــيم العدل فى باطني، فالعادل يسود فى داخله نظام متكامل من التوازن الأخلاقى

الذى يحاسب نفسه ويرتبها، فمن يعيش مع نفسه الآن فى تنظيم وترتيب فى مجتمع يسوقون الناس فيه إلى الكذب والهلفتة، إننا نطلى الجدران والهياكل معطوبة فى نظام تمام ياأفندم للأمام هب شمال، إنهم لا يجرءون على التعمُّق فى جوهر الأشياء لأنهم من معدن خسيس لا يهم إلاَّ أن يملكوها بالشعارات الزائفة .. كانت الموجة قادمة وظاهرة فى موجات آتية جارفة عاتية تجرف الجميع إن لم يستجيبوا هزمت إرادة الأفراد إرادة الأخلاق والإنتاج.

*****

.. كُنت قد مللت الذهاب إلى مدرستى عن طريق شارع القيسارية وفى هذا الصباح من إبريل ١٩٦١ جَّربت أن أذهب إلى المدرسة من شارع داير الناحية الذى تنتشر فيه ورش صُنَّاع الحصير الذى تشتهر به هذه المدينة وتوزعها فى أسواق المحافظة، وكنت أتلذَّذ أن تدخل رائحة الحصر أنفى، إننى لا أتلذَّذ رائحة الهواء إلا إذا كان محشوًا برائحة المدينة، وما ألذ بعد رائحة الحصير التى عبقت فى أنفى إلا رائحة شارع الملاَّح الذى يشتهر بصناعته السردين والرنجة والملوحة، وكنت أشتهى كل ما أشمه غير أننى وأنا أقترب من بلوغ ميدان الملاَّح وجدت شابًا يكبُرنى بأربع سنوات من قريتى يندفع نحوى ويمد يده مصافحًا بحرارة فصافحته قائلاً :

- إزَّيك ياشيخ أحمد ..
- إزَّيك ياحسن .. كنت عايز أقول لك إنت ليه لوحدك ومش مندمج مع قرايبك ولا أهل بلدك ..
- أبدًا والله أنا بحب أبقى لوحدى ..
- أنا بحس أنَّك متكبر على الولاد كلّها اللّى من البلد ..

- إنت بتترفزنى ياشيخ .. يعنى عايزنى أصاحب مين إذا كنتم إنتم طلبة المعهد الدينى ماشيين على حل شعركم .. جرى إيه ياأحمد دا إنتو نازلين على بنت بتاعة الفجل كل أسبوع ولو قدرتوا كل يوم ..

.. ابتسم فى خبث وقال مازحًا وعرفت دا كله منين ؟

- هوَّ فيه حاجة بتستخبه على ولاد البلد ..
- طيب إنت ماشى إزَّاى .. ليه مابتندمجش مع ولاد عمك وتشرب جوزة إذا كان عبدالعزيز أخوك فاقد زيُّهم .. إحنا جينا منوف وكل عِّيل من البلد انفجر لَّما جه منوف على طريقته ..
- هوَّ لازم لَّما أنفجر آجى أورِّيك ..
- أنا شايف فيه عيال من البلد انفجرت على جَّوه وفيه عيال انفجرت على بَّره ..
- مش فاهم إنت برجلت دماغى يعنى إيه بَّره وجوَّه ..
- ولاد المعهد الدينى طلعوا على بَّره مع بتاع الفجل وغيرها ..
- ومين اللّى على جُوَّه ..
- كل شلل الحشيش والجوزة اللّى ماكانوش بيقدروا يعملوها فى البلد..
- وانت رأيك إيه أروح بَّره ولاَّ جوه .
- أنا شايف إنكَّ لا بَّره ولا جوه ..
- إنت مالك ومالى إنت عايز منّى إيه أنا عمرى ماكلّمتك هوَّ إنت كنت مستنّينى فى شارع الملاح ..
- أنا ساكن هنا مع الشيخ عبدالجليل وعبد العظيم وعبد الغنى ..

- بصراحة أنا مابحبّش أعرف أى حد بيمشى فى الشارع بالقميص والقبقاب .. حرام عليكو فضحتونا فى منوف ..
- إحنا فى البلد ولاد ناس غلابة إنت عايزنا نلبس إيه ..
- لو كنتم ولاد غلابة بصحيح ماكنتوش تجيبوا بنت بتاع الفجل كل أسبوع ..
- إحنا أحسن من غيرنا .. وعلى فكرة إحنا فى المعهد الدينى بنروح بالجلاليب ومابنقراش جرايد زّيك إنت عارف إحنا بنحقد عليك لّما بنشوفك كل يوم واقف عند بتاع الجرايد وعمّال تقرا فى الجورنال ..
- ياريت ماتكلمّنيش تانى بصراحة كده أنا مش عايز أعرف حد من بتوع المعهد بتاعكم ..
- وعلشان كده إنت متكبّر على ولاد البلد دا حتى ولاد عمّك مابتمشيش معاهم ..
- أرجوك كفايه كده ماتجيش تكلمّنى تانى مابحبّش العك ..
- والله العظيم لّما أروّح هاروح لأبويا الحاج هاقوله إنكّ بتقرا الجرايد كل يوم وهاتبوظ فى منوف .. وكمان بتاكل جبنة رومى..
- جتك حسره عليك وعلى ولاد الغرب كلهم ..

.. قفز خطوتين بعيدًا عنى وبصق نحوى فجريت خلفه وأمسكته من كم جلبابه وناولته بقبضتى لكمةً فى وجهه فأخذها وترنحّ بعدها فرّ هاربًا من أمامى مذعورًا مهرولاً إلى معهده ..

.. ومن يومها كنت أتجنبً جميع طلبة المعهد الدينى الـذين يقيمـون معـى فى منوف..

.. كنت لا أحب المستجوبين ومن لا يحترم خصوصيات غيره ولكـن لمـن تقول والعيال مش عايزين يتعلّموا ويتحضروا ويبقوا بنى آدمين .. أنا مالى ومالك يارضا يابو جلاَّبية مهربدة تصفحَّت جريدة الأخبار وأنا أقـف أمـام محل الخواجة بطرس ثم طويتها مع كتبى بعدها اشتريت سندوتشات الجبنـة الرومى التى طويتها بين طيَّات الجريدة حتى لا يراها طالب آخر من طلاب المعهد الدينى وكفانى حقدًا .. ورُحت أهزُّ رأسى حتى وصلتُ باب المدرسة وأنا أدندن مَّرة أخرى .. وأنا مالى ومالك يارضا يابو جلاَّبيـة مهربـدة .. ولا أعرف ماذا تعنى هذه الكلمات التى سمعتها فى قريتى لَّما كان الأطفـال يجرون خلف أهبل من هبل البلد ويهتفون خلفه بهذه الكلمات .. وكان علـىَّ أن أقول عبارة على هذا الصباح الذى قابلنى فيه هـذا الـشيخ الـصغير .. ياأحمد يابو قبقاب كفاية ماتكسفوناش .. ورُحت أردِّدها حتى انتهى الطـابور الصباحى وطلعت مع زملائى إلى فصلى بالطابق الثالث ..

.. كنت أشعر أننى أختلف عن كل التلاميذ فى مدرسـتى خاصـة بعـد أن أصبحت هذه السيدة عشيقة لى .. وكيف يكون لصبى مثلى عـشيقة .. ولـم أكن أعرف المعانى العميقة للحلال والحرام .. إن الناس حولى يقولون هـذا حلال وهذا حرام.. كنت أنكب على ما أنا فيه من لذة وأداريها وكأننى عثرت على بئر مملوءة بالذهب.. ولَّما كنت أحبُّ الجغرافيا لأنها تأخذنى إلى كـل بقاع فى الأرض .. أطلعتنى منى على كل القارات الخمس فى هذا العالم .. أمسك بشلالات مياه البحور والمحيطات وأسيطر على السحب المعبأة بالمطر .. أمسك بكل المساحات فوقى من السحب .. إننى أحكم نفسى فـى خـضم

هذا العالم المخيف بل وأحكم هذا العالم الذى يملأ البيوت والشوارع والميادين .. كنت أرى أن هذا العالم الذى يحيطنى يمتلئ بالفوضى والمعانى الصغيرة الكامنة، وأننى الوحيد من بين هؤلاء أعيش فى دنيا جميلة لا يحـق لأحـد غيرى أن يعيشها وامتلكنى غرور جامح رغم أننى لا أملك شيئًا ..

****

.. كنتُ أعود من المدرسة أحمل الفول والطعمية من مطعم أبو النور لأتناول طعامى وحدى فى غرفتى دون أخى الذى أصبح جزءًا من شلة أقاربى الفاسدة .. أجدهم جميعًا ينامون ويشخرون والشقة تمتلئ بدخان الجوزة والسجائر من تعفير طول الليل وبالشقة روائح أخرى كريهة فأفتح نافذة الغرفة وأقفل الباب وأنعكف فوق مكتبى الصغير وأذاكر دروسى حتى أنتهى من عمل جميع الواجبات المدرسية إلى أن تثقل رأسى فأخلد لأنام فى فراشى حتى بعد العشاء .. وتبدأ حياة جيرانى بعد أذان العشاء بقليل .. وأخرج من غرفتى إلى الغرف الأخرى لأطمئن على أخى الصغير فأجده فى الغالب يمزح مع بقية زملائه .. أتفحصه بعينى وأقول له :

- خلاص المدرسة بعتها ..
- يعنى إنت ماشاء الله بتروح المدرسة وبتذاكر وبتـــروح لمـــرات الصول كل يوم ..
- مابروحش لحد ..
- يعنى لو قلت لأبويا تانى إنى مابروحش المدرسة .. هاقولُه كـــل حاجة عنَّك إنت خاربها ياحسن ..
- أنا برضه ..

ويضحك سيد ابن عمى كبير الشلة وعبدالرحمن شقيقه ثم حمدى أبو هنطش قريب لنا وأحمد أبو عياد ابن أحد جيراننا فى القرية .. يضحكون جميعًا فى صوت واحد قائلين تباعًا :

- إذا كان بيتك من زجاج ..
- ياحسن دا إنت أبوظ واحد فينا ..

- عامل تلميذ نجيب .. هو فيه تلميذ يـروح لواحـدة أكبـر منـه بخمستاشر سنة ..

- الحال من بعضه .. إحنا كلّنا ضايعين ..

.. حتى تورَّمت عيناى من كثرة الرد والتريقة والتهزئ الذى رمونى بـه .. وشعرت بأننى مصاب هم يعانون من أمراض عدة وأنا أعانى مـن مـرض واحد .. وكان علَّى بعد ذلك أن أذهب بعيدًا عنهم وأتجنب معهم أى حديث .. وهذه هى المدينة التى لا يعرف أهلها شيئًا عنا .. إن كل واحد فـى حالـة ينكفئ على وجهه فى حياة مترامية الأطراف كل فريق فيها يذهب إلى غايته .. وأنا واحد من هذه المدينة أتحد مع شيء واحد .. هى تلك الزوجة الفاتنة التى تركها زوجها لى طواعية وبراحة فى نفسه .. هى الأميرة التى أتـوّج بها ريعان صباى .. أعطتنى كل مفاتيحها ولم أكن قادرًا إلاَّ على حمل مفتاح واحد أفتح بابه فأجد عالمًا لم يعثر عليه الرجال الكبار .. فأشعر بأننى شاعر أشعر بكل قصائد الحب ولا أكتب قصيدة واحدة .. بابها نهر تتقلب فيه ميـاه عذبة ليس فيها قارب واحد يبحر فيه أحد.. فكنت أنا المركـب والمجـداف وشباك الصياد .. فإذا انحنت بعد شرع الباب رسمت ساعتها طرفى مدينـة تقع عند شاطئ الأطلسى، وإذا تقلَّبت على جنبها شطبت كل أزمنـة العـشق وتقدَّمت كل العاشقات بمسافات، ولَّما كان شعرها ينسدل على كتفيها ثم يروح متطايرًا يمنة ويسرة فوق المخدع كانت البيوت عند حافة هذا الشاطئ تترنح وكأن زلزالاً أصابها ثم تعود لاتزانها وكأن الزلزل كـان ينحنـى لأمـواج شعرها التى اهتزت بين جوانحى .. ولَّما كان كحل عينيها أسود مغموسًا فى عمق مقلتيها كنت أرى خصوبة أرض الدلتا تنبت الـورد والياسـمين دون

حراث ولّما كانت تنام فى مملكتى التى شيدتّها فوق فراشها كانت كل مدن العالم فى جوف يدى أتحكم فيها جميعًا .. وكان المطر الغزير فى داخلى دائمًا فى كل الفصول وضجيج عربات الحنطور فى الشوارع تثيرنى وتدفعنى فى رقة أحيانًا وفى عنف فى كثير من الأحيان لأن أحصد كل حقول القمح والذرة فى غيط بلا حدود .. وكنت أستريح بين وقت وآخر لّما كانت يدى تتعب من مجداف المركب أو أنتقل من قارب لآخر أو ترمى موجة برذاذها فوق رأسى فأدرك أن المطر ليس فى سحاب فوقى وهو فى موج تحتى .. أى مملكة بين يدى والصبى لم يدرك شيئًا من قبل ولا من بعد .. إن مملكة حاضرة تملكه اللحظة وهل يمنح الغلام تلك الملكة التى ترمى إليه بحظ كالبرق الذى يبرق لكنه لا يختفى ويظل فى السماء حتى يضرب سحابات المطر ..

.. تهادى المركب إلى الشاطئ فغطيت رماله بشرشف من حرير حتى لا تتجرح أصابع كفيها وهى تمشى .. دخلت تحت الماء لتغسل الوعاء الذى به بقايا من العسل ودخلت بعدها وكما فعلتْ فعلتُ مثلها إلاّ أننى غطيت الوعاء بعد أن فتحت فيه عيونًا كانت فى قريتى عندما تذوق الهوى تغضب وتثور ثم تتكفئ على نفسها تدارى كثيرًا من الخجل .. فى تلك الغرفة وبيت الجمّال بابه منفتح فى مدينة تزخر بكل آهليها من القرى المجاورة .. أسمع صوت كل البلاد الذى ضعف إذا ما سار وتمخطر حصان الحنطور فى محطة القطار وانطلق .. عربة تصرخ بالجرس ودندشة تزيّن رقبة الفرس وكرباج فى يد الحوذى يعمل كأنه يضرب مؤخرة المهر وينادية بالبطل عالم يطغى على كل العوالم حولى ويخرسها .. إن كل ما فى مدينتى من حياة فى الميدان الذى يتوسط الشارع المؤدى إلى محطة القطار ومن الناحية الأخرى المدرسة

الثانوية والكنيسة ومركز الشرطة الذى فيه يرعب الطوجنى المقبوض عليهم فوق سطح المركز المخيف .. التلاميذ والمدرسين حتى ناظر المدرسة يهرول هلعًا من قسوة الطوجنى فوق سطح المركز مع مجرمى البلدة حتى أن زعيق الصول يصل إلى أسماع أصحاب مصنع الدفراوى للمعسل فيقفلون نوافذهم .. صول مبعجر له إليتان كإليتي بغل يجر أجولة الملح فى شارع الملاح، صوته الجهورى وعيناه الجاحظتان الوارمة من قهره على نفسه وحزنه على عجزه فلا هو أشبع زوجته ولا هو خلَّف بنتًا أو ولدًا إنه يصرخ ويغضب فى المدينة كلها من خلال زعيقه مع المجرمين ولو استطاع أن يخنق الجميع لفعل لكنه رجل قانون لا يمكن أن يتجاور على أحد .. إنه فقط يفتح فى الهواء الطلق فوق سطح مركز الشرطة فالصوت الغليظ والزعيق الصارخ ليس من الأفعال التى تلوِّث الهواء كالغبار والدخان، ولكنها تبعث الأمان فى مدينة بأهلها الغرباء أكثر من أهلها ولولا هؤلاء ما شخللت أجراس الحناطير ولا تزينت رقبة فرس ولا كانت زوجة الطوجنى أقامت فى بيتها مملكة للعشق صاحبها صبى صغير جاء من بلدته ليتعلم دروسًا لم يكن يعلمها لو ظل فى قريته ..

*****

فى بيت أبيه لم يكن محرومًا من طعام وشراب، إن أشهى ما فى داره تقدمه أمه له فى حب ودون أن يطلب شيئًا، لم تكن هناك أى ضروب من الحرمان أو المشاق، وبدأ الربيع وفى يوم اثنين، ابريل من عام ١٩٦١ أصرَّت أن تقيم له عيد ميلاد وأصرَّ معها الطوجنى قائلاً فى رجَاء :

- بكره ياحسن هانعمل عيد ميلادك ..

اندهش الغلام وطفق :

- عيد ميلاد .. لأ لأ ماتجرحنيش ياعم طوجنى ..

راح الصول يضحك بأعلى صوته وهو جالس على كنبة بالصالة فى مقابلة حسن ولّما هدأ من قهقهته قال وكأنه يرجوه :

- لأ مش هاينفع إحنا هنا فى منوف انسى البلد .. إحنا كلّنا ماعملناش فى البلد عيد ميلاد طول عمرنا الواحد مننا مافتكرشى عيد ميلاده ..

.. اندهش حسن وسكت لكنه راح يبسط كفه أمامه وقال للسيدة منى وهى تروح وتجيء حاملة أطباق الطعام لتضعها فوق الطبلية التى عدلتها وسط الصالة:

- كده ياست منى ينفع كده .. هاتعلمونى حاجات أفرنجى مش واخد عليها .. إنتو كده هاتدلعونى زيادة عن اللزوم ..

.. كما قهقه زوجها رنّت منى ضحكة جديدة لم يسمعها منها حسن من قبل حتى فى قمة لقائه معها .. امتلأ قلبه بسعادة فائقة عندما راحت تقول :

- يعنى إحنا ماخسرناش حاجة أنا عملت تورتة بيتى وبطه جايبها جدو من البلد دا غير التعميرة بتاعة روح قلبى .. حفلة صغيرة كده على أدّنا ..

.. وداعبت أنف زوجها بابهامها وهى ترن ضحكة فيها دلال ورقة غير التى رنتها قبل دقائق .. كأن الأولى تذيب برد الشتاء والثانية ترحب بالربيع المعتدل وتجرى فى دمائها وجسدها الثائر ترتيبا للقاء عيد الميلاد .. ولكن كيف يتم اختتام الحفل بدون لقاء والطوجنى مقيم عندنا الليلة .. هكذا تساءل حسن وهو ينتظر اللحظة الآتية .. ولكن كيف يكون للصول مرعب مركز الشرطة أن يمهد ويرتّب لتحصّل زوجته على مزاجها وكيف لهذا الرجل من

دماغ لَّما يضع حسن فوق رأسه ويلف به عالمه الصغير الذى لا يتواجد فيه غير زوجته وحسن .. إنه جاء بخبز وبط وزبدة من البلد ليس من أجل زوجته فقط ولكن من أجل هذا الصغير الذى بدأ يواليه كل الاهتمام قائلاً له وهو يفسّخ بيديه الزفر السمين والذى حمَّرته منى بالسمن البلدى :

- كل دقيقة فى البلد كنت بفكَّر أجيب إيه علشانك ..
- ياه للدرجة دى .. إنت بتعتبرنى ..
- كمَّل باعتبرك إيه ..
- مش عارف قول إنت ..
- إنت أخويا الصغير وأخو مراتى .. إنت ستَرى والحاجة الحلوة اللّى رضيت بيها مراتى وحبّتها ..
- اللّى يشوفك فى المركز بتشخُط فى المجرمين يخاف ويجرى ..
- ربّنا بيوضع سره فى أضعف خلقه ..
- إنت ضعيف .. عمرى ما شفت راجل فظيع أدَّك ..

ضحك الطوجنى وهو يهزُّ رأسه :

- كده كده يعنى أنا فظيع ..
- لأ ماقصدش .. إنت مرعب والناس بتخاف منَّك ..
- أنا سبع برَّه ندل فى بيتى .. ندل جوَّه ..
- وليه تبقى كده .. ليه ماتبقاش سبع جوَّه زى برَّه ..
- أى راجل بينكسر أدَّام الست .. أجدع راجل فى البلد بيبقى ذليل لَّما مايقدرش يعمل حاجة لمراته ..
- ودا من إيه ياعم ياطوجنى ..

- شوف إحنا أسرة أبًا عن جد مالناش فى الحريم .. إنت عارف أبويا كان ليه صاحب بييجى كل ليلة يسهر معاه فى البيت ويشربوا مع بعض شاى لغاية نص الليل ..
- مش فاهم ..
- أبويا يروح فى ليلة الرَّى يساعد عمى عبدالجليل فى رى أرضه..
- يعنى إيه ..
- فى ليلة الرى دى أبويا يروح يروى مع عم عبدالجليل .. وعمى عبدالكريم يخش البيت يتنُّه مع أمى لحد الصبح ..
- وانت كنت فين ..
- ساعات بابقى صاحى أمى تقولّى اعمل واجب لعمك عبدالكريم ..
- واجب إيه هوَّ فيه غير الشاى ..
- العسل .. كان العسل الأسود ومعلقة الزبدة فيه هى أحسن طاجن يتقدَّم لأى ضيف عايزين نكرمه ..
- وعشان كده سموك طوجنى ..
- أهو الطاجن ده اللّى كنت باعمله لعمى هو اللّى خلاَّنى أبقى ستر وغطا فى بيت أبويا وفى بيتى .. شوف أنا بحب كل واحد يعمل اللّى يريَّحه ..
- بس إنت كنت بتحب أمَّك أوى ..
- اللّى عملته لأمى باعمله لمراتى .. الحريم دول كلُّهم بركه ولولا همَّه ماكنَّاش إحنا ..
- يعنى إنت مريَّح نفسك ..
- وحاطط فوق دماغى قفة ..

- آه ياعم طوجنى ..
- سلامتك من الآه ياحسن ..
- أد كده إنت حنيِّن عليَّ ..
- طول ما مراتى سعيدة بيك خلاص .. هوَّ أنا عايز إيه تانى ..
- إنت رايح النهارده فى حته ..
- هاكُل التورتة معاكم وأروح المركز ..
- هاتيجى إمتى ياعمى ..
- هاجى الساعة تمانية الصبح .. خليك معاها لحد ما جى ..
- طيب والتعميرة ..
- هاشرب معاك كرسى ..
- والباقى ..
- منى هاتشرب معاك ..
- طيب أنا كده هاخد على الحشيش ..
- حد بيقولك ادفع حاجة ..
- لأ أقصد إني صغيَّر على المعلمة دى ..
- مش إنت اللّى تقول صغَّير .. أنا سألت منى قالت لى بعد الحشيش حسن بيبقى فظيع ..
- والله مانا عارف أنا رايح فين ..
- يابه حسن إنت جميل .. هوّ فيه تلميذ فى مدرسة منوف عايش زيَّك ..
- أهى دى النكسة اللّى أنا فيها ..
- إنت بتقول كلام جامد أوى .. شوفى يامنى إيه حكاية حسن ..

.. كانت قد حملت أطباق الطعام إلى المطبخ وشالت الطبلية ثم كنست القياس (الحصيرة) من بقايا الطعام .. وقالت وقد فرشت ابتسامة وجهها اليانع:

- سيبه يقول اللّى عايزه .. تعال يا حسن اغسل إيدك ..

.. ولبث الثلاثة دقائق لم ينبس أحدهم ببنت شفة بعدها هبَّ طـوجنى واقفـا وهو يمسك رأسه بكفيه واتجه إلى غرفة الكنب قائلاً :

- دماغى تقلت هانعس شوية ..

فقالت له فى صوت هامس وكأن قلبها يخاف عليه (الـذى يُـسمونه دهلـزة النسوان):

- إذا رحت فى النوم مش هاصحّيك علـشان تقـدر تـشتغل فـى المركز..

- ياريتنى كنت طاهيها واشتغل فى البيت أحسن من المركز ..

- طيِّب روح بلاش نكد .. مانا عايشة بحسّك يا جدو ..

.. وفجأة نزل بربوره من مناخيره فمسحه بكم جلاَّبيته ودفع البـاب ودخـل قائلاً :

- جت البط نيله على أصحابه طلع على نافوخى سيحَّه ..

- خش يافحل طول عمرك طاجن بصل ..

- أحلى كلام كلامك يادلوعتى .. بس على فكرة أنا فحل جاموس..

.. بعدها رمى بجسده فوق كنبة واحتضن مخدعها بين ساقيه وسحب فى نوم عميق كأنه جعبوب المجيرياوى أحد طوالين قرية مجيرية الهِبّل ..

*****

.. جلست إلى جواره ودقات قلبها تكاد تسمعها كانت جد مبتهجة وأمـسكت بيده ورفعت كفَّه إلى فمها وقبلته هامسه :

- إنت روح قلبى ..

أمسك بكتفها وشدَّها إليه وقال :

- آخرتها إيه يا منى .. أنا خايف ..
- خايف ليه هوَّ إنت مش فى بيت أخوك .. على فكـرة طـوجنى بيرتاح ليك أوى .. بيعتبرك أخوه ..
- بس هوَّ الأخ بيعمل كده من ورا أخوه ..
- ومن وراه ليه .. ياحسن هوَّ بيحَّبك وخلاص ..
- أنا عمرى ماكنت أتصوَّر إن فيه راجل كده ..
- لأ فيه فى كل بلد تلاقى بس كل راجل وله طريقته ..
- وده تسمّيه إيه ..
- فيه رجَّاله بتخاف من كلام الناس إذا طلَّق مراته .. وعلى فكـره هوَّ بيحبنى من جوَّاه ..

لكن عملية إنه مش قادر يعمل حاجة دا موضوع تان وهىَّ دى طريقته فـى إسعاد مراته ..

- يمكن يكون حُبه لأمه بالشكل المخيف اللّى حصل معاه أثَّر علـى تفكيره وبيعتبر أن الموضوع بالشكل ده عادى ..
- حاجة غريبة بتحصلّى من يوم ماتجوزته ..
- إيه هىَّ ..
- أنا كنت بخاف من أى راجل يجيبه البيت يـشرب معـاه شـاى وحشيش وعرفت بعد كده أنه عايزنى أألف أى راجل منهم .. لكن ربَّك والحق مابحِّبش أى راجل من مدينة وعلى فكرة بتوع منوف مش بتوع حب .. بتوع منوف بتوع القرش والفلوس وبس ..

من يوم ماجيت البلد دى وأنا عايزة راجل أحبه يدخل فى قلبى ما يطلعش منه..

- ياه أد كده خدتى موقف من بتوع منوف ..
- كان عندى العبيط بيوضه أحسن من أى راجل فيهم ..
- بيوضه مين ..
- بيوضه الأهبل اللّى بيوزع لطوجنى الحشيش ..
- يانهار إسود مش فاهم ..
- يانهار إسود علىَّ .. مالقيتش غيره أدَّامى ..
- يعنى مشيت مع العبيط ..
- مش مشيت .. أنا فى يوم الصبح جه خبَّط علىَّ الباب وكان جايب فلوس للطوجنى .. فتحت له إدَّانى الفلوس بصيت لوشه لقيته حلو بس ملحوس وهدومه وسخة .. فى لحظة لقيتنى بقوله تعال خش أدخل .. قلت له خش على الحمام استحمه .. وسكتت..
- سكت ليه كملّى ..
- قلع هدومه وفتحت له الدش واديته الليفة والصابونة وقلت له نضَّف نفسك أوى وكل ما قولُّه حاجة يقول حاضر .. دخلت له بالفوطة ورُحت أتفرَّج عليه لقيته رهيب .. جبته له غيار من بتوع طوجنى وجالى مزاج ونشّفت له جسمه بالفوطة بمزاج عملت ده بمزاج وكنت بانتفض .. لقيته بقى راجل زى الفل ..
- سكت ليه كملّى ..

- جبته له فرشة أسنان بمعجون وقلت له تعرف تعمل سنانك وعلى ما خلّص خدته لأودة النوم ريَّحته بريحتى بقى فى عينى أجمل من أى راجل شفته فى حياتى ..
- وبعدين ..
- كل ماقولُه حاجة يقول حاضر .. تعال كده حاضر .. اعمل كده حاضر .. لقيت نفسى مع أكبر عبيط فى البلد والناس كلّها بتسخر منه وتشتمه وتعيِّب عليه وهوَّ مسامح وماشى فى طريقه يشحت على القهاوى وفى الأتوبيسات وبيلف شوارع منوف عشر مرَّات يوماتى ..
- وبعدين يامنى ..
- قعدت معاه طول اليوم لقيته مافيش بعد كده .. ولَّما سألته ليه إنت كده قال لى وهو يمسح ريالته .. لأول مرَّه فى حياتى أعمل كده ياستى .. اوعى باشا المباحث يعرف حاجة أحسن أنا ماستحملش سجن المركز .. طمأنته .. ماتخافش ولا يهمَّك ..
- قعدت معاه كتير ..
- مرتين وطاوعنى واستحمى ..
- وبعد كده ..
- بقى عايز يتهجَّم علىَّ بوسخه ومن غير ماينضَّف نفسه .. ضربته بالمقشه على راسه وتفيت فى وشه ومسكت الشبشب عليه وإديته على راسه .. بعدين لَّما لقيته حمار كده قلت لطوجنى الواد دا مايجيش يحاسبك فى البيت تانى .. يحاسبك برَّه ..
- سألك ليه ..

- قلت له بحس أنه ممكن يتهجّم على وإنى بـاقرف منـه ونفـسى بتغم عليَّ ..
- وانتهى الموضوع على كده ..
- سامحنى ياحسن دى هفوة حصلت لى فى حياتى ..
- أسمع إن الهبل دول جبَّارين فى الحاجة دى ..
- أيوه .. بس الأهبل هوَّ الأهبل .. فيه مثل بيقولـه الحـريم مـع بعضهم .. وسكتت .. بيقولوا إيه ..
- لا تخلّى الأهبل يقَّربك ولا الصغيَّر يعشقك ..
- الله الله .. طيب مانا صغيَّر يامنى ..
- إنت عمرك ماكنت صغيَّر إنت عالم كبير خلّتنى أعيش وأعـرف يعنى إيه الحب والعشق والرجاله ..
- بس برضه صغيَّر ..
- إنت عمرك ماهتفضحنى ولا تقول لحد بينى وبينك إيه ..
- إنت أكبر منّى بخمستاشر سنة.. أنا بالنسبة ليك عيِّل بيلعب فـى السيجة ..
- إنت راجل أوى لَّما تكبر هاتبقى حكايه تعرف لو سبتنى وبعـدت عنّى لأى سبب هاعمل حاجة واحدة علشان أخلص من حياتى ..
- هاتموّتى نفسك يعنى ..
- حاجة زى كده ..
- أد كده بتحبينى ..

- الحب شوية عليك .. إنت عالم من الحب .. لِف كل بلاد المراكز والمدن لو لقيت حد زيّك أراهنك أنا مش عارفة إنت اتصنعت من إيه .. صحيح والله جل الخالق فى خلقه ..
- إنت موهومه فيهَّ أوى ..
- أبدًا ..

.. وراحت تبكى فأخذتها بحنان إلى صدرى ثم حملتها إلى سريرها ووضعتها فى رفق ورحت أقبّل جسدها المترامى بالفراش فى شوق .. كان وجهها ملائكيًا كأنشودة جميلة وشعرها المنسدل فوق المخدع حكاية عشق لا تنتهى وعيونها الكحيلة أحلى من أى مدينة مهما شخللّت أجراس الحناطير فى شوارعها ..

.. جئتينى بكل أبواب النعيم مع الحريم والقرب من نهديك جنة نعيم فى مدينة لا تقرأ حتى عنوان الحب فى وجهك .. إن مدينة لا تعرف فى أسواقها غير الجاموس والعجول والسوبيه والعرقسوس وتلك الحناطير التى تجرها الخيول إن كانت هى الفعل الصاخب والغالب فى مدينتى .. اسمحى لى أن أبيع هذه المدينة بكل أسواقها وأظل فى مدينتك ..

*****

.. وفى معمعة العشق وتخبيط الحلة فى الطشت فلّما كنت أخلع ملابسى وأقف تحت الدش لم أكن أنسى ليلة الخميس فى قريتى وتخبيط الحلل فى الطشوت، وكنتُ أشعر بأننى تقدَّمت ودربت دربًا من دروب التمدين وهذا غير أن تليّف جسدى بصابون فنيك لم يكن أبى يستحم به .. كان كل الرجال فى قريتى يستحمون بصابون شاهين وهو صابون غسيل الهدوم، وأحيان كثيرة كنت أشعر وهى تدعك جسدى باللليفة أتذكّر عندما أدخل البيت فى يوم

الغسيل أجد أمى على طشت وأمى لبيبة على طشت آخر وهذه نصبة غسير الهدوم ولا أعرف لماذا كان يوم الغسيل هذا نكد علىّ فهما يغسلان باليدين ويتناقران باللسان، وكل واحدة منهما عمَّالة تعاتب وتتعارك مع الأخرى وهات ياندب طول اليوم فأدخل غرفة الخزنة وأراقبهما وأقول لنفسى يادى النكد اللّى فى دارنا ياريتنى ألاقى بيت تانى أروح فيه يوم الغسيل النكد ده .. ولَّما كنت أزهق أزعق فيهما قائلاً :

- حرام عليكو بكفاية عقَّدتونى ..

فتقول أمى لبيبة :

- قول لأمك ياحسن ..
- اسكتى يامَّه ..
- أبدًا يابنى كل مَّرة تاخد هدوم أبوك تغسلها علشان تقوله أنا اللّى غسلتها ..
- مايجراش حاجة حلّيها تغسلها ..
- لأ يجرى ..
- مافيش فرق إنت هىَّ ..
- لأ فيه فرق ..
- طيب خلاص اسكتوا أحسن أسيب البيت وأمشى ..
- تمشى إزَّاى خلاص يا لبيبة حسن تعب مننا ..
- قولى لنفسك .. أنا طول عمرى باغسل هدومه وأزهَّرها بالزهر عايزة تاخديها منى بعد كل اللّى فات ..
- يالهوى خلاص اشبعى بيها يالبيبة ..

.. وهكذا كان النكد فى كل يوم غسيل وكلَّما تذكرت هذا اليوم وأنا فى منوف أشعر بأن نكد يوم الغسيل كفيل بأن أظل فى المدينة ولا أذهب إلى القرية أبدًا، ولَّما كانت منى تنشف جسدى بالفوطة وتناولنى ملابس لأرتديها كنت أشعر برجولة لا حدود لها، وكانت منى قد اشترت لى ملابس داخلية وجلبابين من محلات بصلة فى شارع القيسارية وكانت أكثر جودة من الملابس التى اشتراهالى أبى من دكان عبد الرسول دردير فى البلدة وكلما استحممت فى بيتها وارتديت ملابسى التى احتفظت بها فى بيتها وطبقَّتها فى رف من رفوف دولابها كانت رائحة هدومى عندها عطرًا فأقول لها :

- دا عز جامد أوى .. ليه كل ده ..
- لو قدرت أدخل جوَّاك لدخلت عشان أعمل اللّى مش شايفاه فيك..
- كده حب زيادة عن اللزوم .. هدِّى شوية ..
- أهدِّى إزاى وأنت مولَّعنى ..
- كلامك بيخلّينى عايزك تانى ..
- تانى وتالت تشرب حشيش ..
- مابعرفش أرصُّه ..
- أنا باعرف ..

.. جلسنا بالأرض بعد أن فرشت سجادة قديمة ثم قامت وأشعلت النار فى قصعة صغيرة بعد أن فتحت شباك المطبخ ليخرج الدخان منه وعملت شايًا وغسلت البرتقال والعنب، وأتت بلزوم المزَّه إلى حيث فرشة السجادة بالصالة الصغيرة.. ولَّما صدحت نار القصعة أتت بها بعدها انقلبت إلى دولابها لترتدى قميصًا كحليًا ترتديه كلَّما اشتعلت نيران الشوق فى جسدها وترغب فى المزيد .. وغسلت الجوزة وعطَّرت فوهتها بعطر قميصها، وفتحت علبة

معسل دفراوى وقلبتّها ثم وضعت جزءًا منه فى صحن الحجر بعد أن ألقت فى قعر الحجر بحجر صغير.. المعسل وقطعة الحشيش بنية اللون فى شكل أستيكة المدرسة وقطعت بأسنانها قطعًا صغيرة وضغطت عليها بأصابعها حتى أصبحت كل قطعة فى شكل حبة الترمس ولكن أرق منها .. حبّات المعسل وفوقها قطعة الحشيش غطتها بقليل من خلطة المعسل وثلاث حتت من النار فى حجم حبة الفول .. لم أكن أرقب كيف تعدُّ جوزة الحشيش ولكن من يعدُّهالى عاشقة من منوف وبمزاجها تعمل من أجلى ما يجعلنى أصل إلى قمة مزاجى من أجل أن تنال من المزاج قمته .. تعرّت مثل شاطئ كشفت عنه الرياح طبقة الغبار مثل شاطئ من الورد الأحمر قطفناه ونحن صغار من حديقة قريبة لنا كانت تقع عند بر البحر الأعمى القابع حول قريتى .. شطبت بقميصها الكحلى أحزان الليلة الممطرة التى فيها كرش أبى أمى وأنا معها طفل صغير يبكى من ظلمة ليل حالك بارد ممطر، بجسدها الفاتن وصدرها المثير وكتفيها كأبواب مدينة الغازى فى عصر فارس ينشد الحرية فى مدينة بعيدة عن واقع ذلك العالم الذى يجعل حب النساء وعشقها آخر الأعمال .. إن الذين يجهلون النساء لو رأوا وسمعوا منى وهى تقدم لى الجوزة :

- مساء الخير ..
- افتحيها إنت عشان أشرب من مطرح شفايفك ..
- كركر ياحسن شد .. هوَّ فيه شخللة ميَّه أحلى من كده .. شد يا حبيبى وكركر يلعن أبو اللّى مايحبكش ..

.. لم يكن الدخان يخرج من فيها وأنفها مثل كل امرأة تشرب الحشيش .. كان رقيقًا متطايرًا إلى سطح البيت فيشكل سحابة بيضاء قالوا لها أمطرى

فامتنعت وقالت إننى أمطر مطر السحاب فوق الأرض لكننى أشكّل خيمة من نور أبيض تظللّ بيت العاشقين حتى ينتهيا من عشقهما ..

- اسحب ..

وسحبت من عطر فيها الذى طبع أحمر الشفاه بفوهة الجوزة التى لا تعى أى دخان تنطق به ليس كدخان شلة شقتى أو شلة تحت الشجرة فى حقلنا ..

- أنت يامنى مركب مسافر بدخان تتنزينه فى طائرتى التى لا تطير إلاّ بدخان العطر المخلوط برائحة السُكر ..
- أنت تبالغ فى وصفى لأنك عاشق ..
- من يقدر أن يصف الشعر الأسود فوق الأكتاف ..
- لاأدرى بقيمة نفسى..أنت تبالغ فلا تجعلنى أطير ثم أسقط هناك ..
- لن تسقطى إن صوتك سلاسل من ذهب ورضابك شهد وعسل التى تسقط لا صوتَ لها ولا خيمة سحاب أبيض تعشّش فوق قميصها الكحلى ..
- اشرب .. لا تجعلنى أشعر أننى أكذوبة ..
- هاشرب بس رُصَّى حجر كمان ..
- الحشيش كتير هارُصْ للصبح بس إنت اقدر عليه ..
- كتير كتير رُصَّى لَّما يخلص .. علشان أقدر عليك ..
- من غير حشيش إنت فُلْ ياحسن ..
- بس الحشيش بيزيد الأنارى شوية طلعنا لقينا الناس بتقول ..
- أنا مش قادرة أرص تانى .. دماغى داخت حتى شوف ..

.. وقامت وهى تترنح ولَّمت قعدة المحششة، بعدها تشّطفت ثم دخلت إلى دولابها وبَّدلت كل ملابسها حتى الكحلى الذى يسحرها، وارتدت بدلاً منه الأسود وجاءته قائلة..

- مش كده أحلى ..
- إنت فى كل حاجة أحلى وأحلى ..
- طيب ناكل لقمة ..
- ماقدرش ..
- قوم اتشطَّف .. بيعجبك عطر عتريس ولاَّ بتاع منوف ..
- خلّيك في عتريس بيخلّينى أفتكر كل ست فى البلد يوم الخميس..
- اشمعنى الخميس ..
- الستات بتروح سوق الخميس على سنجة عشرة ..
- على فكرة بنات بلدنا معظمهم اتجوَّزوا من السويقة ..
- السويقة هىَّ بهجة وروح أى بلد ..
- قوم بقى تعال خلّتنى غبرْت من السويقة ..

.. لم أنحدر من سلالات الملوك لكن وأنا معها أشعر بأننى ملك، ولم أ كن أتصوَّر وأنا فى قريتى أن يخرج منها ملك، حيث الفقر والدكاكين الضيقة والعراقيب وترعة فيها حمير وبط وكلاب ميتة حتى أنه فى بعض الترع الصغيرة التى تدخل إلى الغيطان البعيدة عندما يقتلون قتيلاً يربطونه فى حجر ويلقونه بجثته فى الترعة، فهل هناك ملك للكراهية والحقد والفقر .. أهناك ملوك للقتل .. هناك فى قريتى رجال ضليعين فى القتل ومثلهم نساء فلماذا تتضح البلاد بضيق الأفق وتخنقهم مساحات قليلة من الأراضى الزراعية .. أهذا الذى يجعلهم شديدى الحرص فى البكاء والعويل والصريخ

عندما يموت أحد .. إنهم لا يحرصون على شيء ولكن البكاء يأتيهم بقوة للهروب من أحزانهم وفقرهم، ولماذا الناس فى بلادى يعيشون فى مساحات ضيقة من الأرض والبيوت والشوارع حتى مدارسهم ضيقة بضيق أفق مدرسيها المتعلمين فى المعاهد ..

.. ولَّما أتاها كما تعوَّد أن يأتيها تكوَّرت فى أحضانه قائلة :

- احضنّى ياحسن إنى خائفة ..
- وهل تخاف المرأة وهى فى عز لقاء الحب ..
- إننى أشعر بعد كل حب بالجوع وأريد المزيد الذى لا ينتهى وأخاف أن يأتى علىَّ يوم لا أجدك فيه ..
- لقد هربت من قريتى فى صورة تلميذ يذهب إلى مدرسته غير أننى وجدت نفسى أقوم بمهام أخرى غير تحصيل دروسى ..
- هذا الذى وجدته هو الحياة ..
- لا أفهم ..
- إذا لم تخرج من قريتك هل كنت ستجدنى ..
- وإذا لم تكونى زوجة الطوجنى لما كنت عشيقتى ..
- وهذا أجمل شيء فى حياتى ..
- لكننى خائف ..
- إن علينا أن نعيش اللحظة ولا نفكر فيما سيحدث غداً ..
- إن ماحدث لى فى قريتى مع بنت الكفر والخواجاية ونساء الترعة وحالبات اللبن جعلنى لا أحب شيئًا هناك مما جعلنى أخرج من قريتى وأنا متمرِّد عليها وليس هناك عزيز فيها أبكى عليه ..
- وهل وجدت ما كنت تبحث عنه فى نفسك ..

- فرحت بقدومى إلى المدينة آملاً أن أبحث فى وجوه النساء فيها لأجد امرأة مثل سميرة ..
- وهل وجدتها ..
- وجدت أكثر من سميرة ..
- وماذا قلت لهن ..
- إنهن جميعًا لم يُعرنى أى اهتمام ..
- وجدتهن فى أى مكان ولماذا لم تقترب منهن ..
- وجدتهن فى شارع الكنيسة حيث يسكن هناك كثير من الجميلات..
- إلى أن أتيت إلى شارعى خلف المحكمة القديمة ..
- عندما جئنا إلى بيت الجمَّال جئنا لنسكن، وكنت أشعر بضيق شديد لأنه من أول شارع القيسارية حتى المدرسة لم أجد وجه امرأة مثل وجه سميرة ..
- وهل استمرت حيرتك وشعورك بالضيق كثيرًا ..
- إلى أن وجدتك ..
- وماذا وجدت فى ..
- وجدت فيك سميرة أخرى ..
- لا أفهم ..
- إنه من ضيق الأفق والغباء أننا نفقد الأمل فى العثور على امرأة نتوهم أننا نحبها ولكن كثيرًا من وجوه النساء تغنى عن الوجه الذى نبحث عنه ..
- وهل وجه المرأة مخادع إلى هذه الدرجة ..
- فى كل وجه امرأة معنى وروح وعمق يختلف عن الأخرى ..

- وماذا وجدت فى وجهى ..
- وجدت فى وجهك مدينة كاملة تُهت فيها كأننى وجدت فى عيونك حشيش ..
- وهل وجدت شيئًا آخر غير وجهى وعيونى ..
- وجدت الطريق إلى نهر غير موجود فى الخريطة ..
- هل تحب الجغرافيا ..
- أحبها لأننى أنتقل فيها من بلد لأخرى بكل سهولة ..
- هل وجهى هو الموقع الوحيد فى جغرافيا منى ..
- وجدت فيك كل جغرافيا قارات الدنيا الخمس ..

****

.. لم أكن أعرف أننى أضُر أحدًا .. إن الرجل ارتضى أن أكون أخًا لزوجته وحققت لزوجته ما كان ينقصها من حب وارتواء لهو من الأشياء التى تبعث فى كثير من الناس سعادة متبادلة، وكنت أسمع كثيرًا من الكلام عن الحلال والحرام ولم أعط لنفسى فرصة فى هذه السن أن أتمعَّن فى تفقُّه هذه المعانى التى يطلقها الناس فى كل مكان، وكأنها لبانة فى أفواههم، لم أفزع مَّرة فى نومى، ولم يدخل إلى رأسى أى ظلمة لأن ما فى دماغى لا شيء عن أى حدود ومعنى لهذه الدنيا حولى، وكنت أرى فى بعض الأيام بشوارع منوف من يحملون ميتًا على خشبة ويذهبون به إلى المقابر فأقف قليلاً لأتأمل حزن هؤلاء المودعين وبكاءهم فيصعب علىَّ بعض الوقت هؤلاء الناس، لكننى كنت أمضى فى طريقى إلى المدرسة أو أستمر فى قراءة الجريدة أو أهرول عائدًا إلى بيت الجمَّال حيث تكون منى، فإذا دخلت بيتها تأخذنى فى لهفة بأحضانها فأنسى كل شيء .. مالى أنا ومال الميت وأهله ومالى ومال الحرام

والحلال .. بكرة لَما أكبر أبقى أعرف الصح والغلط .. يعنى إيه الصح وإيه الغلط .. خرجت من قريتى صفحة بيضاء بها بعض الرتوش الغامقة لكنها بريئة فلم أقترف يومًا ظلمًا على أحد ومنحتنى نشأتى الانفرادية قوةً ولم يكن لى فى قريتى صديق وساعدنى على ذلك أننى لم أكن أحب صفاتهم وكلامهم ولهوهم .. كنت واحدًا منهم لكن عقلى كان يبحث عن مكان آخر أجد فيه حريتى وأشعر بوجودى، وكانت تلك المدينة التى لا يعرفنى فيها أحد .. ومارست فى العام الأول بمدرستى رياضة كمال الأجسام والملاكمة فى بعض الأيام التى كنت فيها أذهب إلى النادى الليلى فى مدرستى .. وكان ما يشبعنى ويريح نفسيتى أن لى جسداً طويلاً فارعًا ومفتول العضلات أمشى فى الشارع مزهوًا فخورًا، وكان كثير من الناس وخاصة النساء ينظرن نحوى فى إعجاب لكننى كنت أنطوى إلى حيث البيت أو المدرسة .. لا يهمنى كل هؤلاء الناس ولا كل ما فى هذه المدينة.. كان شغلى الشاغل أن أحصّل ما فى دروسى وأن أنجح هذا العام لأسعد أبى وأمى، وكنت أتوقع لأخى ولأقاربى وللعيال من أهل بلدى خاصة الذين يدرسون فى مدرسة ظاظا الإعدادية الخاصة أنهم جميعًا سوف يرسبون وأنا الوحيد الذى سينجح؛ حيث أقوم بأداء واجبى المدرسى على أكمل وجه وكل ما يطلبه منى المدرسون أقوم بالإجابة عليه فى الفصل تحريريًا وشفهيًا فأنال كثيرًا من رضاء المدرس عنى وبعض تصفيق التلاميذ إخوانى بعد كل إجابة عندما يقول لهم المدرس صفقوا .. وكنت عكس كل من لهم علاقات نسائية فى المدينة منهم يتعثّرون فى دروسهم ومعاهدهم وكان كثير منهم يزاول الجنس مع بنت بائعة الفجل وغيرها اللائى ينتشرن فى البلدة، والذى ساعدنى فى تحصيل دروسى تلك التى عشقتها حيث إنها كانت حريصة على تنظيمى فى

استذكار دروسى، وكنت أحصّلها وأكتبها واسمُعها حفظى لجمل الإنجليزية وكلماتها .. وهل كنت صاحب مزاج لا أجيد تحصيل دروسى إلا فى ظل وجود منى بقميصها الكحلى أو الأسود والتى من خلال زغللتها لى أعشق كل ما فى جسدها من جغرافيا كل العالم الجميل ..

.. ولم يكن فى مدرستى كلها تلميذ نجيب ومجتهد مثلى وهو فى الوقت نفسه عاشق يعاشر امرأة خاصة فاتنة فى جمالها وولعها به .. إن مرعب المدينة فوق سطح مركز منوف الصول طوجنى قد جعل منى وليًا على بيته وأخًا لزوجته بكل حب ورضا .. ألست أنا حاكمًا من حكام هذه البلدة وأصغر عاشق فيها وأشطر تلميذ فى الصف الأول بمدرستها الثانوية ..

.. عندما كنت أقعد أمام الطبلية لأستذكر دروسى كانت تضطجع فوق الفراش عارية، كانت تحب أن ترى مدى اجتهادى وأنا أرى إغراء هذا الجسد، وكنت أشعر أن جسدها يكلمّنى بلسان مدرس الفصل فأقول له :

- خلّيك كده على طول للصبح علشان أذاكر ..

ولّما كانت ترى معانى الراحة فى عينى تقول :

- أخلّينى كده .. عاجبك جسمى .. حلو .. حد زيى ياحسن ..
- ممكن يكون فيه ست زيّك بس أنا بشوف مين ..
- لّما تتلخبط وماتعرفش تذاكر قولّى وأنا أقوم ألبس ..
- إذا لبست أروح أذاكر عندى ..
- يعنى إنت بتفهم أوى وأنا عريانة ..
- العالم كلُه بيتكشّف .. بتتفك طلاسم العلم لّما أشوفك زى الشجرة المليانة ورق .. الورق فى الشجرة إنت يامنى .. إنت حشيش من غير جوزة ..

- يالهوى أد كده أنا عندك على فكرة فيه ورق كتير فوق وتحت .. ماقدرش أنزع كل الورق .. بقية الورق إنت شيله لَّما تخلَّص مذاكرة ..
- أنا عايزك تبقى كده للصبح ..
- دى أول مَّرة أعشّش فى دماغك مانا كل يوم كده ..
- بس مش زى النهارده طريقة القاعدة واللبس دا غير شعرك اللّى سايب على كتفك ..
- يعنى أفهم إنّى المدرِّسة بتاع الليل ..
- إنت الدرس الخصوصى من جمالك وحبك بفهم كل السطور واللّى بينها .. وجُمل الفرنساوى الصعبة وكلمات الإنجليزى باحفظها من أول مَّرة ..
- على فكرة إنت مش تلميذ فى أولى ثانوى ..
- إذا نجحت هاروح تانية ثانوى ..
- ماقصدش .. أقصد اللّى بتعمله معايا مايعملوش راجل فى البلد كلّها ..
- ما هو الراجل التاجر والزارع والصانع لو مراته عملت له كده كل يوم مش هايزرع ولا يقلع ..
- على فكرة إنت مش واخد بالك .. دول كل حريمهم تعبانين أوى ولَّما الواحدة منهم بتقلع لجوزها مش بالمفتشى كده ..
- وليه مش بالمفتشى ..
- بتقلع لجوزها تحت الغطا علشان مايخافش منها ..
- بس أكيد فيه كتير من الرجَّالة متجوزين ستات حلوة ..

- ما هى المشكلة إن الرجّالة دى مالهاش دعوة بالجمـــال .. ولـــو عرفوا معانى الجمال مش هاينجحوا فى تجارتهم ومـــزارعهم .. ربّنا موزع الأرزاق ..
- طيب مش معنى أنا فالح فى المدرسة وإنت طول الليـــل قاعـــدة معايا عريانة ..
- إنت بقى مخّك عدلته كده ..
- وهوّ مخ العيّل الصغير يستوعب الحب والدرس مع بعض ..
- علشان تعرف .. إنت حاجة تانية غير كل تلاميذ المدرسة وعلى فكرة كل التلاميذ اللّى تعرف حـــريم فـــى الـــسن الـــصغيرة دى مابينفعوش فى المدرسة ..
- اشمعنى أنا بستوعبك مع دروسى ..
- مش كل تلميذ عبقرى زيّك ..
- على فكرة ممكن أنفع فى سنة أولى بس ..
- اللّى بينفع فى سنة واحدة ينفع فى كل سنوات الدراسة ..
- على فكرة أخويا وقرايبى بيجيبوا نسوان من السوق على الأقل كل أسبوع واحدة بيجيبوها ..
- دول لا يمكن ينفعوا لأنهم بيرمرموا .. الطلبة فى البلد كُلّها أسهل حاجة عندهم بنت بتاعة الفجل وبتاعة السردين الشوارع مليانة .. لكن إنت حاجة تانية ..
- على فكرة إنت بتشكرى فىّ على الفاضى أنا فى الأول والآخـــر عيّل عبيط وقع مع أول ست إدّته شوية حنان ..

- على فكرة لو مش الطوجنى إدّانى فرصة الحرية معاك أنا كنت هاقتله ..
- يعنى أنا اللّى منعتك عن قتله ..
- أنا كنت خلاص بدوّر عن خلاص نهائى معاه .. لا عيشة ولا طلاق .. عشر سنين بين الحيطان مسجونة وكان يا إمّا قتله يالمه الحرية اللّى بنفسه يحرسها .. هوّ على فكرة علشان يريّح نفسه بيعتبرك أخويا خاصة إنّك عيّل صغيّر لّما بتمشى معايا فى الشارع بتبقى زى ابنى أو أخويا فى نظرهم خاصة أنّك أبيض وحلو زيّى ودّمك زى دمّى وهّى لابسة كده معايا ومعاك ..
- الحاجة الغريبة إن السكان فى حالهم وماحدّش ليه دعوة بحد..
- هىّ دى المدينة مافيهاش المشاكل دى .. وعلى فكرة المشاكل دى موجودة فى القرى بس وياريت الناس فى كل البلاد يسيبوا الناس فى حالها وبلاش عُقد ..
- يعنى إنت عايزة الناس كلها تسيب على بعضها ..
- أبدًا .. مزايا الحرية .. كل واحد يبقى فى حاله أحسن بكتير من حشرية الناس فى حياة الناس ..
- وإيه اللّى خلاّك توصلى للأفكار دى ..
- عشر سنين من التقاليد والخوف من الناس والطلاق خلّت طوجنى اختار الحرية للّى تحافظ على بيته من الفضيحة ..هوّ رأيه كده ..
- إنت دلوقت بتدعيله ..
- بادعيله علشان سابنى أعيش وأختار حريتى وإن ماكانش عمل كده كان هايبقى قتيلى ..

- وهى دى الحرية ..
- الحرية اللّى بترضينى وترضيه ..
- لكن الحرية دى ماترضيش الدين ..
- ومين فى حياته بيرضى كل الدين ..
- الدين كبير أوى عن كل أمور الحياة الشديدة والصعبة ..
- الناس .. معظم الناس بتعيش الأول وبعدين بتفكّر فى الدين ..
- لكن فيه ناس مابتمشيش خطوة إلاّ بالدين ..
- الناس دى قليلة أوى ..
- بس أنا حاسس أن فيه ناس عايشة بكل الدين مع كل أمور الحياة وناجحين فى كده ..
- أنا أكبر منك بكتير .. عمرى ما حسيت كده ..
- على فكرة الدنيا واسعة أوى وكبيرة وكل واحد عايش مع حياتـــه وبيفكّر أنه كويس ومافيش حد بيحكم على حد .. لكن الضمير هوّ اللّى بيخلّى الإنسان يحاسب نفسه ..
- هىّ اللي متحكم فى ضميره هوّ ملك الدين .. لكن أنا شـــايفة أن كتير من الناس سابت ضميرها ..
- على فكرة أنا وانت من أول الناس اللّى سابت ضميرها وخـــدت أخلاقها إجازة وعاشت مع نفسها ..
- على فكرة أنا وانت بنتكلّم على الفاضى بين حيطان البيت ومعظم الناس بتتكلم عن الضمير والأخلاق وبس لكن مين اللّـــى عنـــده أخلاق وضمير ..
- شوف اللّى بيتكلّم مابيعملش حاجة ..

- وعلشان كده ياحسن بلاش نتكلّم لو اتكلمنا طـــول العمـــر عـــن الحاجات دى النتيجة صفر ..
- أمّال نعمل إيه ..
- نعيش من غير كلام .. والعمل والفعل أحسن كتير من الكـــلام .. مش إنت مبـــسوط وشـــاطر فـــى المدرســـة وفـــى الإنجليـــزى والفرنساوى لبلبة عايز إيه تان .. إنت تقدر تعيش مـــن غيـــرى ياحسن ..
- بصراحة أنا مش عارف أذاكر الليلة .. أعتبر نفسى فاشـــل فـــى المذاكرة ..
- علشان سبنا بعض نتكلّم كتير ..
- طيب أنا عايز أذاكر ..
- تعال جنبى ياحبيبى .. ياريت مانتكلّمش تانى ..
- لازم أتنّى جنبك على طول علشان عايز أذاكر كويّس ..
- والامتحان قرّب يافالح .. ريّحنى ياحسن علشان تنجح ..
- أنا عمرى ماهاتكلّم تاني ..
- تعرف حاجتين اتنين بس فى حياتك .. وسكتت ..
- قولى .. كملّى ..
- ماتخلّيش كلمة فى كتاب أو كراس إلاّ وتحفظها ..
- وإيه كمان ..
- أنا على طول أدّامك فى السرير لّما تخلّص مذاكرة على الطبلية.. وسكتت ..
- وبعدين ..

- تطلع عندى فوق .. أنا ياحسن فوق .. إنت عارف طبلية الـرَّى فى البلد أنا الطبلية اللّـى بتـروى أرض الفلاحـين .. ياحـسن ماتخلّيش فى حياتك إلاَّ طبليتين .. طبلية تحت للمذاكرة وطبليـة فوق السرير ..
- أهو إنت كده بتتكلّمى كتير ..
- مش هاتكلّم تاني أنا بس بعرّفك وتعرف من هنا ورايـح معنـى الطبليتين ..

****

- .. كان حسن محاريق أغنى تلميذ فى المدرسة يجلس خلفى، وكان دائمًا ينغزنى من ظهرى ليقول لى نكتة أو تريقة على عبدالرؤوف الزلبانى قائد حركة الانقلاب العسكرى، وكان حسن بطبعه يتجنَّب الحديث مع التلاميذ الفقراء فى الفصل ويميل إلى مصاحبتى رغم أننى لم أكن غنيًا مثله، وكان يجلس بجانبى تلميذ غلبان من منوف اسمه محمد العليمى وكان حسن يظهر قرفه منه لأن العليمي كانت عيناه مغمضتين على طول وكثيرًا عندما يتكلَّم تنزل ريالة من بقّه فيقول له حسن :
- ياعليمى لو عبدالرؤوف الزلبانى قالّك هاعمل فيك واعملك وزير ترضى .. يضحك العليمى وتنزل ريالته ولّما يكثر حسن من نغزه ليجيب عن سؤاله يقوم العليمى واقفًا ويرفع يده للمدرس ياأستاذ يا أستاذ ويشتكى حسن للمدرس بأنه يقول له كذا وكذا.. فيـضحك المدرس ملء فيه ويقول للعليمى :
- طيب ماتفكَّر ياعليمى ..

.. يضحك تلاميذ الفصل جميعًا ويقهقهون ثم يكمل المدرس درسه، ولم يكن أى من المدرسين يستطيع أن يتعامل مع حسن محاريق بحزم أو يجازيه على كلامه مع العليمى، كان جميع المدرسين يخضعون نفسيًا لسطوة ونفوذ وغندرة حسن محاريق لأنه غنى، وكل المدرسين يتمنون رضاه، لأن الدرس عند حسن أضعاف أضعاف تلاميذ المدرسة، ولم يكن هناك تلميذ فى المدرسة يأخذ دروسًا فى كل المواد غير حسن، وكان سائق عربة حسن يأتى من فيشا الكبرى يوم الدرس بالسيارة ليأخذ خمسة مدرسين من المدرسة جملة واحدة لإعطاء حسن الدرس الخصوصى فى بيته بفيشا ثم يعود بهم السائق إلى منوف بعد الانتهاء من دروسهم لحسن .. وفى يوم كان مدرس الجغرافيا منهمكاً فى شرحه فنغزنى حسن من ظهرى عدة مرّات لأسمع منه نكتة على عسكر الحركة وكيف سرقوا القصور فانقلبت خلفى وضربته على رأسه بقبضة يدى فهاج التلاميذ واندفع المدرس نحوى وهو يرفع الكرسى بيديه ليضربنى فوق رأسى وقمت إليه وأمسكت الكرسى بكلتا يدى ورحت أدفع بالمدرس إلى الخلف حتى لزق فى التختة (سبورة الفصل) ثم نزعت الكرسى من يديه وأمسكت نظارته وخلعتها من عينيه، وألقيت بها من شباك الفصل .. وفى دقائق كان المدرسون وبعض التلاميذ من فصول أخرى قد ملأوا الفصل وأخذوا المدرس بعيدًا وأنزلوه إلى إدارة المدرسة ومضت دقائق أخرى حتى جاءنى وكيل المدرسة أنسى شرشر من سرس الليان ليأخذنى إلى غرفة ناظر المدرسة على جعفر من كفر المصيلحة .. وجدت المدرس قاعدًا يمسح فى عينيه والناظر ينظر نحوى هازًا رأسه مندهشًا وأنا واقف أمامه ورأسى تمتلئ بالغضب من كل المدرسة وقال الناظر شاخطًا فىَّ :

- إزاى تضرب المدرس وترمى نضارته بالشكل ده إنت مجنون..

- أنا اتعلمت لوحد اعتدى عليَّ .. على الأقل أدافع عن نفسى ..

هوَّ فيه مدرس يضرب تلميذ بالكرسى ..

ونظرتُ شذرًا نحو المدرس .. فقال الناظر :

- بص لى أنا هنا ..

وقال موجهًا كلامه للمدرس :

- وانت إزَّاى تتهجَّم بالكرسى على التلميذ ..

ارتبك المدرس وهو مازال يدعك فى عينيه بأصابعه ..

- ضرب حسن محاريق على راسه

هَّز الناظر رأسه وقال للمدرس فى سخرية :

- بتدِّيه درس ياعزت ..

- آى بِّديه درس ..

- وعلشان كده جيِّت تجامل حسن أوى على حساب هذا التلميذ..

- التلميذ دا شوية شايف نفسه وفارد عضلاته فى الفصل ..

- برضه مانتهجمش عليه بالكرسى .. ممكن تضربه بالمسطرة أو توبِّخه .. مافيش ضرب فى الفصل ..

- اللى حصل ..

فتابع الناظر قائلاً للمدرس :

- شوف إنت غلطان فى منتهى البساطة أحَّولك للتحقيق لأنك غلطان

.. ثم نظر إلىَّ الناظر بقوة وقال وهو يشخط :

- وانت ممكن تتزفت .. لو عملت كده تانى هارفتك ..

- لأ هاعمل .. لَّما مدرس يفكَّر أنه يعتدى عليَّ مش ممكن أسيبه..

- إنت منين ياولد إنت ..

- من شنشور ..
- من عيلة مين ..
- أبو عافية ..
- يانهار إسود من "أبو عافية"..
- أيوه ..
- مارحتش مدرسة أشمون ليه ..
- جيت هنا عشان أخويا فى مدرسة ظاظا ..
- أبوظ مدرسة ولمّه البايظين فى المحافظة ..

.. هزّيت كتفى وكأنى أقول له وأنا مالى .. وراح الناظر يهزُّ رأسه وقال للمدرس:

- طيب روح إنت ياأستاذ عزت ..
- وحقى ..
- إنت غلطان والتلميذ غلطان عايزنى أحوّلك للتحقيق ..
- والتلميذ ..
- نرفته .. عايز الأمور توصل لكده ماشى ..
- اللّى تعمله ياسيادة الناظر ..

وانصرف المدرس وبقيت أنا مع الناظر الذى أبدى إعجابه بى قائلاً :

- إنت عملت اللّى كنت عايز أعمله ..
- إزّاى ياسعادة الناظر ..
- شوف ياحسن مش عايزك تعمل كده تاني وإلاّ هارفتك ..

وأمسكنى أنسى شرشر من ذراعى وهو يقول للناظر :

- على فكرة ياسعادة الناظر المدرس ده ضرب كذا تلميذ بالكرسى قبل كده ..
- أنا عارف ..وعلشان كده أنا زنَّقت عليه وعلى فكرة حسن بالدفاع عن نفسه بالشكل ده أعتقد أن المدرس مش هايعمل كده تاني ..

وأخذنى أنسى شرشر من يدى حتى أوصلنى إلى الفصل وما إن جلست فى تختتى حتى جاء التلاميذ يصافحوننى بحرارة..وجاءنى حسن محاريق وقبَّل رأسى قائلاً :

- إنت حبيبى ياحسن .. أنا مبسوط منك علشان ربَّيت المدرس..
- وأنت مش زعلان منِّى ياحسن ..
- أبدًا .. المثل بيقول إيه .. ضرب الحبيب زى أكل الزبيب ..

******

.. كنت أحكى كل ماجرى لى فى المدرسة عندما أعود إلى البيت، ولَّما أخبرت منى بما حدث لى هذا اليوم قالت وأنا أجلس معها نتناول الغداء :

- هذا حال المدرسين .. العنف مع التلاميذ ..
- المفروض المدرس يكون حكيم وعادل زى الحاكم ..
- ولا حاكم ولا مدرس نافع فى البلد دى ..
- المدرسين فى القرية زى المدرسين فى المدينة ..
- قرأت فى كتاب أن الراعى يُحكم قبضته على أغنامه فى الصحراء لترعى حتى تشبع وفى الوقت نفسه يحميها من الذئاب واللصوص .. والمدرس الذى يجب أن يكون مثل الراعى يدخل الفصل وكأنه يتشاجر مع التلاميذ .. يدخل وأعصابه سايبة وعلشان كده بيفكَّر أنه لما يضرب تلميذ على أى خطأ كده هايحكم

الفصل .. هيَّ المشكلة عندنا مدرس أو غير مـدرس ماتربَّـاش كويس وهوَّ صغير ..

- أى واحد هايتربَّى .. الواحد من الناس أبوه بيكرشه من البيت إنه يفُك عنه ويلاقى له لقمة عيش بَّره البيت .. الفقر والحاجـة فـى البيوت بتخلّى كل اللّى فى البيت فى توتر فيأتى بعد ذلك كل شيء مرعوش سواء كان مدرس أو موظف أو فلاح ..
- التوتر وعدم الأمان والهبش والنصب والشعارات والصوت العال أهم ما يميز بلدنا عن بلاد أخرى .. لأن الذين يحكمون يسرقون ويلهون الناس فى الخوف والرعب والشخط لأنهم بعد أن يسرقوا ليس لديهم شيء يقدمونه للناس غير الكذب والخداع ..
- إذًا لا لوم على التلميذ حين يدفع المدرس، ولا لوم على المـدرس المتهور، ولا لوم على الصول الطوجنى حين يضرب ويزعق فى المجرمين فوق سطح المركز، ولا لوم حين لا يذهب أخى إلـى المدرسة وينخرط فى شلة الحشيش .. ولا لوم علىَّ حين أعـشق منى وأشرب الحشيش ..
- ياحسن ماتساونيش بالناس دى أنا وأنت حاجة تانية .. قوم إغسل إيدك وتعال نام شوية علشان تعرف تذاكر بالليل ..
- هيَّ المشكلة إن كل واحد بيفكَّر أنه صـح وأنـه حالـة خاصـة وعلشان كده تلاقى المجتمع أشتاتًا أشتوت ..
- اتعودنا نلاقى ميت ظاهرة وميت صوت عال وميت شحات وميت عربجى وميت حنطور وميت ..

- كفاية مَّيات يامنى أنا نفسى دلوقتى ودخل مزاجى أركب حنطور.. علشان آجى البيت أنام كويس أوى وأذاكر لغاية الصبح ..
- وإيه كمان ..
- وإيه كمان ..
- وتحبّنى ..

****

.. كما كان النهار ينجلى أمامى وتسطع الشمس فى شوارعه وأنا قاصد مدرستى كل صباح كان الليل ينطوى كأننى أمسك عصا سحرية أقلّبها على كل الأجناب فأجدها امرأة عاشقة تلتوى تحتى وفوقى وجنبى كالثعبان الذى حواه الحاوى وجعله عبدًا طائعًا له فى أمر من أمور تلك الليال الساحرة التى تجعل من حياتى مسخرة تحت إرادتى التى لا أعرف كيف أتتنى تلك الإرادة والتى تخدمها تلك المرأة، والتى كلَّما قلت لها شيئًا فعلته من أجلى، ارتدت عباءة سوداء زادتها سحرًا فوق جلباب أسود بسفرة وكان كعبى رجليها أبيض لامعًا نقشته بنقوش الحنة الداكنة الحمراء وطلت أظافر قدميها بطلاء الأظافر البرتقالى ولفت شعرها المنثور بتربيعة سوداء رقيقة ربطتها بشريط حريرى أزرق .. ودهنت وجهها بكريم نيفا ومسحت بأحمر الشفاه فيها بعد أن سوَّت بالكحل عينيها بطرف أناملها الرقيقة وقَّصت بمقص مكياجها الصغير فى حجم ملقط النتف شعيرات فى حاجبيها الأسودين الكثيفين، ومثل كل نساء القرى مهما تعطرَّت من عطور حوانيت المدينة فإن عطرها المفضل هو عطر عتريس العطار الذى يلف به كل أسواق قرى المحافظة .. ولا أستطيع أن لامرأة هى فى أول السطر حتى آخره عاشقة أن تغيِّر ملابسها الداخلية قطعة بعد أخرى أمام هذا الغلام الصغير فذلك جزء من تهيئته لليل وقعدته لتسحره بشبابها وجمالها الذى تتحدى به مدينة غافلة وجاهلة بكل أساليب الحب، وقلت لها ونحن نتأهب للخروج إلى ميدان المحطة لنركب الحنطور:

- لماذا كل هذا يامنى ونحن نذهب لنركب حنطور بغل أو فرس..
- إننى لا أستطيع أن أذهب إلى أى مكان وأنت معى إلاَّ وأنا فى قمة زينتى

- إذا فعلت أى امرأة فى زينتها وقضت كل هذا الوقت فى تجميل نفسها وهى تذهب إلى السوق أو الحنطور لتعطلّت الحياة وانتظرت طويلا حتى تكمل النساء زينتها ..
- ليس كل نساء البلاد يفعلن ذلك ولكن بعضهن أما أنا وأنت فلنا خصوصية تختلف عن كل النساء والرجال ..
- إننا نقضى كل الوقت من أجل شيء واحد ..
- ليس فى حياتى إلاّ شيء واحد هو أنت .. لا عندى عيّل ولا تيّل.. هل تعلم أن فى مدينة منوف كثير من الهبل ولاد وبنات أكثر من أى بلدة أخرى ..
- لا أعلم .. إن فى قريتى كثيرا منهم ..
- ولكن ليس فى كثرة هذه المدينة ..
- لماذا ..
- إن كل هم أهل هذه المدينة رجالاً ونساءً هو القرش .. إنها أكبر مدينة تجارية فى المحافظة .. إن الرجال والنساء فيها لا يهيأون أنفسهم إلى الدخول فى الحب وليس عندهم ليال ممتعة فى الذهاب إلى المتعة الجميلة التى يجب أن يتمتع بها الرجال والنساء فى أى مدينة أخرى ..

ولذلك فإنك تجد أنهم يخلّفون هبلاً وعبطا كثيرين وكثيرات؛ لأنهم لا يتهيأون للحب فى اللقاء بين الرجل والمرأة إنهم يؤدون هذه الحاجة فى كثير من العجلة واللهبجة كأنهم يترجلون فوق ظهر حمارة فى عجل للذهاب إلى الغيط أو زريبة البهائم ..

- كفانا كلامًا عن الناس يامنى إن علينا أن نذهب لنركب الحنطور..

.. سَحَبتْنى من يدى كما تسحب الأم ابنها وتمسك به فى الطريق خوفًا عليه أن يخطفه أحد، وفى ميدان القيسارية أجلستنى حول عربة الكوارع وتناولنا شربة وسلطانية مملوءة بظفر العجل وقالت وهى تفرغ مخ الكارع أمامى .. كُل هذا .. وبعدها أجلستنى حول عربة الحلويات (المشبّك والبسبوسة وجوز الهند) وبعدها عربة حمص الشام وختمنا بعربة التمر هندى والسوبية والعرقسوس ..

.. لم أكن أعرف أن امرأة مثل منى تملك هذا الجسد الرشيق تأكل وتشرب كل هذا وأنا معها فى جولة بين عربات الطعام المنتشرة فى ميدان القيسارية فى أول مدخل مدينة منوف .. وقلت لها :

- لم أعد أستطيع التنفُّس ..
- الحنطور سيهضم كل ما أكلناه ..
- إلى أين نذهب ..
- نذهب إلى شارع المستشفى ثم نلف به إلى شارع داير الناحية .. يلف بنا منوف كلها إننا فى حاجة أن نهضم كل هذا الطعام ..
- الحنطور مثل مكنة الطحين .. هو جزء من مزاجى فى منوف..

.. كان أهم ما فى هذا الميدان المقهى الكبير الذى يقع فى منتصفه وعربات الطعام والشراب التى تلف دائرته تشكلّ سوق كل أنواع الطعام السفرى، وكأن مطاعم البلدة قد فتحت لها فروعًا فى تلك الأكشاك المكشوفة عند مشارف المدينة .. جلبة العربات والعجلات يعلوها دبكة الحناطير .. شخلِلْ شخاليله .. شخلول شخلِلْ ياحنطور عمرك ما تدور من غير منيرة وفارس ودعدور وغادة وجميلة بغلة كانت أو فرسة أو حتى زرزور .. عجلة

وعجلات مصنوعة من خشب الزان ملفوفة بصاج مطلية بلون فضى أو نحاسى أو أحمر بلون طربوش صاحب الحنطور وجرس مدندش يمين وشمال مدندش زى طرطور العيد فوق رءوس الأولاد والبنات .. سرج الفرس والبغل والزرزور متزين بكل الألوان زى علبة ألوان الرسم فى مدارس الإعدادى .. الحنطور فى البلد دى مولد مدندش جاى رايح فى كل شارع وحارة وميدان وصاحبه آخر مزاج بالذات لما يقعد يريِّح الحصان ويحط له شوية برسيم يأكل جنب القهوة وهُو قاعد ياخد شاى ويعدل مزاجه بكرسى معسل يخلّى دماغه مستريحة طول الليل والنهار .. كلُّه بياكل عيش فى الميدان وبيعدل مزاجه بشوية برسيم للبغل وحته بسبوسة وكوباية حمص الشام وآه من السوبية والتمر هندى وجوز الهند والمشبّك .. مافيش بعد دا كله جمال ومزاج ..

.. كان لابد لى أن تختمر رأسى بكل ما يجرى فى هذه المدينة العامرة ولا يعلو مزاج مزاجى فى ركوب الحنطور هو بالنسبة لى عشق لهذه البلدة عندما يلف ويدور حول هذه المدينة بداية من شارع المحطة حتى آخر شارع المستشفى المؤدى إلى قريتى تتا وغمرين ثم يعود بنا إلى شارع المدرسة والمركز مارًا بالكنيسة القديمة العامرة برنين أجراسها صباح مساء فتملأ الحى ذلك الصدى الذى يدفع المصلين كل أحد يدقون بابها حرصًا على أداء صلاتهم .. حرص على الحياة يداخله حرص على الصلاة واستعدادات للامتحان وأجازات تبدأ خلال أيام ليعود التلاميذ إلى بلادهم للاستذكار قبل الامتحان ومعامل تصنيع المعسل والدخان الفرط ومطاعم الفول والسمك ومصانع السردين والرنجة والفسيخ وورش الحصير والخشب وتنعير الجاموس والبقر فى شوارع وحارات حتى تصل إلى سوق السبت الذى

يذهب إليه أهالى القرى المجاورة وأهل منوف للشراء والبيع .. كل شيء فى مدينتى هذه يعلو وينتشر فى كل أرجاء المدينة التجارية إلاَّ صوتى وأنا أعلو بصوتى فى لغة واحدة .. الحنطور الحنطور هو قمة كل معانى ومظاهر الجمال والحب فى هذه المدينة لدرجة أننى أقول وأهتف بصوت عال لا صوت يعلو فوق دبكة الحنطور وجرسه وفرسه ودندشته ..

ياحنطور يادحدوح خدها وروح فى القمره والباب مفتوح .. ياحنطور خدنى وروح ودِّينى فى بلد مطرح ماطروح أنا وياك .. خدنى من ليلى ونهارى خدنى من منى ودِّينى لبلد تانية فيها أعيش أنا وأنت ماحد تالتنا ياحنطور افهم حس خدنى وروح فى بلد بعيدة عن منوف بعيد عن منى وحبها المجنون ..

.. انطلق الحنطور مَّرة يهَّدى ومَّر يسْرع حسب حركة الشارع أمامه وأمسكت بكف يدى وضغطت عليه ووضعته فى حجرها وابتسمت ابتسامة لا تنقطع وكأنها تؤكد باستحواذها على كفّى أنها تملك كل أداة فى جسدى وشعرتُ بأن امتلاكها لأصابعى ومداعبتها لأصابعها حركة من حركات الوصال المهمة مثل تسبيل رموش عينيها الكحيلة فى عيونى وكان كل جزء فى جسدها يحكى لنفس الجزء فى جسدى ولأول مرَّة أفهم أن للحب حكايات وللعشق أحوال تبدأ عندما تنتهى حكايات الشوق والهمس واللمس .. وكان الحوزى ينهمك فى سياقة حنطوره فقلت لها عندما مهمه الفرس ثلاث مَّرات وزعق فيه صاحبه .. شيه .. صلّى :

- جسمى بيعرق أوى .. العرق جامد أوى وطالع راسى .. حتى شوفى .. حسِّسى ..

وغطت بكفها جبينى ولامست حبات العرق الغزيرة التى ملأت وجهى ثم راحت تنشّف وجهى بمنديلها وقالت :

- مالك فيه إيه .. نروَّح كفاية هوَّ الحنطور تعبك ..
- لأ .. أنا جسمى بيرتعش حتى شوف ..

وفى لهفة أدخلت أصابعها إلى صدرى فأمسكت بغزير العرق ينضح به شعر صدرى وصرخت فى همس :

- لأ .. لازم نروَّح .. إنت دايخ ..
- حاسس بإغمائه .. ياللا نرجع عايز أتغطى ..
- يالهوى .. يالهوى ارجع ياسطى .. ارجع عند المحكمة القديمة..

.. وألقى بمؤخرة رأسه للخلف لتلقفها بكف يدها وباليد الأخرى خلعت تربيعتها فهاش شعرها تحت الطرحة وقالت :

- دى مافيهاش كسوف لازم أربط راسك .. هالْم راسك.. راسك مفتوحة ..

وترك لها رأسه التى ترنحَّت فأخذتها إلى صدرها واحتضنتها، وسالت دموعها من خديها حتى نزلت فوق جبينه فقال لنفسه دون أن تسمعه .. دى تاني مرَّه تلاقينى منى وأنا عيَّان .. دى فعلاً حبيبتى .. كنت هاعمل إيه من غيرها .. نزلنا إلى دارها وهى تحتضننى بذراعها واستلقيت على فراشها وغطتنى، وانقلبت إلى الشارع واشترت نفس الدواء الذى تعاطيته من قبل، سمعت قفلها للباب وهلعت نحوى بالماء والدواء، وتناولت جرعة منه وكُنت أرى أصابعها بصعوبة وهى تدسُّ البرشام فى فمى وأحكمتْ الغطاء حول جسدى ثم دخلت معى فى الفراش وهى تشدُّ رأسى تحت وجهها تتجسَّس أنفاسى حتى غطس أنفى فى كحل عينيها ثم أحكمت التربيعة حول رأسى وأعادت ربطها .. كانت تنهج وتتلهف وتقول ولم يمكننى الرد عليها كان النعاس يدخل إلى رأسى ثقيلاً قابعًا :

- يالهوى إيه اللّى جرى لك .. كنت كويس .. طـوجنى حـسدنا.. ينطس فى عينه اللّى زى الظرف ..

وبصعوبة قلت :

- قال إيه طوجنى ..
- أنا شايفك مبسوطة أوى .. هوَّ عاملّك إيه ..

.. بعد ذلك كان صوتها يملأ الغرفة تكلّم نفسها وأنا أذهب إلى عالم آخر فى غيبوبة ارتفاع الحرارة والعرق مع مفعول الدواء، وكنت أشـعر بتحريـك أصابعها فوق جسدي وكأن ذلك الجزء منه لم تدخل إليه همسة مـن بأسـى واعتقدت حين اشتد الألم بى فى الهزيع الأخير من الليل أنه لولا أصـابعها لأصابت درجة الحرارة العالية دماغى بالانفجار ..

.. ورأيت فى أفقى عندما اندلشتُ فى شخير الحمى برجل يرتدى جلبابًا مـن جلاليب الفلاحين يقول لى :

- أترى إن الرزق عندك زاخر بالنساء .. الرزق ياصديقى يقول .. ليس الرزق الذى يأتيك خبزًا ومرقًا .. إن رزقك مع منـى لـن يقطعه إلاَّ الشديد القوى .. فى مدينتك التى تعيش فيها لا يوجـد غلام فى مثل عمرك تمرِّضه امرأة بهذه اللهفة وهـذا الحـب .. وسكت .. فقلت له :
- من أنت ومن أدراك بحالى .. هل تنام فى دولاب غرفتنا حتـى تعلم بحالى ..

اختفى الرجل وكأنه يطير نحو النافذة ودخل نافذة شقة أخى المقابلة لنا وكأنه يخبره بشيء .. ويبدو أنه لم يجد أحدًا فى بيت أخى فعاد إلىَّ ثانية ليخبرنى :

- أخوك والعيال روَّحت البلد ..
- معقولة من غير ما يقولّى سافر ..
- علشان إنت بقيت فى عالم تاني .. سابك وروَّح لأبوك وأمك..
- ياترى قال لهم إيه عنّى ..
- بيذاكر فى منوف ..
- ماقالش حاجة تانية عنّى ..
- سألوه بيروح عند الست قال لهم الحبر حلبانى .. لم يأخذوا منه شيئًا .. إنه أول طفل فى المنطقة يفر من الإجابة على أى سؤال وهوَّ بكيفه ..
- يعنى إيه معنى الحبر حلبانى .. قال لى كتير الكلمة دى وكلام زيّها وينصرف ..
- هوَّ نفسه محيَّر أبوه وأمه من الكلام ده ومش قادرين ياخدوا معاه حق ولا باطل ..
- ياترى بيذاكر ..
- أخوك وهوَّ صغيَّر كان بيحب القطط والكلاب ودلوقتِ .. وسكت..
- دلوقتِ بيحب إيه ..
- بيحب المعيز والحمير الصغيَّرة (الجحوش) ..
- عندنا منها كتير ..
- لأ ماراحش عندكم .. دا راح عند ولاد شرارة ..
- أسمع عنهم دول بيتاجروا فى البهايم ..
- دول أكبر ناس فى منطقة أشمون كلّها بتتاجر فى الوقيع..

- يعنى إيه الوقيع ..
- الجاموس والبقر الناشف اللّى من غير لبن والعيانة مـن عجـول وغنم ومعيز وحمير .. وسـاعات بيـدبحوا العَيانـة ويبيعوهـا بالرخيص للناس الغلابة ..
- وعبدالعزيز بيروح ليه عند تجار بيتاجروا فى العيَّان ..
- أخوك عايز يتعلّم التجارة وهَّم بيرحبوا بيه بيقولوله يامعلّم علشان عينهم على البرسيم ..
- مش فاهم ..
- مش أبوك زارع خمس فدادين برسيم .. عـايزين واحـد زيُّـه يضحكوا عليه بأنه معلّم علشان يملكوه فى إيديهم وياخدوا البرسيم بالرخيص والشكك وبعدها تعال قابلنى على كوبرى الليمون ..
- إنت بتحبُّه ..
- أيوه ..
- ابعده عن ولاد شرارة ..
- نصحته كتير ومش عايز يرجع .. ولاد شـرارة دول عفاريـت بيتاجروا فى التراب وعبد العزيز بقى عندهم فاكهة لأن البهـايم كتير وعايزه برسيم ..
- أبوك مشغول بعُطر العرايس وأحوال الستات الأرامل والمطلَّقات عايش فى عالمه القديم ..
- ومش شايف عبدالعزيز ..

- شايفه لكن سايبه حتى أن عبدالعزيز قال له مش رايح المدرسة وهاشتغل مع ولاد شرارة أبوك قال له إنت حر روح مطرح ماطروح وساب له بيع البرسيم ..
- كده عبدالعزيز هايضيَّع إيراد البرسيم دا أبويا أشهر واحد بيبيع برسيم فى البلد ..
- علشان باع البهايم كلّها مافيش عنده دلوقتِ غير الحمير وشوية معيز ..
- طيب إزَّاى أبويا يسيب عيِّل يضيَّع المال والزَّاد ..
- أبوك مش قادر عليه وقال له إنت حر يابنى ..
- فى منتهى البساطة كده ..
- أبوك بيحب الحرية .. عايش طول عمره يعمل اللّى عايزه..
- بس عبدالعزيز هايخربها .. يعنى هو كده خد فى وشه ومش هاييجى مدرسة ظاظا تانى ..
- مدرسة ظاظا لمِّت كل العيال اللّى أدمغتها طقَّه فى البلد كلّها ومصيرهم كلُّهم هايتفرَّقوا ..
- شوف لا ظاظا ولا تاتا فلوس بتتدفع على الفاضى ..
- هىَّ ليه العيال دى بايظة فى المدارس كده ..
- علشان ولاد موسرين وكل العيال دى فاقده وبتوع حشيش من صغرهم ..
- لكن عبدالعزيز ماشربش حشيش قبل ما ييجى منوف ..

- علّمه سيد ابن عمك وعلشان كده هوَّ غاوى ولاد شرارة لأن قعدة الحشيش عندهم كل يوم وهايعلّموه حاجة يمكن تنفعه ويبقى تاجر وقيع ..
- وفين عمى محمود اللّى كان دايمًا بينصح أبويا ..
- عمك محمود كبِر ومش قادر على ولاده ..
- وأبويا دردير مابيقولش حاجة خالص ..
- أبوك دردير سبعة إردب تمانية إردب بكفاية عليه فنّش ..
- وانت راخر عارف حكاية فنّش ..
- أبوك دردير طور الله فى برسيمه خرَّج ابنه من زمان ..
- ليه الناس دى مش حاسه بالمعاش والفلوس والأرض اللّى خدوها من بعد أجدادهم ..
- الناس دى كلّها غندوره نزيهة بتعيش يومها وخلاص ..
- وبعدين ..
- الناس دى هاتبيع أرضها كلّها والعيال هاتتفرَّق لَّما سنة ألفين تيجى كل الدنيا اللّى حواليهم دى هاتمشى وتروح لناس تانية ..
- يانهار إسود ..
- وهاتسوّد النهار ليه ما تشوف نفسك ..
- أنا شاطر فى المدرسة ..
- وبتعمل إيه هنا ..
- مش المفروض الواحد يكون له فى كل بلد حبيب ..
- آه ياحسن .. إنت رايح على فين ..
- بصراحة مش عارف ..

- طيِّب ياحسن إنت مش هاتخف هنا الحمَّى عندك جامـدة أوى .. روح مستشفى منوف من بدرى ..
- يانهار إسود مش هاخف ..

*****

.. من أين جاءتنى الحمَّى ؟ أهى حمَّى الحب الشديد والعرق الغزير ولطشة برد من عرى جسدى وقت اللقاء العنيف .. فى صباح اليوم التالى حملتنـى منى إلى مستشفى منوف؛ حيث دخلـت بدرجـة حـرارة تـسعة وثلاثـين وشرطتين، أدخلتنى بالدرجة الثانية غرفة بها سريران لتكون مرافقة لـى .. وتحَّركت الحبيبة فى مكاتب المستشفى من أجل أن يلحقونى بكل ما هو فعَّال لسرعة تنزيل الحرارة .. ودريت بالممرضة وهى تعطينى حقنة بعدها لم أدر بشيء .. وانتهزت منى فرصة نومى وذهبت إلى زوجها فى المركز لتحصل منه على مزيد من النقود، وكان الرجل مشغولاً بكبسة على تاجر حشيش .. وحملت منه سلامًا علَّى مع النقود، وعند الظهر استيقظت فشعرت بأن الثُّقل فى رأسى قد خفَّ قليلاً، وقامت المرافقة الرقيقة بعمل شراب ليمون وسقتنى بعض الماء وجاءنى الطبيب وكتب لى روشتة علاجى الدائم وحرَّرهـا فـى كارت لصق بلوح من الصاج علَّقته منى بحرف السرير ولَّمـا مـرَّ ثانيـة أوصت الممرضة بى خيرًا وذهبت إلى بيتها لتسلق أرنبـة وعملـت معهـا شوربة مكرونة وفى أثناء قفلها الباب لتعود ومعها حاجياتها التـى أعَّـدتها لحسن وجدت عبدالعزيز شقيق حسن يفتح باب الشقة فقالت له :

- يا عبدالعزيز حسن فى المستشفى ..
- يالهوى أخويا .. فيه إيه أخويا حصل له إيه ..

- ماتتخضّش شوية ارتفاع فى درجة الحرارة .. إنت مش كنت سافرت البلد ..
- جيت آخذ رقم جلوسى وراجع تاني ..
- هاتيجى لأخوك ..
- إدينى العنوان ..
- مستشفى منوف للحميات الدور الثانى غرفة خمستاشر ..
- ساعة هاكون وراكِ ..

.. وفى شارع القيسارية تجوّلت منى فيه لتشترى البرتقال والليمون وركبت حنطورًا إلى المستشفى وهى جد متلهّفة على الصغير، وكانت مشغولة بهاجس فى نفسها يتمنى ألاَّ يكون حسن قد استيقظ .. طلعت الدور الثانى متقطعة الأنفاس ودخلت الغرفة وهى تندفع إلى سريره فى لهفة القلب الملهوف على حبيبه وقبّلته فى جبينه ويديه فرمشت عيناه فوجدها أمامه فهمس :

- كنت فين ..
- بجيب حاجات عشانك ..
- ماتسيبنيش تاني ..
- حاضر ..

وانقلبت إلى غرفة التمريض سألت كبيرتهن :

- عايزة ترابيزة أحط عليها الأكل ..
- أكل إيه اللّى جايباه ..
- أرنبة مسلوقة وشوربة وليمون وبرتقال هُو دا كل الأكل ..
- برافو هوَّ دا أكل عيَّان الحمى ..

- أنا عارفة كويس ياكل إيه ..
- طيِّب وأكل المستشفى ..
- لأ لأ .. مش عايزينه ..
- إحنا هانصرفه ونجيبه له لَّما مايأكلوش دى حاجة تانية..

.. نقدت الممرضة الصغيرة ربع جنيه جزاءً على تزويدها بمنضدة للطعام .. فرشت ورقة جرايد فوقها ثم وضعت أطباق الطعام وتحايلت عليه ليأكل بعضًا منه بالعافية وكان يردِّد .. لأ لأ .. ماليش نِفس مع كل لقمة تضعها فى فمه .. ومضى بعض الوقت استلقت بعدها منى فوق سريرها المجاور لسريره واطمأنت عليه لَّما راح فى النوم ومرَّ وقت آخر فيه راحت منى فى سِنة من النوم .. وفتحت الممرضة باب الغرفة فى رفق وهى تقول :

- اتفضل تعال إنت أخوه ..
- أيوه أخوه عبدالعزيز ..

.. قامت اليه منى قائلة :

- تعال اتفضل .. اقعد يا عبد العزيز ..

قعد عبدالعزيز على حرف السرير وراح يتأمل وجه أخيه وقال لمنى :

- هَّو عنده إيه ..
- ارتفاع فى الحرارة .. شوية سخونية .. ولم يهن على نفسها أن تقول حُمَّى ..

وكان عبدالعزيز قد وضع لفَّة فى شكل ورقة اللحمة على الترابيزة فقالت منى وهى تتأمل اللفة .. فيها إيه دى وكانت تشم رائحة غيَّرت هواء الغرفة :

- إيه ده يا عبدالعزيز ..
- سردين ..

- لمين ..
- لحسن ..
- يانهار إسود يا عبدالعزيز هوَّ اللّى عنده سخونية ياكل سردين..
- أنا جبته علشان هوَّ بيحب السردين ..
- كتَّر خيرك .. علشان تعرف عيَّان الحمَّى عمره ما ياكل سـردين ولا رنجة الحاجات دى تعييه أكتر وترفع درجة الحرارة ..
- والله ما عرف .. أنا جبت حاجة بيحبها وخلاص ..
- إنت طيب يا عبدالعزيز خد اللَّفة وأنت ماشى ..
- خلاص .. طيب أنا ماشى دلوقتِ ولَّما يصحى قوليله إنى جيت ..
- ما تقعد شوية لَّما يشوفك ..
- علشان ألحق آخر أتوبيس رايح عندنا ..
- ماتقولش لحد فى البلد ..
- علشان يجيبوا له أكل ..
- ماتعيلش هم كل حاجة أنا بجيبها له وعلـشان بتـوع البلـد مـا يتجلببوش ..
- الحبر حيَّانى ..
- يعنى إيه ..
- البركة فيك ..
- دمَّك خفيف يا عبد العزيز ..
- على فكرة أنا قلت للعيال اللّى فى الشقة واديتهم العنوان ..
- يعنى ممكن ييجوا النهارده ..
- أكيد لأنهم هايروَّحوا كلُّهم النهارده ..

- وكانوا جايين فى إيه مروَّحين فى نفس اليوم ..
- علشان أرقام الجلوس ..

.. وراحت منى تقهقه ربما يسمعها حسن لتحكى له حكاية سردين عبدالعزيز، تربست الباب وشعرت بالتعب من قلة النوم والمجهود الذى بذلته طيلة اليوم واستلقت فى سريرها وذهبت فى نوم عميق كانت فيه تتقلب وتقول :

- آه يابتوع البلد .. البراءة والفطرة .. سردين .. ما هو عبدالعزيز طفل عارف إيه فى الدنيا غير السردين اللّى كانوا بيتوحموا عليه فى البلد ..

.. ولَّما وصل عبدالعزيز الشقة وجد حمدى هنطش أحد عيال ظاظا يتأهب للذهاب إلى حسن فى المستشفى .. وكان حمدى قريبًا لعبد العزيز وهو ابن أشهر شرِّيب حشيش فى البلد وهو لا يفرق عن باق تلاميذ ظاظا فى المذاكرة .. يُقعد طول اليوم يقرأ النصوص والشعر بصوت عال حتى يسمعه حسن ولَّما ينتهى يجرى إلى حسن فى غرفته قائلاً :

- شفت بقى بذاكر نار علشان تقول لأبويا إنى مش بايظ ..

فيقول له حسن وهو يهزُّ رأسه :

- وهىَّ المذاكرة شِعر بس ياحمدى .. طالما ذاكرت بصوت عال يبقى مش نافع ..

فيعود حمدى إلى غرفته وهو يبكى لأنه يريد أن يستمر فى مدينة منوف فهى بالنسبة له جنة وهروب من شُغل الغيط (تحميل الحمارة رتش وعزيق الزريبة إلى آخر أعمال الغيط القاسية)..

.. ذهب حمدى إلى مطعم فول أبو النور واشترى بتعريفة طعمية ورغيفين عيش ولفُّهم فى ورقة كرَّاس وذهب إلى المستشفى لزيارة حسن ..

.. كان حسن قد استيقظ من نومه وفاق قليلاً وشعر بأن رأسه لم تعد ثقيلة وحرصت منى على تناوله بعض الطعام فطاوعها وشرب شوربة ونساير من الأرنبة قطعتها له ليسهل تناولها .. وجاءته الممرضة وأعطته حقنة وحبَّة برشام.. وأمسكت منى بكف يده وهى تجلس ملاصقة له وراحت تقبّلها وتدعو له مع كلمة روح قلبى التى أضفت إلى نفسه راحة سرت فى داخله ولم تتخلَّ منى عن شقاوتها فداعبت بأصابعها جسده قائلة :

- إزى عتريس .. حلو .. عايزه أطمَّن عليه ..

راح حسن فى نوبة ضحك حتى أته سعل كثيرًا فاحتضنته وارتمت على صدره وهى تقول :

- لأ ياحبيبى .. لأ ياحبيبى بلاش عتريس .. أنا وحشة ياحسن..
- لأ يامنى كله تمام .. لو كل حاجة فيَّه ماتت عتريس جن عمره ما يموت ..
- آه ياحسن على كلامك بموت فى كلامك وبموت فيك وبموت فى كل الدنيا اللّى حواليك ..
- شوية شوية هدّى عليه .. عايز أخف النهارده قبل بكره عشانك..
- تطلع بالسلامة الأول .. خلاص هانت .. إحنا كنَّا فين ..

.. لَّما سمعت طرق الباب قامت من جواره قائلة وهى تتجه نحو الباب :

- مين .. خشى ..

دخل التلميذ حمدى هنطش واندفع نحو حسن وقبَّله من جبينه واحتضنه قائلاً:

- خالى حبيبى .. خالى حبيبى وراح يبكى ..

شدته منى قائلة ..

- ماتتفعلش وماتحضنوش أوى لسه مايقدرش على كده ..

التفت إليها حمدى وصافحها بقوة كأن رجلاً يصافحه وقال :

- دا خالى هاتحوشينى عنه ..

وراحت منى تضحك لطيابة أهل البلاد التى تعرفهم جيدًا لأن أهل السروهيل قريتها همَّ نفس العيِّنات الطيبة فى كل قرية .. وقعدت على سريرها وقالت له :

- اقعد .. اقعد .. (فقعد) ..

وقال له حسن وهو يبتسم ..

- إزيَّك ياحمدى ..

- إزيك ياخال ..

فقالت منى :

- خالك إزَّاى ياحسن ..

- أمه بنت ابن عمتى ..

.. أومأت برأسها وكأنها فهمت وقالت لحمدى وهى تنظر إلى اللفة التى أتى بها وتشم رائحة الطعمية :

- افطر .. جايب طعمية ..

- أنا فطرت .. جايب الطعمية لحسن زيارة على أدَّى ..

راحت منى تقهقه وتضرب كفًا بالأخرى ولَّما هدأت قالت :

- هوَّ إنت راخر جايب طعمية..إنت عارف ياحمدى الطعمية دى ما ياكُلهاش إلاَّ السليم الطعمية زى السردين تزوِّد درجة الحرارة ..

- يانهار إسود والله ماعرف..

- إنتو كلكم طيبين ياحمدى .. خالك تزوره من غير حاجة وبعدين إنت تلميذ مش مطلوب منَّك زيارة بكفاية تيجى تزور خالك ..

- خالى دا حبيبى بيقول لأبويا إنّى بذاكر .. واقترب من وجه خاله وأكمل قائلاً :
- مش كده ياخال أنا عايز آجى منوف تاني .. أخويا الكبير ممّوتنى من الشغل فى الغيط كفاية الإجازة .. عايز أهرب من البلد على الأقل تلاث سنين ظاظا .. وبعدها يفرج ربّنا ..

وقال له حسن مجاملاً فى صوت خفيض :

- خلاص ياحمدى .. هاقول لأبوك أنّك بتذاكر .. بس ذاكر ياحمدى..

.. بعدها انصرف حمدى بعد أن عفق حسن حضنًا وصافح منى بنفس قوة مصافحة الرجال ..

.. كان حسن قد شعر بمجهود بعد زيارة حمدى وراح فى نوم مَّرة أخرى..

*****

.. قام كثيرًا طول الليل وتركته وكانت تمسح عرق وجهه الغزير بكفيها، ولّما كان يتمتم بكلمات أو همهمات لا تفهمها كانت تكضم على أسنانها قائلة .. ياترى فيه ايه هوّ تعبان ولاّدى بوادر الشفا .. وتبكى، وفى الخامسة بعد الفجر جاءته الممرضة وأعطته برشامة بعد أن أخذت تضرب بأصابعها صدغه كى يفوق ويبلع البرشامة بالماء ..

.. ورغم إنهاك الحمّى إلاّ أن شفتيه تتحركان عندما يتكلم فترسم دائرتين من ضياء زاه فتغريها وتقبل على تقبيله بقوة .. إن شفتيه مازالتا مثار فتنته لها رغم شحوبها قليلاً، ورغم أنها فى المستشفى وحبيبها لا يراها فإنّها كانت حريصة على أن تتزين فى مرآة الغرفة وتبل شعرها بالفازلين وتمشطه ثم تنثره على أكتافها فوق الجلباب، وكأنه شجرة شعر البنت التى تنتشر على

حروف الترع فى البلد قد زرعتها بين كتفيها .. وشُغل الملقاط فى حاجبها ووجنتيها وأذنها طيلة وقت فيه حسن نائم وكأنها تنتهز الوقت فى شيء نافع من أجل شوق اللقاء معه بعد شفائه، وكان بالغرفة حمَّام خاص وهى الغرفة الوحيدة بالدرجة الثانية التى بها حمَّام وذلك كلّه نظير البقشيش الذى نقدته لمشرفة الإدارة والممرضات وكانت جد كريمة معهن جميعًا فكل واحدة من العاملات فى الدرجة الثانية ربع جنيه ورئيسهم خمسين قرشًا .. كانت أمى تشترى البطة أو الوزة بربع جنيه وكيلو اللحمة فى ذلك الوقت بربع جنيه، ولكن بقرش الحشيش الذى يحصل عليه طوجنى كل أسبوع هو الذى يجعلهما يعيشان فى فخفخة، وكان حسن عشيقها أول من تمتَّع بهذا العيش الزائد .. من هى وما عمرها حتى تفهم أى معنى للحلال والحرام .. أليس من حقها أن تتمتع بشيء من رغد الحياة .. وأن تتمتع بدخل الزيادة الذى يضيفه مجعول الحشيش فى بيتها ..

.. وفى فترة نوم حسن الكثير وهو فى رحلة شفائه يومًا بعد يوم، كانت بعد تزيُّنها تتمدد فوق السرير بعد أن تقفل الباب بالترباس وتأخذ حريتها فى التعرى فوق الفراش .. إن نار الشوق إلى حسن تشتعل فى جسدها الذى حرم من وصاله فى تلك الأيام التى لازمه المرض فيها .. متى تنتهى تلك الأيام الصعبة .. لم أتعود على الحرمان منذ عرفته .. إن الحرية التى منحها لها طوجنى مع أخوها حرية لا تتكرر مع أى امرأة فى البركُلّه، لا أعرف الفضل لمن أهو اللقاء الأبدى مع ذلك الغلام الجميل أهو الباب المفتوح الذى شرعه الطوجنى لها حتى لا تطلب منه الطلاق .. هل تقدَّم الغباء على الكرامة عند طوجنى، ما هى الكرامة عند البعض وكيف تكون الحرية مع الاحتفاظ بالكرامة، وهل الغباء هو غضُّ الطرف وترك ما حولك يفعلون ما

يحلولهم .. وإذا كان كل شيء بالرضا فلماذا الإغتصاب، وإذا كان كل الرجال مثل طوجنى فليس هناك رجولة، وإذا كان قليل من الرجال مثل زوجى فذلك شيء جائز ولكن لابد من معالجته لأن فى ذلك هول .. يالهوى .. هذا ما صرخت به منى وأعلنته فزعة مع نفسها وكأن ضميرها قد صحى فى المستشفى وأن مرضه ومعاناتها معه أعطتها معاني أخرى .. ثم سكت الضمير الذى أتاها دقائق ..

.. أنا لست داعية أخلاقية .. أنا امرأة حين يأتينى الليل والنهار وهو معى تنتهى أن يكون أمُرنا شيئًا واحدًا حتى أنه فى ليلة تغزَّل فى شعرى الذى كان يظلُّ وجهى وصدرى قائلاً لولاه تعدو قبلاتى جوفاء .. فلَّما قلت له معقولة .. يالهوى.. فأردف قائلاً .. إن شعرك كحل لعينى إذا كان للرجال كحل وأنه لولاه لا يسير عمرى إلى الغد ولا يطول طموحى لحظة ولا يمتد .. هكذا طيَّرنى حسن ولم أعد من أول ليلة معه أمشى على الأرض وأننى مازلت طائرة ..

.. كان عليها فى صباح اليوم التالى أن تذهب إلى البيت لعمل طعام جديد وتأتى بزوَّاده تكفيهما ثلاثة أيام أخرى كما فعلت من قبل، وأن تستحم وتغيِّر ملابسها .. غادرت المستشفى فى السابعة صباحًا وكما عوَّدها حسن ركوب الحنطور ترجَّلت أحدها فوصلت البيت فى دقائق .. وجدت زوجها نائمًا فراحت تنادى عليه :

- توتو .. توتو ..

تقلَّب فى فراشه وتثاءب وطفق قائلاً :

- إنت جيت ..

- أيوه .. ماجيتش ليه تزور حسن ..

- هاجى غصب عنى .. اليومين دول عندنا كبسات .. الحشيش كُتر فى البلد ..
- عايزه فلوس ..
- خدى اللّى إنت عايزاه من جيب الجاكت ..
- طيب أنا هاستحمه وآخد أكل وأروح لحسن ..
- أحسن روحى مستريَّح منك .. خليّك فى المستشفى ..
- كده ياتوتو مابتحبنيش ..
- أبدًا عايزك تبقى مرتاحه .. خلاص بقى سيبينى أنام ..
- هاتيجى إمتى تشوف حسن ..
- البركة فيك هاحاول ..
- هىَّ كلها يومين بالكتير الحرارة نزلت وبقت عادية ..
- ربّنا يشفيه علشانك يامنى ..
- وربّنا يخليك ليهَّ ياتوتو ..

.. طهت دجاجة مع شوربة مكرونة وخرجت إلى الشارع وهى على سنجة عشرين بعد استحمامها وارتدائها ثيابًا أخرى نظيفة جميلة.. وكان أحلى ما فى ثيابها جلابية بسفرة مثل التى ترتديها نساء مركز الباجور ومنوف وتحت الجلابية قطع نسائية قصيرة جميلة لا ترتديها أميرة فى قصر وكالعادة لا أحلى من عطر عتريس الذى ينتشر فى كل قرى ومدن المحافظة .. وإذا لم تكن منى جادة وصارمة وهى تمشى فى الشارع لمشى إلى جوارها وخلفها الشباب والرجال للحصول على رضاها أو للنيل منها .. كانت عادتها إذا تابعها رجل أو عاكسها أو تلكّع معها وبّخته أمام الجميع .. وكانت إذا سارت فى شوارع المدينة لقضاء حاجياتها قضتها على وجه السرعة، وعادت إلى

بيتها حتى لا تتعرض كثيرًا لعيون الرجال الفضولية، ولم تكن تستطيع أن تخفى فتنتها حتى لو ارتدت شوالاً من خيش .. مشيتها وحركتها والتفاتتها ووجهها وكعب رجلها والتفاف العباءة حول مؤخرتها مثير للغاية .. لدرجة أن حسن قال لها فى يوم .. جلابية السفرة التى ترتديها فى البيت زينة وبداعة لا تستطيع امرأة من مراكز أخرى أن تكون جميلة وفاتنة مثلك وأنت ترتدين هذه الجلابية .. كانت كل كلمة وهمسة قالها حسن هى نبراس الذكرى الجميلة حكتها مع نفسها منذ مرضه .. ولم يكن فى مركز أشمون إمرأة ترتدى جلابية السفرة الجميلة مثل التى ترتديها بلاد تلوانة والسرو وسرس الليان وهذا على سبيل المثال .. المرأة فى مركز أشمون إذا ارتدت لزوجها جلبابًا نظيفًا فى البيت كأنها لم ترتد أو تفعل شيئًا يروق لزوجها ..

.. إن جلابية البيت فى بلاد آشمون مثل شوال أو جلابية الرجل الفلاح أو عباية أبو جعبوب لأنه ليس هناك تفصيل أو حركات أو كرانيش ودندشة ودلع فى خياطة الجلابية .. فإذا جاء يوم السبت وهو سوق منوف عمرت المدينة بنساء القرى اللائى يرتدين موديلات .. متنوعة وجميلة وفى منتهى الشياكة رغم أنها جميعها محتشمة .. هذا بخلاف مدينة آشمون فإذا جاء سوق الأربعاء وامتلأت المدينة بنساء القرى التابعة لها فإنه لا شيء .. نساء مثل الجعابيب لا جمال فيهن ولا شياكة وهذا هو الفرق بين مدينة وأخرى ..

.. هكذا حكى لها حسن فى بطون ليال الغرام التى جمعت بينهما .. إنها فرصة اجتراء الذكريات مع عشيقها الغلام قبل مرضه .. وكان الحنطور الذى تمتلئ به مدينة منوف أحد الأشياء الجميلة التى فى هذه المدينة ..

.. أضف هذا غرام حسن .. فإذا شعر بضيق ركب الحنطور .. وإذا أراد أن يلقانى فى خيال وغرام ركب الحنطور ثم أتانى .. حتى أنه عندما أكل كثيرًا

من الميدان وأراد أن يهضم ما فى بطنه من طعام .. قال إن هزّة الحنطور ستهضم الطعام وتجعلنى أفوق ولكن فى هذه الليلة عرق حسن ولفحه الهواء فأصابته الحمى .. مركبة هى جزء ضرورى فى مدينتى لم أكن أشعر به قبل حسن الذى أضفى على حياتى الكثير الذى كنت أجهله .. حسن هذا الغلام الذى جعلنى أكون له عاشقة فلم أكن امرأة من قبل، وهو الذى فتح لى عالم الرجال الذى كنت أجهله..

.. أكل حسن هذه المرة بشهية حتى أنه التهم رغيفًا حشته بصدر الفرخة، وشرب ليمونا وتناول برتقالة فارتاحت منى كثيراً وقالت مبتهجة .. خلاص الشفا جه .. الحمد الله إنت كنت فين .. ياشافى إحنا كنا فين، ومرّت دقائق بعدها طرق الباب فقالت منى .. أدخل .. فدخل شاب فى الثلاثين يرتدى بدله وكاكسته فوق رأسه وقال وهو يمشى إلى سرير حسن :

- حبيبى يابن خالى .. سلامتك ..

مَّد حسن يده وصافحه قائلاً :

- أهلاً ياأستاذ صبحى ..
- سلامتك ألف سلامة ..
- مين قالّك ..
- عبد العزيز قالىّ إمبارح .. قلت لخالى ..
- لأ والله .. مافيش داع .. مش عايز أجلبب البلد ..
- كده أحسن .. قوللّى مش عايز فلوس ..
- لأ معايا ..
- دا إنت داخل درجة تانية جبت الفلوس منين ..
- كان معايا ..

.. وراح صبحى يبحلق فى الشابة التى تجلس مقابلته على حافة السرير، وكانت منى تشيح بوجهها بعيدًا عن نظراته ولَّما قلقت من ملاحقته لها وكأنه يقول .. يانهار إسود مين الحلوة دى .. مش ممكن تكون من البلد .. قامت وخرجت من الغرفة كأنها تقضى حاجة من الممرضات فسأل صبحى فى لهفة :

- مين دى ياحسن ..
- بنت خالتى من تلوانة ..
- يانهار أبيض تلوانة فيها الحلاوة دى .. وسايبنها معاك .. هىَّ متجوزة ..
- متجوزة .. وعادى زى أختى ..
- بس ولاد خالتك مش حلوين كده ..
- إنت من شنشور هاتعرف بتوع تلوانة إزَّاى .. ماتزهقنيش ياصبحى ..

.. وكان صبحى قد جرَّب حسن من قبل فى حوار معه وكاد حسن يشتمه فلَّم نفسه ومن ساعتها ابتعد صبحى عنه إلاَّ أنه جاء اليوم لزيارته لأنه مريض وسوف يؤنبه خاله حداد إذا علم أنه لم يزر حسن فى المستشفى .. غير أن صبحى قال فى تأدب خشية من حسن :

- على فكرة أنا عمرى ما شفت خالتك بتاع تلوانة .. هىَّ اسمها إيه..
- اسمها فهيمة وهىَّ سمرا لكن منى بنتها طالعة بيضه وحلوه زى أبوها ..
- ماتزعلش منى إنت أخويا الصغيَّر بحب أطمَّن عليك ..

- ماتخافش عليَّه ياصبحى ..
- أمَّال هىَّ راحت فين ..
- مافيش فايده منك .. من كتر بحلقتك ليها اتكسفت وطلعت ..
- كده .. طب أنا هاقوم ..

ووقف صبحى ووضع يده فى جيبه ودس ورقة مالية فئة الربع جنيه تحت المخدة قائلاً :

- معلهش بقى ماعرفتش أجيب حاجة ..
- خد .. خد تعال ماينفعش ..

لكن صبحى هرول سريعًا وانصرف فدخلت منى التى ترقب باب الغرفة هاربة منه قائلة وهى تضحك :

- ياخبر إسود عليه دا بيبص بصَّات..اتكسفت وطلعت ..دا فظيع ..
- معلهش .. ياما فى البلاد ..
- دا قريبك ..
- دا ابن عمتى .. ماتزعليش أصله أقرع ..
- علشان كده لابس كاسكته .. بيشتغل فى منوف ..
- موظف فى سنترال محطة منوف ..
- يعنى متعلّم وبالبجاحة دى ..
- معلهش هوَّ بيتصَّرف على سجيته ..
- ابن عمتك بصحيح ..
- ابن عمتى شفيقة .. وعمتى كانت قرعة ..
- يانهار منيّل ماتقولش كده ..
- والله كانت قرعة ..

- كويس إنها اتجوزت ..
- اتجوزت راجل أعجر عايز يناسب الحاج على "أبو عافية" بـــأى شكل وكانت الناس مايهمَّاش قرعه ولاَّ بشعر المهم يناسب راجل جامد ..
- وكان جدك جامد إزَّاى ..
- أبدًا كان عنده تلاتين فدان وكان راجل ملو هدومه وله نفوذ على العيلة كلّها ..

فضحكت منى بصوت عال ولما سكتت قالت لحسن :

- أنا باحسب جامد فى حاجة تانية .. دماغى راحت فى حاجة بالى بالك ..

فضحك حسن وهزَّ رأسه وقال :

- وكان جامد أوى بالى بالك ..
- يعنى إنت ورثت جدك .. العيِّنة بيِّنة يا حبيبي ..
- هذا رزق من جدى أعتز به .. على فكرة الحته دى أحلى حتـــه يُرزق بيها الراجل ..
- فعلاً أنا لما عشت مع طوجنى عشر سنين اتعقـــدت منـــه .. والله اتعقدت من كل الرجالة لدرجة أنى قلت فى نفسى باين الرجَّالـــة كلها كده .. لغاية ما شفتك .. وتنهدت فى حزن وكأنها تـــذكرت أيامًا مضت كانت حزينة ..

.. وكان حسن يشعر بأن ملابسه قد شربت كثيرًا من عرق الحمىَّ فطلب من منى أن يستحم ويغيِّر ملابسه، هرولت إلى غرفة الممرضات لتسألهن هل له أن يستحم فى اليوم الرابع فقالت كبيرتهن لها :

- مش مشكلة يستحمى بس اقفلّى أوى وتربسى الباب ماحدّش يدخل علشان أى لفحة هوا ..

.. انقلبت إليه منى وأخبرته بالموافقة لكنه تذكر عدم وجود الغيـــار وســـرح فقالت له:

- عارفة سرحت فى إيه ..
- فى إيه ..
- مامعاكش غيار ..
- فعلاً ..
- بص .. ساعة هاكون هنا ..

سكت حسن وخجل منها قائلاً وكأنه يتأسف :

- كل ده عليك .. مش معقولة .. كده حرام لازم نتحاسب يامنى .. يومين بس أتعافى وأروّح البلد علشان أحاسبك ..

توقفت فى دهشة وهى ترتدى ملابسها وقالت وهى تلومه فى صوت رقيق :

- شوف لو جبت سيرة الفلوس تاني كل واحد يروح لحاله ..
- بس دا حساب ذنبك إيه وذنب جوزك ..
- جوزى لو صول شرطة عادى هاقولّك نتحاسب لكن جوزى معاه فلوس متلتله ..
- عارف .. عارف خلاص عرفت .. بس الحساب حساب ..
- أنا مستعدة أبيع الدنيا كلها علشانك .. هاقولك حاجـــة واحـــدة.. وسكتت ..
- سكتّى ليه قولى ..

- مين أسعدنى .. مين خلاَّنى ست .. مين هنَّانى وريحنى .. مين خلاَّ عمرى عمرين .. أنا ملكة بيك .. إنت النور والحب والهوا.. أرجوك ياحسن أنا عاشقة .. عاشقة ياحسن ..
- ياه أد كده العشق جوَّاك ..
- روح اسأل أى واحدة عاشقة .. بس مافيش واحدة عاشقة زيِّى..
- إزَّاى ..
- أنا عاشقة أجمل وأقوى شاب فى منوف كلها ..
- أنا مش حاسس بكل ده ..
- إنت حر فى إحساسك .. إنت عارف أنا جوَّه نفسى باحس بإيه..
- قولى بتحسِّى بإيه ..
- إنت عارف كل ستات المديرية اللّى بيعرفوا الحب والعاشقين مايجوش حبة قمح جنبى ..
- يعنى إنت غيط من القمح ..
- أنا غيط قصب بينز عسل نحل .. إنت عارف مين اللّى زرع القصب جوايا مين اللّى زرع غيط القصب ..
- مين ..
- حسن .. حسن .. كفاية ياحسن خليِّنى أعيش فى الحلم ..وإذا كنت عايزنى أحلم ماتجيبش سيرة الفلوس تاني ..عشان خاطرى ..

.. وانكفأت فوقه واحتضنت صدره بقوة وهى تمسك بكفيها رأسه فى حنان بالغ .. وظلَّت هكذا حتى سمعا نقرًا بالباب ..

****

.. ارتعشت لَّما سمعت الباب يطرق بقوة ونادت بصوت ضعيف .. أدخل ..
ودخل عبدالرحمن ابن عم حسن وفى يده كيس وقال بصوته الأجش :

- سلام عليكم ..

ردَّت منى وقد اطمأنت أن الطارق غلام :

- وعليكم السلام .. اتفضل ..
- أنا عبدالرحمن ابن عم حسن ..
- أهلاً أدخل .. هوَّ بس غفّل شوية ..
- معلهش سلامته .. وجلس على حافة سرير حسن وتابع يقول:
- عبدالعزيز قال لى إمبارح .. بقى له كام يوم ..
- دا خامس يوم ..
- الحرارة نزلت ..
- نزلت النهارده بقت عادية ..
- سلامته .. وراح يسرق نظراته نحو وجهها وجسدها ..

ولَّما وجدته هكذا مثل صبحى قالت حتى يخجل :

- إنت مش عارفنى .. شكلك بتشبّه علىَّ ..
- أنا عارفك ..
- ينفع بنت خالته بتاع طوانة ..
- لأ .. إنت ساكنة قصادنا .. مش إنت مرات الصول ..

.. لم تبال بأنه عرفها وقالت وهى تعدل من جلستها فوق سريرها :

- شاطر يا عبدالرحمن .. مش إنت فى ظاظا برضه ..
- أهى أيام بنقضيها فى منوف ..

- عمرى ما شفتكوا بتروحوا المدرسة الصبح زى كل عيال المدارس ..
- ياستى ونروح ليه ماانت عارفة أهه ..
- حسن الوحيد اللّى بيروح المدرسة ..
- حسن شاطر من يومه بس .. وسكت ..
- سكت ليه ..
- حسن واخد سكة لواحدة .. وبيحب البيت وقاعد فى البيت جنب أمه ومابيروحش الغيط زيّنا .. كلنا أولاد عم وقرايب حته واحدة مختلطين ببعض إلاّ حسن ..
- علشان كده نافع فى المدرسة ..

ضحك عبدالرحمن وقال :

- بس حسن ليه حاجات تانية ..
- إزّاى قول يا عبدالرحمن باين عليك دمّك خفيف ..
- طول عمره شقى بس من تحت لتحت ..

ضحكت بصوت عال ثم قالت مشجعه :

- قول كمان يا عبدالرحمن ..
- طول عمره نمس ..
- مش فاهمه ..
- بيروح الكفر عند البنات الحلوة ومابيحبّش بنات وستات بحرى..
- أكيد فيه سبب ..
- والله إحنا كلّنا مش عارفين السر ..
- أهو كل واحد فيكم ليه سكة ..

- تصدَّقى شنشور بلدنا فيها سكك كتير والعيال فيها كل واحد فيهم واخد سكة .. والدليل على كده شوف ولاد تلوانة مافيش واحد فيهم فى مدرسة ظاظا ..
- هوَّ فعلاً حسن قال لى كده ..
- دا مش كده وبس .. العِّيل من تلوانة .. المدرسة والمذاكرة وبس وعمر ما عيِّل من البلد دى راح سينما ولاَّ قعد على قهوة ..
- غريبة رغم أن أهلهم مش معاهم ..
- عيال متربِّية أوى .. بيقولوا عليهم ملتزمين ..
- له فى شأنه حِكم ..
- ماتعرفيش جاية إزَّاى ..
- كام واحد من بلدكم فى ظاظا أكتر من تلاتين تلميذ ..
- وكلُّهم مابيروحوش المدرسة ..
- كلُّهم ..
- ودا جاى منين ..
- يعنى عبدالعزيز ابن عمى أخو حسن من دلوقتِ بقى معلِّم وتاجر بهايم ..
- عبدالعزيز دا عقله ذكى بس عايز يبقى كبير مَّرة واحدة ..
- أهو من دلوقتى راح مع ولاد شرارة أشهر تجار بهايم فى البلد..
- والمدرسة ..
- باعها ..
- وأبوه عمل إيه معاه ..
- أبويا حداد سايب كل واحد من ولاده يروح مطرح مايروح ..

- عبدالعزيز جه هنا زار حسن وعرفنا إنه جاى منوف ياخد رقم الجلوس يعنى عايز يدخل الامتحان وينجح ..
- على فكرة إحنا كلّنا جينا ناخد رقم الجلوس دى تلكيكة ..
- مش فاهمة ..
- علشان ناخد فلوس ونيجى ندخل السينما ونلعب شوية فى منوف لكن ولا واحد فينا عايز يكمّل فى المدرسة ..
- ياخبر إسود عليكم دا إنتو ضالعين فى البوظان ..
- شوف ياست .. إحنا كده .. شنشور دى بلد الحرية ..
- كل واحد فى البلد دى دولة لواحده .. يمكن علشان بلدنا غنية عن البلاد التانية والرجّالة فيها شديدة على نسوانها ..
- مابقتش فاهمة حاجة ..
- ولا أنا سيبيها ياست تمشى زى ما تمشى .. بتسألينى يعنى إيه الحرية .. بقى أنا هاقولك يعنى إيه الحرية كل اللّى أعرفه أنا حر باعمل اللّى عايزه
- إنتو عيال عفاريت ماحدّش يعرف يمسك حد فيكم ..
- ولا حسن تعرفى تمسكيه ..
- لأ سيب حسن مالكش دعوه بيه ..
- ماحنا سايبينه طول السنة حد قالّه حاجة ..

.. ولّما زهقت منه ومن لماضته قالت له :

- الكيس ده فيه إيه ..
- بردآن ..
- يعنى إيه ..

- أنا لهجتى كده بتقولوا عليه برتقال ..
- يانهار إسود عليك حتى ده غيَّرت فيه بكيفك ..
- مابعرفش اقول غير بردآن ..
- جايبه ليه معاك ..
- علشان حسن ..
- حسن مش عايز حاجة ..
- ياستى دا بردآن ببز ..
- يعنى إيه .. عمرى ما سمعت ببز ده ..

فتح عبدالرحمن الكيس وأمسك ببرتقاله وأعطاها لها قائلاً :

- شوف من ناحية البردآنه ليها كلكيعه ..
- يالهوى عليك يا عبدالرحمن .. دا اسمه برتقان بُصرَّه ..

.. وراح عبدالرحمن يضحك وهى تضرب كفًا بالآخر ولما هدأت قالت :

- تصدَّق بالله إنت ولد رهيب عندك كلام وحاجات .. دا إنت كلكيعة يا عبد الرحمن الكلكيعة فيك إنت مش فى البرتقالة ..

هزَّ رأسه وقال وهو يقف :

- طب بكفايه كده داحنا بنتكلّم من ساعة وحسن غطسان ..
- كتَّر خيرك يا عبدالرحمن خد البردآن معاك ..
- أهو كده والله كلمة البردآن أسهل آدى إنت قلتيها ..
- طب خد الكيس ياحسن ..

هرول نحو الباب قائلاً وهو يندفع إلى خارج الغرفة :

- والله ماخده .. تبقى سلميلى عليه ..

وراحت منى تقهقه من خفة دم وكلام عبدالرحمن ولّما هدأت استلقت فى سريرها وهى تهمس محدّثة نفسها .. ياما فى البلاد حكايات ..

*****

.. أخذت منى تقهقه فى الرايحة والجاية داخل وخارج الغرفة وهى ترتّب ملابسها وملابسي فى شنط القماش التى تذهب بها إلى السوق .. إنها فرحة بأشياء كثيرة .. بشفاء حسن وخروجه من المستشفى ظهر غد وبمعرفتها لأهله وخاصة العيال الصغار وكان آخرهم عبدالرحمن ابن عمه .. ولّما أحكمت حقائبها راحت تفرش ورق جرائد فوق منضدة صغيرة بين السريرين لتضع عليها أطباق طعام الغداء ولّما انتهت داعبت حسن بإصبعها فى أنفه كأنها تشاغبه :

- حبيبى .. قوم اصحى .. ياللا أحسن جوعنا أوى ..

انقلب حسن على ظهره وربش برمش عينيه وقال وهو يتثاءب :

- سمعت زى ما يكون كلام وحكايات لكن النوم كان غالبنى .. زى ما يكون حلم هوّ كان فيه حد بيكلّمك ..
- عبد الرحمن ..
- ابن عمى .. مشى ..
- لسه ماشى ..
- ماصحتنيش ليه ..
- لو قمت صحيت كنت هاتموت من الضحك وأنا مش عايزاك تموت ..
- ليه عمل إيه ..
- جاب لك بردآن ببز ..

ضحك حسن كثيرًا وهزّ رأسه مبتسمًا :

- حكاية البردآن دى من صُغره .. كان يقول لى تعال ناكل بـــردآن عندنا جابوا النهارده بردآن من السوق ..

وراحا يتناولان الغداء وهما مهسّكان من الضحك اللذيذ على ولاد ظاظا ولّما أكملت كل الحكايات عنهم قالت وهى تلم أطباق الطعام :

- والله دى عيال لذيذة كفاية عليهم دمُّهم الخفيف ..
- يعنى حكاياتهم دى هاتوظفهم يامنى .. يبقى دمُّهم خفيف وينجحوا فى المدرسة ..
- همّ دول بتوع الحشيش ..
- أيوه بس المعلّم بتاعهم ماجاش هوّ أصلاً مش هايجى ياخد رقـــم جلوسه..
- ياه دا سيد محمود ابن عمك ضاربها صرْمة كده ..
- ضاربها صرْمة وطبنجة أهى دى تالت سنة فى دبلوم التجارة ..
- وعمك محمود مابيقولش حاجة ..
- أهو عيب أهلِنا سايبين كل واحد بكيفه مافيش إشراف ولا متابعة ولا عقاب ..
- الناس دى طيبة أوى ..
- أهم بيقولوا العَيِل فى المدرسة بيصرف زى نفر بيشتغل زيادة فى الأرض ..
- بس لازم من تأنيب العَيِل ومحاسبته والشد عليه ..
- مافيش الكلام ده عندنا .. إحنا عندنا واحدة فى البلد مرات محمد الغندور ليها ولد فى ظاظا .. ليل ونهار إجّدعن أمُرق انجـــح ..

طول ما أمك وأبوك عايشين اجَّد عن خلَّص وهمَّ موجـــودين .. طول ما الأب والأم عايشين دى أيام قمره يعنى أيام منوَّرة وحلوة .. العيِّل لازم يجَّدْعن ويخلَّص بعد كده مش هايلاقى فرصته لمـــا أبوه وأمه يموتوا .. الست دى كانت بتقول للعيال كلّها الكـــلام ده ومافيش فايده ..

- آه من عيال بلدكم .. على فكرة مافيش عيال بايعاها كده زى ولاد بلدكم
- العيِّل طول ما هو شبعان مابينفعش .. لازم العيِّل يجوع علـــشان ينفع ..
- أول مرَّه أسمع الكلام ده ..
- شوفى ولاد هيت ولاَّ ولاد قلتى ولاَّولاد تلوانة العيِّل فى البلاد دى .. بياكل بحساب ويشرب بحساب علشان كده التلاميذ فى الـــبلاد دى ناجحين على طول .. ومافيش حاجة اسمها شلل حشيش ولا حتى شُرب سجاير .. تصدَّقى يامنى مافيش تلميذ من الـــبلاد دى بيدخل سينما منوف .. كل يوم اتنين السينما بتتملـــى مـــن ولاد شنشور ..
- ياللا .. يعنى ولاد بلدكم فاجرين أوى ..
- يعنى حاجة زى دى .. ما هو الفجرُ أنواع يـــامنى .. نقـــول دى عيال باتعه ماحدَّش قادرها .. الفجور دا عندى أنا ..
- يالهوى إزَّاى .. إنت فاجر تف من بُقَّك ..
- يعنى هوَّ فيه واحد سِنهُ خمستاشر سنة يعمل زيِّى كده ..

- يالهوى تاني إنت حطيت نفسك فى درجة وحشه كده ليه .. ياريتنى ماتكلّمت ..
- دى الحقيقة يامنى .. مش أنا فاجر برضه ..
- إنت راجل حبيبى .. لقيت الحب مَّديت إيدك ليه ..
- بس مافيش حد لا فى بلدنا ولا البلاد دى عاشق محترف زيِّى ..
- البلاد دى مليانة عيال بتتشاقه مع النسوان فى السوق وبياخدوا الواحدة يعملوا فيها بالعشرة تبقى دى تسمِّيها إيه ..
- أسميها معجنة وعوصة وزروته ..

- عرفت بقى إن كلُّه فى الهوا سوا .. مافيش حد بيعيش من غير ماياكل وهوَّ دا أكل يامنى ..
- شوف شقاوة العيال أكل وغرامى بيك أكل .. لكن أكل عن أكل يفرق ..
- إزَّاى ..
- دا حب وعشق وغرام مزاج خاص مش رمرمة ..
- وهوَّ عيِّل زيى ماله ومال الغرام ..
- الغرام هوَّ اللّى لقاك وماقدرتش تبعد عنه ..
- يعنى أبويا وأمى لو عرفوا أنى وصلت للدرجة دى وعرفت كل حاجة عن الستات هايعملوا فىَّ إيه ..
- يفتخروا بيك علشان عرفت واحدة زيِّى ..
- هوَّ إنت مين يامنى ..
- أنا هرم من الحب والعشق إديته لحسن بس ..

- والله مانا عارف رايح على فين .. دا صح وطبيعى ولاَّ دا غلط..
- على فكرة ماحدّش فى منوف كلّها بيعرف يعمل حبّنا ..
- ودا شيء نفتخر بيه .. ولاد منوف بيعملوا فى صلب الحياة بيبنوا ويتاجروا وبيعمّروا الأسواق ..
- شوف كل واحد ربّنا مديله حاجة ..
- بلاش سيرة ربّنا فى الحاجات دى .. خلّينا تحت زى ماحنا هىَّ الأرض فيها كل أنواع الطين ..
- إنت قلت بنفسك الأرض .. وهىَّ لو مش الأرض كان مين يطلّع الزرع وتستخرج كل المعادن منين ..
- الحاجات دى جوّه الأرض لكن إحنا فوق الأرض ..
- واحنا اتخلقنا من طين الأرض ..
- يعنى طين الأرض قال الواحدة تعشق على جوزها وعيّل زيى جاى يتعلم ولاَّ جاى يعشق ..
- شوف أنا مش هاتعصّب من كلامك .. على فكرة جوزى اللّى قال لى خدى راحتك وجاب ناس كتير علشان أقرّب منهم مانزلش واحد منهم من زورى..
- طيّب دا تسميه إيه ..
- هوَّ دماغه كده مش عايز يطلّقنى عشان مايتفضحش فى البلد ويقولوا طلّق مراته .. هوَّ عايزنى معاه وكتير قال لى عايز أعوّضك .. وكانت أهم حاجة عنده إنه لو سألنى الناس فى البلد هاقولُهم مالوش فى النسوان..
- فيه مثل بيقول جه يكحّلها عماها ..

- بالعكس بالنسبة لى هوَّ كحَّلها كويس أوى ..
- بقى كل الرجّاله اللّى جم حششوا معاه ماعجبكيش حد منهم ..
- اسمع بتوع منوف كلُّهم مالهمش فى الحب ليهم فى حاجة واحدة.. القرش القرش ..
- والله عمار يامنوف .. وياخيبتك ياشنشور ..
- يعنى لو مش بتوع شنشور كان مين ها يسعدنى ..
- وهوَّ دا عمار يعنى أول ما شطحت نطحت .. دا نا عيِّـل لا راح ولا جه أبويا جابنى منوف علشان أعشق ..
- وأنت عشقت مين ياحسن ..
- عشقتك ..
- ودا لوحده تاج ليك ياحسن ..
- إذا كان تاج ماقدرشى ألبسه أدَّام الناس ..
- إنت ممكن تلبسه أدَّام الدنيا كلها والحل فى إيدك إنت ..
- إزَّاى ..
- اتجوزنى ..
- وجوزك ..
- نموِّته ..

****

انتهت بحمد الله وعونه